الجزء الثالث

1990 ـ 1999

28

الأسطورة والرجل

إني أتجول بين عالمين، أحدهما ميت
والآخر عاجز عن أن يولد
وليس هناك مكان حتى الآن أريح عليه راسي
ماثيو آرنولد «الشرتروزيه الأعظم»

سار مانديلا خارج بوابات السجن بتاريخ 11 شباط (فبراير) 1990، ويده بيد ويني. كانت أقوى صورة في ذلك الحين، حتى في عهد الأبطال الجذابين الذين يتغلبون على المستبدين في أوربة الشرقية وروسية: غورباتشيف ـ فاليسا، هافل، وسقوط جدار برلين، لأن مانديلا جسد أسطورة ذات طابع جوهري وعالمي أكبر، مثل الأوبرا الثورية أو الأوديسة، مصورة انتصار الروح الإنسانية، وعودة الزعيم الضائع. وقد سمحت عزلته الطويلة للأسطورة أن تنطلق من الرجل، تاركة كل شيء للخيال؛ مخطط تمهيدي منقط يستطيع كل شخص أن يملأ من خلاله صورته الخاصة المفصلة للبطل. والقليل فقط من المحامين والزوار عرفوا ما هو شكله. وعُرضت مبالغ كبيرة لتهريب صورته إلى الخارج؛ وأعيد نشر الصور القديمة إلى مالانهاية، حيث تحولت إلى رموز معلنة. كانت أول صورة معاصرة قد نشرت قبل يومين فقط، وتظهر مانديلا وهو يقف بثبات ويبتسم بلطف إلى جانب دوكليرك. وبقي الصحفيون وفرق التلفاز العالمية

الذين تجمعوا خارج السجن، بقوا حتى ذلك الوقت غير عارفين من سيتوقعون.

عندما ظهر أخيراً على شاشات التلفاز، أظهروا مشاهد من التشوش. فالإبلاغ القصير المتعمد، يرافقه الوصول المتأخر لويني سبب تشوشاً. الحشود كانت تتحرك في غير انتظام حول مدخل السجن ـ وتتسلق الأشجار، وتتعلق بالأسلاك وتقف على رؤوس الأصابع، منتظرة خروجه الذي طال تأخيره. حاولت فرق التلفاز بعصبية أن تعرف مكانه. قال ديفيد ديميلباي الهادىء عادة: «لو أننا نستطيع فقط تحديد موضع السيد مانديلا...». أخيراً ظهر شكله الضبابي، غير مبتسم إلى جانب ويني الفرحة، كان يرتدي لباساً رمادياً فاتحاً، ويبدو متوتراً وكئيباً. اعترف فيما بعد قائلاً: «عندما شاهدت الحشد فقط أدركت أنني لم أفكر بعناية كافية بأحداث هذا اليوم».[1] رأى أحد المراسلين، جون باترزباي من الكريستيان سانيس مونيتور الذي كان ينتظر داخل أرض السجن. رأى فجأة مانديلا يلوح أمامه، وحرك رأسه. تذكّر قائلاً: «فقدت كل إحساس بالذات، رأيت التاريخ والأسطورة يمتزجان مع الحقيقة»[2] خارج البوابات استرد مانديلا قدرته على المشي ورفع قبضته المشدودة إلى الحشد. لكن بعد دقيقتين كان قد اختفى في سيارة تويوتا كانت بانتظاره. كانت ومضة معذِّبة بالنسبة إلى الملايين الذين كانوا ينتظرون عبر أنحاء العالم؛ لكن الرمزية بقيت قوية وكأنه خرج بنصر منظم. كتب روجر ويلكينز في واشنطن: «لقد صفقنا وفرحنا وصرخنا لرؤية ملك، ابن عمنا الملك، يسير تحت أشعة الشمس».[3]

سار موكب التويوتا إلى خارج كيبتاون، وعلى طول الطريق كان المشاهدون، من بيض وسود، يلوحون أو يشدون قبضاتهم على طريقة تحية المؤتمر الوطني الإفريقي. وفي إحدى المرات أوقف مانديلا السيارة ليخرج ويتحدث إلى زوجين من البيض وطفليهما على جانب الطريق. لكن العملية

تحولت إلى فوضى في المدينة. بقي مانديلا محبوساً داخل سيارته بسبب الحشود المهتاجة؛ أصيب السائق بالذعر، وأضاع طريقه، وعاد ليلتجيء إلى ضاحية روندبوش. حاولت المجموعة الترحيبية في قاعدة المدينة تهدئة الحشود المنتظرة التي ملأت الساحة، لكنها كانت فاقدة الصبر. انطلقت رصاصة، وبدأ قطاع الطرق بنهب المحلات وسرقة المشاهدين. رأى بعض البيض في ذلك إنذاراً بالفوضى السوداء؛ كتب كيف أوين في الكيبتايمز: «إنه مثل مبكر لسياسة الاستيلاء على ممتلكات الآخرين. حيث أعطى مانديلا فوراً تأييده لذلك».[4]

وصل مانديلا في النهاية إلى قاعة المدينة عند الفجر، ليلقي أول كلمة علنية له منذ بيانه المطول من رصيف السفن عام 1964. لكن كانت أيضاً هبوطاً مفاجئاً، قرئت بأسلوب جامد بدون زخرفة بلاغية، وكأنه لم ير النص قبل ذلك. كانت خيبة شديدة للسياسيين والديبلوماسيين البيض. لكن دوكليرك وتاتشر توقعا أن يتماسك مانديلا بعيداً عن المؤتمر الوطني الإفريقي، وأن يبعد نفسه عن الكفاح المسلح والشيوعيين. لكنه أصر على أنه ملتزم كلياً مع المؤتمر الوطني الإفريقي:

> أقف أمامكم ليس كنبي بل كخادم متواضع لكم، أنتم الشعب. إن تضحياتكم البطولية التي لم تتوقف جعلت من الممكن بالنسبة إليّ أن أكون هنا اليوم. لذلك أضع ما تبقى من سنوات عمري في أيديكم.

شكر الكثيرين من البيض الليبراليين، بمن فيهم حركة «الوشاح الأسود» النسائية، مما خيب الزملاء المقربين، وحيّا دوكليرك بوصفه «رجل التمامية». لكنه قدم نفسه: «عضو مخلص ومنظم للمؤتمر الوطني الإفريقي». وقدم شكراً عميقاً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي، والحزب الشيوعي، وجنود أومخونتو وأسيزوي. لم يكن يفاوض في السجن، كما أكد لمستمعيه، بل يحث على الاجتماع مع الحكومة يجب أن يستمر المؤتمر الوطني الإفريقي في الكفاح المسلح: «ليس أمامنا خيار سوى الاستمرار».

الالتزام التام بالمؤتمر الوطني الإفريقي والكفاح المسلح أزعج السياسيين والديبلوماسيين. وقد ذُهل دوكليرك من تضامن مانديلا مع الشيوعيين، واعتقد أن كلمته كتبها أيديولوجيون متصلبون: «هذه المرة، فشل مانديلا كلياً في الارتقاء إلى مستوى المناسبة».[5] اعتقد السفير البريطاني في روبن رينويك أن الكلمة كتبها المؤتمر الوطني الإفريقي، وشعرت السيدة تاتشر بالرعب من «العبارات الشعائرية القديمة»، وألقت بياناً كانت ستصدره.[6] وقال مستشارها الأفريقاني لورينز ڤان ديربوست، الذي كان بالذات أسير حرب سابق ـ قال إنه شعر بالخيبة لأن مانديلا لم يتعلم من «مدرسة المعاناة».[7]

الخيبة التي نجمت عن الكلمة عكست الجهل بخصوص علاقة مانديلا بالمؤتمر الوطني الإفريقي، وأهميته السياسية الحقيقية: سيكون عديم القوة إذا لم يستطع أن يحمل حركته معه، وقد جعلته محادثاته السرية في السجن مصمماً بدرجة أكبر على إظهار تضامنه مع المؤتمر الوطني الإفريقي الآن. وبوصفه جوّالاً وحيداً سيجبر قريباً جداً على الخروج من المسرح السياسي، مثل غورباتشيف، لكن بوصفه زعيم الأغلبية السوداء المعترف به، فإن باستطاعته استخدام سلطته بأكملها من أجل تسوية سلمية. لم يستطع حتى ذلك الوقت التخلي عن الكفاح المسلح والعقوبات، التي تشكل أكبر سلاح ضغط فعال لديه.

أظهر مانديلا مظهراً أكثر تصالحاً وتوداً في اليوم التالي في مؤتمره الصحفي الأول. عقد المؤتمر في حديقة بيشوبسكورت، وهي عزبة الأسقف توتو الكبيرة في كيبتاون، حيث كان يقول: إنه كان قلقاً من ارتباطاتها بالفخامة البيضاء، لكن تم التأكيد له أنها أصبحت الآن «مركزاً شعبياً» لسود المناطق. دخل وهو يمسك بيد ويني، وبدا متوتراً وفمه إلى الأسفل، وجلس على عرش ليواجه وابلاً من المراسلين وكاميرات التلفاز. لقد تمت مقابلته تلفازياً مرة واحدة قبل ذلك عام 1961. والآن كان مذهولاً بالأسطوانات المكسوة بالفراء

التي لم يميز أنها كانت مكبرات صوت، وليست لديه خبرة بالكابح الصوتي المتكرر أو فرص التصوير. لكن الصحفيين فوجئوا إذ وجدوه غير قلق من الكاميرات، ويتكلم بِمَوَدَّة أكثر مما كان عليه في كلمته الجافة بقاعة المدينة. تحدث بجُمل كاملة كما قال أحد المراسلين «وكأنه أمضى ستة وسبعين عاماً وهو يتمرن على مخاطبة المؤتمرات الصحفية».[8]

عرف أسماء المراسلين من خلال سطور في رأس المقالات تشير إلى كاتبها. وشكر الصحافة بوصفها كانت «جيدة» معه في السجن، مبقية اسمه حياً: «كان هم الحكومة هو أن يتم نسياننا. لكن الصحافة هي التي لم تنسنا أبداً». أصر على أن الكفاح المسلح كان مجرد سلاح دفاعي. وكرر أن دوكليرك كان رجل وحدة تمامية، ولو أن ذلك تضمن تحذيراً: «يبدو أنه مدرك كلياً لمخاطر أن تتعهد شخصية عامة بالقيام بأشياء ثم تفشل في الالتزام بها». أهم شيء، كما أكد، هو عدم شعوره هو بالمرارة.

> ليس من اللطيف بالنسبة إلى رجل أن يرى أسرته وهي تناضل بدون أمن، بدون أن يكون رأس الأسرة موجوداً بجلاله ووقاره. لكن على الرغم من الأوقات العصيبة التي عشناها في السجن، توفرت لدينا الفرصة أيضاً للتفكير ببرامج... وفي السجن كان هناك رجال جيدون جداً في مجال أنهم تفهموا وجهة نظرنا، وفعلوا كل شيء لجعلنا سعيدين قدر الإمكان. وهذا ما أزال أي شعور بالمرارة ربما يشعر به الرجل.

قالت الفانينشال تايمز «إنها كانت أول إشارة إلى أن تبجيل جنوب إفريقية لمانديلا ـ والثقة به كزعيم ـ ربما كانا في محلهما».[9]

طار بعد بضعة أيام إلى جوهانسبورغ ليخطب في حشد من 100,000 في ملعب كرة القدم في مدرج سوويتو. كان اختباراً صعباً لقدرة المؤتمر الوطني الإفريقي على السيطرة على الجموع، حيث جلبوا مئة من القيّمين على ذلك، لأنهم لن يتحملوا وجود الشرطة. قدم والتر سيسولو مانديلا إلى التصفيق

المدوي: «هذا رجل ضحّى بحياته». تحدث مانديلا كمعلم أكثر من أن يتحدث كزعيم دهماوي؛ «إنها سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي التي جعلت النظام التعليمي بأكمله مركزاً للنضال. جميع الطلاب يجب أن يعودوا إلى المدرسة ويتعلموا». وقد أسف لإحصائيات الجريمة «إن مستوى الجريمة في بلادنا يجب أن يتم التخلص منه». الجموع استمعت وهي مفتونة، بدون أي انفجار للعنف، ثم تفرقت بهدوء.

غادر مانديلا بطائرة مروحية لتفادي الجموع. ونزل من الجو بالقرب من منزله القديم «علبة الكبريت» في 8115 شارع ڤيلاكازي في سوويتو، حيث كان ينتظره الصحفيون العالميون وعربات التلفزة، التي سدت الشارع في الخارج. كان ملصق المؤتمر الوطني الإفريقي أمام المنزل وهو: «مانديلا آتٍ». وبعد ذلك «سوويتو ليست حديقة حيوانات للسياح البيض العنصريين». كان الأمر وكأنه عودة إلى القرية الوطن. بدا وكأنه تأهل بسعادة، حيث إن ويني هي مدبرة المنزل المخلصة. وقد استقبلا معاً عدداً لا ينتهي من الزوار الذين كانوا ينتظرون دورهم في الحديقة الصغيرة حيث رفرف علم المؤتمر الوطني الإفريقي فوقها، وحيث كانت لجنة استقبال تضم زويلاخي وميرفي ميروبي تشرف على ذلك الاستقبال. هيأت ويني الوجبات في المطبخ، وردت على قرع الباب، وعانقت الأصدقاء القدامى قبل أن تقودهم إلى الداخل؛ وكان صديقها المصور بيتر ماغوبين يلتقط الصور. بدا مانديلا رسمياً كأنه رئيس دولة، في لباس رمادي ذي طبقتين، شاعراً بالراحة في هذا البيت الصغير، يحيي الأصدقاء بطريقة المؤتمر الوطني الإفريقي بالقبضة المشدودة، ويجلس في غرفة الجلوس الصغيرة ويداه الكبيرتان كيدي الملاكم على الطاولة. كان مطيعاً لجدوله الزمني الدقيق «(هل رتبت الأمر مع زملائي؟)»؛ كان خياطه يوسف سورتي وحده الذي كان بمقدوره أن يتجاوز الصف، حيث وصل ومعه بنطال معلق على عليقة. بدا حديث مانديلا فيه ارتياح ومَوَدَّة. كما بدت ذاكرته حادة؛ يبدو أن العقود الثلاثة

في السجن قد مرت إلى غير رجعة. قال لزوجتي سالي: «أتذكر طوني شاباً لامعاً. لم يخبرني عنك. لقد أخفى عني الأشياء».

وبالنسبة إلى الأصدقاء القدامى، بدا مرتاحاً مع نفسه أكثر مما كان في السنوات الثلاثين الماضية. من غير أن يكون متغطرساً أو في موقع دفاعي. بدا ألطف وأرق، مع ابتسامة دافئة مرحة بدلاً من التكشيرة المتوهجة. قالت أمينة كشاليا[10]: «لقد أينع ضمن شخصية مختلفة، إنه ودود مع كل شخص». لقد عرف بالضبط من هو كما قال إسماعيل مير «لقد اخترق تلك الفترة اللاهبة وطهّر نفسه وخرج شخصاً بإمكانه الأمل بإحداث تغيير في هذه البلاد».[11] خشي العديد من مؤيديه من أن يخذلهم: فملصق ـ بطل ـ الذي احتفل فيه في شتى أنحاء العالم ربما تحول ليصبح رجلاً مُسناً ضعيفاً ومرتبكاً. لكن لم يبد أنه قد وقع في شرك الماضي. إذ أصبح بسرعة (كما وصفت نادين غورديمير) «تجسيداً للمستقبل».[12]

كان أكثر تجانساً وإنسانية من شعار السجن. قال شيريل كارولاس الذي أصبح فيما بعد المفوض السامي في لندن: «كنا قلقين من كيفية خروج مانديلا وتأقلمه مع الصورة التي تشبه القديس، ثم أظهر أن لديه أخلاقية وتمامية وقيمة للحياة الإنسانية».[13] ومثله مثل رونالد ريغان، كانت لديه جاذبية مريحة تجعل كل إنسان يشعر بأنه أفضل بعد لقائه؛ لكن شهامته وفقدان القسوة لديه عكسا جدية أخلاقية، لا سيما بالنسبة إلى الجنوب إفريقيين البيض وكأنه قسيس في غرفة الاعتراف، يصفح عن الخطايا ويعطي مباركته.

لم يكن يصفح وحده، إذ شرح: «كل الرفاق الذين كنت معهم في السجن خرجوا بدون أي شعور بالقسوة أو المرارة». لو كنتم في مكاننا فإنكم لن تجدوا الوقت لتصبحوا قساة، لأنكم تنظرون إلى المشكلات.[14] قال سيسولو فيما بعد[15]: «إن القسوة تناقض السياسة بأكملها التي نذرت حياتي لها». لكن مانديلا سار شوطاً أبعد من أيٍّ من زملائه في السجن، وكان يغلق

بعضهم فمه عندما كان يبسط يده لأكثر مضطهديه السابقين قسوة.

كان لدى مانديلا شعوره الخاص بالذنب لإهماله أولئك الذين ساعدوه خلال صعوده، وسعى الآن لرؤيتهم لتقديم الشكر ـ بدءاً من أول معلم أبيض له لازار سايدلسكي إلى الأصدقاء الذين ساعدوه في السجن. شرح قائلاً: «مما يريح ضميري أن أكون قادراً على القول: هل تتذكر أن ذلك ما فعلته من أجلي؟»[16] لكنه بدا بعد السجن وقد أثارته كل أنواع الوجوه الجديدة، مثل ميراندا في «العاصفة»: «أيها العالم الجديد الشجاع، الذي فيه أناس كهؤلاء!» وكان في معظم الأحيان حريصاً على لقاء الأعداء أكثر من الأصدقاء. تطلع إلى التأييد من السياسيين والديبلوماسيين ورجال الأعمال البيض المستبعد تأييدهم. وعندما قدم روبن رينويك، الذي كان يبني الجسور البريطانية مع المؤتمر الوطني الإفريقي عندما قدم الغداء لمانديلا في المطعم الأنيق لينغر لونغر، كان خائفاً بخصوص رجال الأعمال البيض الذين يتناولون طعام الغداء. لكن مانديلا أظهر براعة في التجول في غرفة الطعام ومصافحتهم واختيارهم كزملاء له في قضيته. قال رينويك «كان ذلك أداء بارعاً متسماً بالثقة بالنفس».[17]

بدا مانديلا وكأنه يشعر داخلياً بقوة صورته: فهو بإمكانه توفير «تعبير رمزي للرغبات المشوشة للشعب»[18] لكنه ابتعد عن عبادة الشخص التي أفسدت الكثير من الدول الإفريقية؛ كان حريصاً على تجنب كلمة «أنا» وأدرك، كما حذر فرانز فانون: «إن الأيدي السحرية هي فقط أيدي الشعب».[19] كان يؤكد على الدوام أنه خادم للمؤتمر الوطني الإفريقي، «ربما يقولون: حسناً إنك رجل في الواحد والسبعين، إنك تستحق التقاعد؛ أو، انظر، إننا لا نحب وجهك، ارحل نرجوك. إنني سأطيعهم»[20] وكما قال ماك ماهاراج: «لم تكن حياته أبداً هي الكفاح، كلمة (أنا) لم تحل محل المنظمة».[21]

انطلق مانديلا برحلاته وهو يحمل تلك الصورة المتوهجة. كان ينفق في الخارج وقتاً أكثر مما كان ينفقه في الوطن خلال نصف السنة التالية. لكن كان

لديه هدف ملح: جمع التأييد والأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث يترجم سمعته إلى دفع نقدي، ويحافظ على العقوبات إلى أن تكتمل المفاوضات. كان أيضاً رجلاً مسناً في عجالة من أمره لرؤية العالم. ذهب إلى خارج جنوب إفريقية مرة واحدة فقط قبل ذلك؛ قبيل سجنه مباشرة. عندما حثه بوب هيوز العضو البريطاني من حزب العمال البريطاني على اتخاذ المزيد من الراحة، أجاب: «يجب أن أعوض سبعة وعشرين عاماً»[22] وهو الآن في وسط عالم ذي سرعة عالية لم يرها قبلاً، عصر نفاثات (الجمبو)، والحواسيب (الكومبيوترات)، والهواتف التي تعمل ذاتياً، والتلفاز العالمي، وهذا يؤدي إلى متطلبات مستمرة. وكان يتعين عليه أن يكون في كل مكان على مستوى أسطورة وسائل الإعلام لربط الأسطورة بالرجل.

كان يفتح أيضاً جنوب إفريقية أمام العالم، الذي عاملها لسنوات كدولة منبوذة. كان بإمكان مانديلا أن يرسم خريطته الخاصة لأصدقائه عبر الكون ـ مبتدئاً بإفريقية. بعد أسبوعين من إطلاق سراحه طار إلى لوساكا في زامبيا، للقاء زملائه في المنفى من المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين تجمع رؤساء دول مجاورة وزعماء آخرون هناك لملاقاة بطلهم. عانق ياسر عرفات، الذي قبّله على وجنتيه وقارن الكفاح الفلسطيني بكفاح المؤتمر الوطني الإفريقي. كما تمت تحيته بحماسة بالغة من الجماهير الكبيرة والأصدقاء القدامى، وكرر أنه مجرد خادم للمؤتمر الوطني الإفريقي: «إذا طلبتم مني أن أكنس الشوارع، فسأفعل ذلك». كانت لقاءاته الأولى مع المنفيين من المؤتمر الوطني الإفريقي شائكة، لأن الكثيرين كانوا ما يزالون مرتابين بأنه يخونهم في محادثاته مع الحكومة. لكنه عزز زعامته من جديد وبسرعة وألزم نفسه مجدداً بالكفاح المسلح، على الرغم من أقوال رئيس زامبيا كينيث كاوندا.[23] كان تامبو الذي ما زال رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي رسمياً، كان يتعافى ببطء من سكتته الدماغية في السويد، وكان ألفريد نزو أمين السر العام المحارب قد تم انتخابه

رئيساً بالوكالة. وأصبح مانديلا ذاته نائباً للرئيس؛ لكن بالنسبة إلى معظم أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي، كان هو الزعيم الواضح.

قام بزيارة زيمبابوي، حيث تحدث في 4 آذار (مارس) في مدرج الرياضة الوطني، وقدمه روبيرت موغابي الذي أصبح رئيساً للبلاد قبل عشر سنوات، في مناخ مماثل من المصالحة والتوقعات. لكن بدا الزعيمان وهما مختلفان أصلاً. قدم موغابي مانديلا بخطبة متغطرسة تخدمه ذاتياً حيث ندد بمنافسيه، في حين أن مانديلا، كما وصفه أحد المراسلين، «تحدث بالثقة الهادئة الجليلة لزعيم عظيم وظهر ـ متعمداً ـ هادئاً إلى جانب موغابي المرتعش المبلل بالعرق». [24]

قام بزيارة دول أخرى، بما فيها ناميبيا الحديثة جداً، حيث شارك في الاحتفالات بالاستقلال بتاريخ 21 آذار (مارس)، والتقى بزعماء العالم. كانت حكومة ناميبيا السوداء بزعامة سام نيوجوما إشارة إضافية للضغط الراسخ من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية. الزائر النجم كان مانديلا، الذي أظهر كل مهاراته الديبلوماسية، وعندما قيل إنه ازدرى وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد أرسل بسرعة رسالة ليؤكد له أنه لم يكن بنيته ذلك. [25]

زار الجزائر مرة أخرى، حيث كان هناك قبل وقت قصير من اعتقاله عام 1962؛ زار أحد الوزراء الذي كان يريد رؤيته آنذاك معتذراً لتأخره ثمانية وعشرين عاماً. وانتهى إلى زيارة السويد حليف المؤتمر الوطني الإفريقي الطويل الأمد، حيث بقي في القصر الملكي الصغير الجميل في هاغا خارج ستوكهولم، محاطاً بالزوار من جميع أنحاء أوربة. كان لديه اجتماع شمل مؤثر مع تامبو، حيث اعتقد أنه عانى وحقق ما هو أكثر مما حققه هو، والذي ما زال يتحدث بتقطع بعد سكتته الدماغية. أدرك مانديلا أنه ربما لا يشفى كلياً وهو في سن الثانية والسبعين. توسل تامبو إليه ليأخذ مكانه كرئيس للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكن مانديلا رفض: اعتقد أن ذلك سيساء فهمه، بالنسبة إلى زعيم يستلم رئاسته بعد خروجه لتوه من السجن. [26]

بعد ذلك بعدة أسابيع ذهب إلى لندن. كانت السيدة تاتشر قد أرسلت دعوة، لكن زملاءه نصحوه بعدم رؤيتها، وأعطى الأولوية بدلاً من ذلك للأصدقاء المخلصين للمؤتمر الوطني الإفريقي. أقام سوني رامفال أمين سر الكومونولث حفل استقبال في ماي فير، حيث شغل هو ووينى الغرف مثل الملوك، مصافحين بالأيدي، في حين حاول جيسي جاكسون سرقة الأضواء. ألقى مانديلا خطبة أيضاً في لقاء حاشد للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث شكر وأطلع العاملين في الحرب قائلاً لهم: «في حين كنا نجلس براحة في السجن، كنتم أنتم في خط المواجهة». وحذر من أن جنوب إفريقية ستشهد ـ إن لم تتحقق تسوية ـ «حريقاً هائلاً لم يشاهد مثله في إفريقية». لقد سيطر على الاجتماع، لكنه قال من جديد إنه خادمهم فقط: «لقد التقيت رؤساء لي هنا اليوم. ولديّ ملاحظة أرسلت إلي: (انتظرناك وقتاً طويلاً)».[27]

كان الموعد البريطاني الرئيسي لديه هو حفلة موسيقية ضخمة في مدرج ويمبلي في 16 نيسان (أبريل) ليقدم شكره لمن قاموا بالحملات ضد التمييز العنصري الذين احتفلوا بعيد ميلاده السبعين في الحفلة الموسيقية السابقة. إن مزيج موسيقى البوب والسياسات المتصلبة تم نقله تلفازياً من جديد من قبل الإذاعة البريطانية بي بي سي. حذرتهم حكومة تاتشر بوجوب تجنب الدعاية أو جمع النقود للمؤتمر الوطني الإفريقي. وتوجب على المشرف على القناة الثانية في البي بي سي وهو ألان ينتوب ممارسة «تحفظ كبير»، وهو يراقب بحرص كلمات نجوم البوب.[28] ملأ المدرج خمسة وسبعون ألفاً من الشباب، وهم يغنون ويتمايلون بأمواج مكسيكية. قدم النجوم الدوليون برنامجهم بحرية ـ بمن فيهم الإخوة مانهاتن ـ أصدقاء مانديلا في سويتو في عقد الخمسين ـ وشاهدهم بما يقدر بمليار مشاهد من شتى أنحاء العالم. وفي غرفة استقبال حاشدة استقبل مانديلا أصحاب الحملات القدامى، الذين لقيتهم ويني بلباقة، لكنه بدا أكثر استثارة بمغني البوب منه بالزعماء السياسيين أمثال نيل كينوك. في الختام سار

مانديلا إلى أعلى وأسفل المنصة بقبضة مشدودة أمام الهتافات الهادرة وقدم تحياته إلى تامبو والأب فدلستون رئيس الحركة ضد العنصرية. أبلغ مانديلا الحشد: «أنتم اخترتم أن لا تنسوا أنه حتى ضمن جدران السجن الثخينة... سمعنا أصواتكم وأنتم تطالبون بحريتنا».

عاد إلى الأرض لدى عودته إلى جنوب إفريقية، حيث زار مجدداً قريته الأصلية في كوتوفي الترانسكي. وصل بلباس قاتم ومرسيدس سوداء إلى مشهد مناقض كلياً لمشهد لندن، بضعة أكواخ مدورة من القش في الريف الأجرد، بدت حتى أفقر مما كانت عليه قبل ذهابه إلى السجن، وأصبحت الآن مشوهة بقطع بلاستيكية عديمة الترتيب معلقة بالسياج. سره أن يرى الأطفال وقد تم تسييسهم وهم ينشدون أغنيات عن تامبو، لكنه شعر بالحزن لأن «الاعتزاز في المجموعة بدا وكأنه قد تلاشى».[29] زار قبر والدته، وهو ما زال نادماً لأنه لم يهتم بها اهتماماً لائقاً، وتم الترحيب به في مأدبة، حيث قام أحد أبناء عمومته بذبح ثور ثمين. تم الترحيب به من قبل الزعماء المحليين وأقرباء مانديلا بمن فيهم شقيقته مابل. استرخى مع أحد الأحفاد، وهو يغير ملامحه بطريقة مضحكة. وألقى كلمة في كزوسا ترجمها إلى الإنكليزية: «قلبي حزين بالتأكيد بسبب مشاهد الفقر». شارك في الاحتفال إلى أن نزلت طائرة مروحية لأخذه بعيداً أمام دهشة الجميع.[30]

بعد ذلك بعدة أسابيع، كان في الخارج من جديد، إلى أوربة وشمال أمريكة. كان في مهمة خطيرة للحفاظ على العقوبات وجمع الأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه بدا كقديس، وراقبته سفارات جنوب إفريقية عن كثب بما أنه بز رئيس دولتهم بالذات دوكليرك. في فرنسة استقبله الرئيس ميتيران بطريقة ملكية وكانت زوجته دانييل قد دعمت اجتماع داكار الحاسم عام 1987. وفي روما استقبله البابا، وسرب أحد الرسميين في الڤاتيكان وهو المونسينيور مينيني تفصيلات سرية عن المقابلة إلى سفير جنوب إفريقية، مؤكداً له أن اللقاء

ليست له أهمية سياسية، لأن البابا يلتقي جميع الزوار السياسيين الكبار، حتى عرفات. قال: إن البابا لم يأخذ أية ملاحظات مثلما فعل مع زوار خطيرين بدرجة أكبر، ورفض طلب مانديلا المصادقة على العقوبات. كانت الشهرة الحقيقية، كما ادعى ميننيي «دون توقعات [مانديلا]».[31]

توقف مانديلا ليومين في إنكلترة للقاء تامبو «في مكان آمن» في (كينت) جهزته الحكومة، وتحدث طويلاً على الهاتف في الصباح مع السيدة تاتشر، حاثاً إياها دون نجاح على الحفاظ على العقوبات. لكنه تأثر لقلقها على صحته وبرنامجه المكثف جداً، والذي قالت إنه ثقيل جداً على رجل بنصف عمره؛ وبخته قائلة: إذا استمريت بهذه الطريقة فلن تخرج حياً من أمريكة». أدرك أنها «سيدة قوية جداً... سيدة أود لو تكون حليفاً لا عدواً».[32]

في أمريكا زار مانديلا ثماني مدن وانتقل بين المضيفين المتنافسين من الإفريقيين ـ الأمريكيين إلى الكنائس إلى العمل الفني. وفي نيويورك تمت مقارنته بموسى أكثر منها بمارتن لوثركينغ. امتطى سيارة بزجاج ضد الرصاص في موكب مؤلف من أربعين سيارة إلى برودواي: طباعات الحاسوب، وخمسون كيلومتراً من أشرطة التلغراف ـ اعتقد أنها قياسية ـ انهمرت من ناطحات السحاب، مع مئات الآلاف من المتفرجين الذين اكتظت بهم الشوارع الضيقة. وفي المساء أضيء مبنى الأمباير ستيت بألوان المؤتمر الوطني الإفريقي الخضراء، والسوداء والذهبية. قال حاكم نيويورك ماريو كوومو: «لقد رأيت تجمعات كبيرة وعروضاً وحشوداً ضخمة، لكن هذا كان شيئاً لم أره قبل الآن». ألقى مانديلا كلمة في الأمم المتحدة شاكراً إياها على الإعلان المتعلق بجنوب إفريقية قبل ذلك بعام. لكنه حذر في كل كلمة من أن «جدار العقوبات» ربما يتداعى قريباً جداً. وفي هارلم خاطب دائرة إفريقية مغلقة، محذراً من أن سرطان العنصرية ما زال حياً. قالت النيويورك تايمز إن زيارة مانديلا «لمست ونشّطت الأمريكيين السود إلى درجة كبيرة كأي شيء آخر منذ أوج عهد الحقوق

المدنية».[33] كان وقاره الهادىء الواثق ينظر إليه كمناقض ـ مرحب به ـ للمنطق العدواني للعديد من السياسيين الإفريقيين ـ الأمريكيين، وتمت تحيته بوصفه قدم نوع الزعامة التي مست إليها الحاجة. لكن كان لديه ضمان أغلبية سوداء تقف وراءه، وهذا ما لم يتوفر بتاتاً للأمريكيين السود.

في واشنطن، رحب به الرئيس بوش، الذي كان أول رئيس دولة يهنئه على إطلاق سراحه، انتقد بوش استخدام المؤتمر الوطني الإفريقي للعنف ضد نظام التمييز العنصري، ورد مانديلا أنه خلال التاريخ كان الظالمون هم الذين قرروا طريقة العمل السياسي: إذا استخدموا القوة الوحشية لقمع جميع تطلعات الشعب، ورفضوا كل حوار، فإنهم بذلك يرسلون رسالة إلى المضطهدين بأن عليهم اللجوء إلى القوة إذا أرادوا التحرير.[34] تأثر بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر باستعداد مانديلا للمصالحة والتفاوض بجدية. بعد ذلك بيومين أكد بوش لـ دوكليرك عن طريق الهاتف أن مانديلا لم يكن يحاول توجيه ضربة إليه؛ لكن عندما زار دوكليرك واشنطن بعد ذلك بثلاثة أشهر، كان حريصاً على إظهار أنه أكثر أهمية من مانديلا.[35]

في واشنطن خاطب مانديلا أيضاً جلسة مشتركة لمجلس الكونغرس. سبقها ثلاث دقائق من الترحيب وقوفاً. امتدح الأبطال السود مثل ماركوس غارفي، مارتن لوثركينغ، ودبليو. إي. بي دوبوا إلى جانب واشنطن، لنكولن وجيفرسون: «ربما لا يكون بعيداً اليوم الذي نستعير فيه كلمات توماس جيفرسون ونتحدث عن إرادة شعب جنوب إفريقية». وقد أزعج اليمين بالدفاع عن العقوبات. إلا أنهم لم ينسحبوا كما هددوا بذلك، وتلقى ترحيباً آخر وقوفاً، في حين أجل بفعالية وقف العقوبات. واستمر المحافظون في التشكي من تأييده لكوبا وليبيا، لكن بعضهم قبل أنه كان عليه إيجاد أصدقاء أينما كان في وقت الحاجة. وكما كتب تشارلز كروثامر: «نحن الأمريكيون، الذين عقدنا

تحالفاً في وقت من الأوقات مع ستالين، يجب أن لا يصعب علينا تفهم ذلك». [36]

كان مانديلا يشاهد أحياناً وهو مرهق من برنامجه المكثف، وتضايق من الحراس الشخصيين الذين منعوه من التحدث إلى عامة الناس. عندما بقي مع عمدة نيويورك، ديفيد دينكينز في عزبة غراسي حاول العدو وحده في الصباح الباكر، لكن الحراس أصروا على مرافقته. [37] ثم شعر بالنشاط مجدداً في كاليفورنيا وفي حشد أخير في مدرج أوكلاند، المزخرف بأعلام المؤتمر الوطني الإفريقي، قال: «أشعر وكأنني شاب في الخامسة والثلاثين، أشعر كأنني بطارية قديمة أعيد شحنها، إن النضال ضد التمييز العنصري هو القضية التي توحد الناس ذوي الآراء السياسية المختلفة في الولايات المتحدة وعبر العالم بأكمله».

وضع مانديلا وبسرعة جنوب إفريقية في مركز المسرح الأمريكي. قالت النيويورك تايمز: «لقد تحول إلى بطل شعبي تحييه الملايين التي ربما كانت تعطي اهتماماً طفيفاً للتمييز العنصري في جنوب إفريقية قبل بضعة أشهر». [38] ووصفته مجلة تايم «بأنه بطل كلاسيكي» برز من انبعاث رمزي وقور، وأصبح عظيماً، ومليئاً بقوة خلاقة... إن نيلسون مانديلا بالنسبة إلى إفريقية هو مثل بوليڤارا بالنسبة إلى أمريكا الجنوبية، ولنكولن بالنسبة إلى أمريكا: المحرر». [39] لكنه أنكر الأسطورة: أنا آسف إذا تم النظر إليّ على أنني نصف إله... أنا وتد تُربط إليه جميع تطلعات المؤتمر الوطني الإفريقي». [40]

سافر من أمريكا إلى إيرلندة، حيث كان في المياه الساخنة بسرعة: لم يستطع تصديق أن مشكلات أولستر لا يمكن حلها سلمياً؛ أخبر مؤتمراً صحفياً في دوبلن أنه «ليس هناك شيء أفضل من جلوس المتخاصمين معاً لحل مشكلاتهم بطريقة سلمية». طار بعدها إلى لندن، لكن كلماته لحقت به. كتبت الغارديان[41]: كان هناك تكهن واضح وتافه بشأن الفوضى التي وقع فيها نيلسون

مانديلا يوم أمس في دوبلن، إنه سيضحك بسخرية عندما يجلس سين فين للتحدث مع الحكومة بعد ذلك بسبع سنوات.

في لندن التقى أعضاء البرلمان البريطاني في قاعة ويستمنستر، حيث قدمه إيفور ستانبروك المندفع من حزب المحافظين (الثوري) والذي طرح فوراً مسألة أولستر، إلا أنه واجه وابلاً من الأسئلة والتحديات من قبل أعضاء آخرين في البرلمان بمن فيهم دينيس سكينر مع صيحات وازدراءات بكلمة «هراء!» «نفاية». مما أدهش مانديلا: «إنه لمذهل ما يقولونه في مجلس العموم».[42] ذكر أعضاء البرلمان أن «المؤتمر الوطني الإفريقي كان منبوذاً بالأمس» وطلب منهم تأييد العقوبات و«أن يسيروا الميل الأخير معنا». ذهب إلى حفل غذاء صغير أقامه وزير الخارجية دوغلاس هيرد، ضم أشخاصاً كانوا قد ساعدوا مانديلا، أمثال أسقف كانتيربيري والأب هادلستون. سيطر مانديلا على الوضع بهدوء، وشرح قضية العقوبات، وشرب الماء وأكل تفاحة بدلاً من الحلويات الدسمة.[43]

لقد رأى السيدة تاتشر في هذه المرة. لقد نصحها روبن رينويك بأن مانديلا ظل ينتظر سبعة وعشرين عاماً لتقديم وجهات نظره، وتركته يتحدث لخمسين دقيقة بلا انقطاع، وهذا يقارب الرقم القياسي بالنسبة إليها. شكرها بودّ لتحسين علاقات الشرق والغرب، ولتحسين استقلال زيمبابوي ولحثها بريتوريا على إطلاق سراحه. وطلب دعمها لتحقيق تسوية بالتفاوض، وشرح الحاجة إلى العقوبات. أجابت لمدة نصف ساعة، في حين بقي مانديلا بلا حراك. حثته على التحدث إلى باثيليزي، والتخلي عن الكفاح المسلح وخططه الخاصة بالتأميم. ووعدت بأن تظل على صلة وثيقة. كان اللقاء قد خطط له ليستمر ساعة واحدة إلا أنه استمر ثلاث ساعات.[44]

أدرك مانديلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت نقطة انطلاق حول العقوبات، إلا أنه فوجيء عندما وجد تاتشر ودودة وجذابة، في حين أنها «سيدة

حديدية» حقاً، ووجدته «دمثاً إلى أبعد الحدود مع نبل أصيل بطريقة مشيه» وبلا قسوة. حدثته بود لكنها وجدته ما يزال «ملتزماً بنوع من القاعدة الزمنية» وأقلقها أنه ربما يبرهن على أنه ماركسي آخر نصف ناضج، مثل موغابي في زيمبابوي.[45]

خارج داوننغ ستريت سأل أحد المراسلين مانديلا كيف استطاع إقناع نفسه بالتحدث إلى شخص ندد به كإرهابي. أجاب إنه يتعامل مع الإفريقيين الجنوبيين الذين فعلوا أشياء أسوأ بكثير. قال فيما بعد: «إنني لم ألمح حتى إلى المذابح».[46] أنهى رحلته في تموز (يوليو) في موزامبيق حيث قابل لأول مرة غراسا ميتشل أرملة الرئيس السابق سامورا ميتشل.

في تشرين الأول (أكتوبر) ذهب من جديد في رحلة إلى آسية، مع صديقه إسماعيل مير من بين المجموعة. كانت الهند المحطة الأهم، بوصفها الحليف التقليدي للإفريقيين الجنوبيين السود، واستقبل هناك بموكب عظيم يحتفظ به عادة لرؤساء الدول، بما في ذلك التحية بإحدى وعشرين طلقة ومأدبة رسمية في دلهي. وعد الرئيس راماسوامي فينكا تارامان بالحث على استمرار العقوبات وبدعم المؤتمر الوطني الإفريقي، ساعد حزب المؤتمر فيما بعد المؤتمر الوطني الإفريقي على شراء شل هاوس مقر قيادته في جوهانسبورغ.[47] وفي كلكوتا خاطب مانديلا حشداً كبيراً وشكر الهند على إنشاء الكفاح الجنوب إفريقي بإرسال غاندي إليهم. شرب الماء المقدس من الغانج، وقلق قليلاً من رؤية جثث الأبقار الميتة وهي تطفو فوقه. استمتع بالطعام الهندي، وشكر علناً مير لأنه علمه أن يحب الكاري.[48]

كانت الدول الآسيوية الأخرى كريمة أيضاً، إلا أنها أكثر مثاراً للجدل على الصعيد السياسي. ففي أندونيسية استقبل مانديلا استقبالاً فخماً من قبل الرئيس سوهارتو لدرجة أنه طلب منه 10 ملايين دولار للمؤتمر الوطني الإفريقي، حيث تلقاها أمام وسائل الإعلام. لكن مانديلا بقي صامتاً بخصوص

حملة الأندونيسيين ضد التيمور الشرقيين، الذين اتهموه «بالنفاق والانتهازية».[49] وفي ماليزيا أعطاه الرئيس مهاثير ـ بعد أن شرح له باختصار التطور الاقتصادي، أعطاه 5 ملايين دولار نقداً. وفي أستراليا ـ حيث فشل في رؤية بطل الكريكيت المفضل لديه دونالد برادمان ـ خرج سليماً من النزاع بشأن سكان البلاد الأصليين وألغى زيارة إلى مجموعة من هؤلاء في سيدني (يدعون الأورميون)، مما أدى إلى المزيد من التهم بالنفاق. لكن الأورميين كانوا ما يزالون يدّعون وجود تحالف مع الشعب الأسود في جنوب إفريقية.[50]

لقد تضايق من تجربته في اليابان، حيث نُقل ـ قبيل وصوله مباشرة ـ عن لسان وزير العدل أنه أدلى بملاحظة عنصرية بشأن أمريكا، «حيث يذهب من في الجوار إلى الهلاك عندما يدخل السود». ذهل مانديلا لأن الوزير استمر في منصبه مما «أظهر كم بقيت اليابان فاترة في مقارعة العنصرية. لقي ترحيباً حماسياً شديداً في البرلمان الياباني. لكنه شعر بالخيبة عندما رفض رئيس الوزراء طلب تقديم 25 مليون دولار إلى المؤتمر الوطني الإفريقي. قال بعد ذلك «التناقض الذي أظهرته الحكومة اليابانية عديم الأهمية مطلقاً».[51]

كان هناك بلد لم يندرج في رحلات مانديلا في أعقاب الحرب الباردة: الاتحاد السوفييتي الذي دعم بإخلاص المؤتمر الوطني الإفريقي، وزوده بالسلاح والمال في الربع الأخير من القرن. كان غورباتشيف قد دعاه إلى موسكو في رسالة إلى لوساكا بعد إطلاق سراحه مباشرة؛ وكان لمانديلا لقاء ودي مع وزير الخارجية إدوارد شيفار نادزة أثناء احتفالات الاستقلال في ناميبيا في آذار (مارس). لكن الخطط ظلت تتأصل. في الحقيقة إن موسكو في حين كان يحتمل أن تحصد الجوائز من دعمها الطويل الأمد للمؤتمر الوطني الإفريقي، فإنها كانت تتقرب من دوكليرك. وحكومة غورباتشيف التي مزقتها الأزمات الاقتصادية، كانت بحاجة ماسة إلى فرص تجارية فورية عام 1990، وقعوا اتفاقية تسويق مباشر مع مجوهرات دوبيرز، وكان غورباتشيف بعد ذلك

بوقت قصير، وفي تخلٍ عن الوعود للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ كان يُجري اتصالات مباشرة مع بريتوريا. كما توقف عن تأمين التدريب المجاني لمقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي. قام دوكليرك بزيارة رسمية إلى موسكو في حزيران (يونيو) 1992، عندما أكد له الرئيس الروسي الجديد بوريس يلتسين أنه لن يستقبل مانديلا بوصفه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، بل مجرد مقاتل دولي من أجل حقوق الإنسان. وراء تلك التغييرات السريعة (قال الخبير السوفييتي فلاديمير شوبين) كان يكمن لدى الروس رهاب طاغٍ من التمييز العنصري الذي كانوا يرون فيه أن الجنوب إفريقيين البيض هم ضحايا حكم الأغلبية السوداء. ولم تتحسن العلاقات مع موسكو حتى عام 1993، عندما أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي أقرب إلى النصر.[52]

ما زال مانديلا يصادق أعداء للغرب مثل معمر القذافي، وعرفات، وصدام حسين. كان قد زار ليبيا في أيار (مايو) 1990، عندما أعطى تحذيراً مبكراً بأنه سيبقى مخلصاً للقذافي، في خيمته شكره لتزويده المؤتمر الوطني الإفريقي بالتدريب العسكري: «نحن نَعُدّ أنفسنا رفاقاً في السلاح». وعندما غزا العراق الكويت في آب (أغسطس) 1990 اتهم مانديلا الأوربيين بالنفاق: «إنهم لم يعترضوا على غزو الولايات المتحدة لغرينادا أو باناما». «لكن الغرب بأكمله يتنادى الآن ويرسل الجيوش بسبب غزو العراق للكويت». إنه لم يغفر عدوان العراق، لكنه أوحى أن العراقيين عوملوا معاملة مختلفة لأنهم ذوو «بشرة بنية اللون». وعندما شن الغرب أخيراً حرب الخليج، اتصل الرئيس بوش بتودد بمانديلا «الذي وافق على أن يكون مختلفاً».[53]

أظهر مانديلا اعتزازاً خاصاً بفيدل كاسترو، الذي كان قد ألهم المتصلبين في المؤتمر الوطني الإفريقي بثورته الجريئة عام 1959؛ لقد اهتز طرباً من روبن آيلاند لدى سماعه أن الكوبيين قد تدخلوا في أنغولا. زار كوبا في تموز (يوليو) 1991، وألقى كلمة حماسية شاكراً كوبا لمساعدتها المؤتمر الوطني الإفريقي،

ومتذكراً كيف أن القوات الكوبية ساعدت في هزم الغزاة الجنوب إفريقيين في أنغولا عام 1988. قال «إن تلك الهزيمة تساعدني في أن أكون هنا اليوم». رد كاسترو بتسمية مانديلا «واحداً من أكثر الرموز الاستثنائية في هذا العصر شارحاً أن «التمييز العنصري هو الرأسمالية والامبريالية بشكلهما الفاشي». تحدث كاسترو لثلاث ساعات بلا أية ورقة، مما أثار دهشة مانديلا، ولم يغادر أحد إلا للذهاب إلى المغاسل. وجد مانديلا كاسترو «رجلاً سعيداً جداً» عندما تجولا في هافانا «جلس فقط وطوى ذراعيه، وكنت أنا الذي يلوح للجماهير».[54]

على الرغم من الأصدقاء المربكين هؤلاء، فإن مانديلا تقبلته الحكومات الغربية بحماسة أذهلته بعد برودتها السابقة إزاء المؤتمر الوطني الإفريقي كان ذلك في جزء منه بالطبع بسبب التحول الجغرافي ـ السياسي: فالبعبع السوفييتي الكوني قد تبخر، ولم يعد يتعين على الغرب الخوف من حكومة جنوب إفريقية سوداء معادية تدعمها موسكو، المحاربون الـ Cold الذين عززوا مانديلا كغول شيوعي تم نزع سلاحهم ـ مع غصة الشعور بالذنب ـ ليلاقوا الرجل المسن اللطيف بأسلوب محافظ واهتمام وثيق بالديموقراطيات الغربية. وشرعت الحكومات الغربية بالتنافس في وقت متأخر لمصادقة رئيس أسود محتمل.

إلا أن الترحيب الغامر لا يمكن شرحه بعلم السياسة. فالإعجاب بمانديلا لم يكن بوصفه رجل سلطة، بل كزعيم أخلاقي ذي مبادىء أساسية أعطى الأمل بالمستقبل لكل المسحوقين وكل الدول التي مزقتها الانقسامات العنصرية. إن وقاره ورغبته بالمصالحة منحتاه نفوذاً تجاوز السياسات العادية. وهذا ما كان مفاجئاً أكثر لأنه لم يكن متديناً. إنه لم يعرض نفسه أبداً كزعيم روحي ورفض لقب قديس: «أنا مجرد خاطىء يستمر في المحاولة». أنا لست متديناً أو روحياً بشكل خاطىء كما قال لبروفسور في اللاهوت هو تشارلز ڤيلا ـ فيسينسيو: «أنا مجرد رجل عادي يحاول أن يفهم أسرار الحياة».[55]

بدا أنه يستمتع ويتأقلم مع صورته الخاصة، في حين أنه لم ينخدع بها،

وكأنه يراقب لعبة هو البطل فيها. هو يحب رواية القصص عن إعادته إلى حجمه الطبيعي: عن سائح أمريكي في الباهاما عرفه ثم سأل: «لأي شيء أنت مشهور؟» أو عن المرأتين من البيض في جنوب إفريقية اللتين طلبتا توقيعه ثم قالتا: «بالمناسبة ما اسمك؟» سئم مساعدوه من الحكايات المتكررة، إلا أنها كانت جزءاً من تصميم مانديلا على البقاء رجلاً عادياً، وهذه الحكايات كانت تسر مستمعيه وبخاصة الأطفال. لقد أحب رواية القصص عن كيفية إذلال الأطفال له. سألته طفلة في الثالثة عشرة من عمرها: «هل تدري ما يقوله الأطفال في المدرسة عنك؟ يقولون إنك عندما كنت صغيراً كنت جميلاً. ويقولون إنك اليوم مسن وقبيح». وعندما سألته طفلة في الخامسة لماذا أمضى هذا الوقت الطويل في السجن، وشرح لها ذلك، أجابت «لا بد وأنك عجوز غبي جداً». مع الأطفال في كل مكان، على الرغم من أو بسبب مشكلاته العائلية الخاصة، كان بإمكانه النزول من صورته الضخمة ليكتشف من جديد نفسيته الخاصة الأكثر بساطة. ولكن في حين كان يبدو بريئاً في الخارج، فإن قدرته الغريزية على الاتصال بكل أنواع البشر جعلته معلماً في السياسة.

29

من الثورة إلى التعاون

كانت لدى مانديلا ميزة ساحقة بوصفه زعيماً سياسياً في الوطن، كأنما هبط من الغيوم! وبقيت مبادئه سليمة لم تمس، ولم يتلطخ بالمكائد والمناورات القذرة، ومن غير الشعور بأنه تسلق «العمود المشحّم». إن الفترة التي قضاها في السجن والتي لم يسبق لها مثيل حمته من الانتقادات والإساءات. وأكسبته مصداقيات لا يمكن لأحد أن يضعها موضع الشك، ولم يكن لديه منافس جدي بادٍ في الأفق.

لكن فيما بين جولاته الخارجية المنتصرة، كان يواجه بسرعة جمهوراً أكثر تشككاً في الوطن. ومثله مثل الكثير من أبطال العالم. مثل تشرشل وسماتس بعد الحرب العالمية الثانية، فإن التصفيق له على مستوى الكون لم يقدم المساعدة بالضرورة لشخصيته في الداخل. تشكّى العديد من الجنوب إفريقيين البيض من أنه كان منعزلاً جداً، ولا يمكنه السيطرة على عنف شعبه؛ في حين اعتقد القليل من السود أنه كان ينسى أصوله. وواجه مهمة ضخمة في قيادة غير المنظم نحو السلطة السياسية. لم يكن لديه حق الاقتراع، ولا أي وضع رسمي فيما عدا كونه زعيماً ثائراً. كانت ضغوطه الفعالة الوحيدة ضد الحكومة الأفريقانية هي العقوبات، التي اعتمدت على الدعم العالمي، والتهديد بالقوة المسلحة الذي يتطلب قوات فدائيين كانوا فاقدين للفعالية حتى ذلك الوقت. وفي حين اعتُرف به عبر العالم كله بوصفه المحرر العظيم، موسى الجديد أو

المسيح، لم تكن لديه سلطة ملموسة داخل بلده بالذات، ولا جيش تحرير مقنع.

كان دوكليرك ما يزال يسيطر على آلية عسكرية هائلة، وقوة شرطة ونظام مخابرات؛ ولم تكن لديه النية بإفساح المجال أمام أغلبية سوداء ما لم يُجبر على ذلك. قال مانديلا فيما بعد: «لا توجد حكومة في أي مكان في العالم تتنازل عن السلطة بدون ضغط هائل».[1] كان دوكليرك يجعل حكومته مقبولة من لغرب بسرعة. وشجعه الزعماء الغربيون بمن فيهم السيدة تاتشر في بريطانية وهيلموت كول في ألمانية. على البحث عن أنظمة فدرالية أو كونفدرالية بديلة من شأنها منع سيطرة أي حزب منفرد ـ أي المؤتمر الوطني الإفريقي. وكان الأفريقانيون يتطلعون إلى أوربة منذ مدة طويلة بحثاً عن نماذج من التطوير المنفصل: عام 1984 كان الرئيس بوثا قد قال إن سويسرة ويوغلاسلافية قد «اكتشفتا مفتاح التعاون والانسجام».[2] وما زال دوكليرك متعلقاً بسياسة «حقوق المجموعة» التي ربما تتلاعب بالقبائل بعضها ضد بعض. كان مانديلا قد تجادل معه أصلاً قبل مغادرته السجن بأن حقوق المجموعة عنت في الحقيقة التمييز العنصري عبر الباب الخلفي. وأقنعه شقيق دوكليرك ويليم، من بين آخرين، بعد ذلك مباشرة أن «حقوق المجموعة القائمة على العرق واللون ليست مقبولة». لكن دوكليرك بقي مؤيداً «للحق غير القابل للتحويل لكل مجموعة ثقافية وذات لغة لتحقيق الاحتياجات الأساسية لهويتها». حق يمكن أن يتوسع بسهولة لتشجيع الانقسامات القبلية.[3]

أدرك مانديلا بسرعة أن دوكليرك ليس في عجلة من أمره للبدء بالمفاوضات. وارتاب في أنه يحاول كسب الوقت، أملاً في أن «يقع على وجهه».[4] وكان مرتاباً أولاً بدور الشرطة: في 26 آذار (مارس) 1990 هاجمت الشرطة حشداً من المتظاهرين من المؤتمر الوطني الإفريقي في سيوكينغ، جنوب جوهانسبورغ، وقتلت اثني عشر منهم. اشتكى بغضب إلى دوكليرك من

أن الرئيس لا يمكنه «التحدث عن المفاوضات من جهة وقتل شعبنا من جهة أخرى». وأجل المحادثات الأولى، اعتقد أن دوكليرك كان يتطلع إلى وسائل للمحافظة على اقتراع الأقلية، وإحباط الأكثرية.

كانت لدى ضباط الاستخبارات العسكرية الجنوب إفريقية خططهم السرية الخاصة لبث الانقسام بين السود. لقد فعلوا ذلك في ناميبيا، مستخدمين «الخدع القذرة» لإضعاف حزب الأغلبية السوداء سوابو، وإقامة إئتلاف حر من الأحزاب الإثنية، حلف تيرنهول الديموقراطي. والآن خططوا لإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي بالطريقة ذاتها. كانوا يأملون بتأخير الانتقال حتى يحين الوقت الذي يسمح للحكومة بعقد تحالف مع أحزاب سوداء أخرى، بما فيهم الإنكاثا، والتي ربما توجه ضربة للمؤتمر الوطني الإفريقي عند الاستفتاء.[5] لم يتم تسريح قوات الأمن الجنوب إفريقية في ناميبيا، بل أعيدت إلى جنوب إفريقية. ووجدت لجنة الحقائق فيما بعد أنه «برغم جميع النواب والأهداف آنذاك فإن جميع رجال المباحث والجنود تحركوا من مسرح حرب إلى آخر». وكان لدى العديد من أعضاء الاستخبارات العسكرية فكرة صريحة جداً عن دورهم بعد أن أضفيت الشرعية على المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما قال أحدهم للجنة الحقائق: «اعتقدنا جميعاً: هذا هو الأمر، اقتلوا الكفيريين وأعضاء في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب إفريقية». لقد حان الوقت للتخلص منهم.[6]

كان مانديلا بحاجة ماسة لإعادة بناء وتوحيد المؤتمر الوطني الإفريقي بعد حظره لثلاثين عاماً، وجمع عناصره المشتتة في حزب منظم، من أجل البدء بالمفاوضات مع دوكليرك. كان الزعماء في المنفى قادرين على العودة بسرعة، بعد المحادثات مع الجهاز السري لضمان سلامتهم. وتوقع معظمهم الوصول إلى السلطة خلال خمس سنوات. لكنهم عرفوا أن المفاوضات ستكون شاقة، وشرعوا بانتقاء فريق من أجل المحادثات التمهيدية. كان مانديلا مصمماً على

إدخال صديقه القديم جوي سلوفو، أمين سر الحزب الشيوعي، الذي أصبح الآن لين العريكة وشعره أبيض: في البداية رفض ذلك دوكليرك رفضاً مطلقاً، لكنه وافق في النهاية على أن كل طرف يجب أن يكون حراً في اختيار أي شخص يريده.[7]

في 2 أيار (مايو) 1990 اجتمع فريق الحكومة مع فريق المؤتمر الوطني الإفريقي للبدء بمحادثات برلمانية في غروت شور المقر الرسمي لـ دوكليرك. كان تجمعاً فذاً: فكما قال ثابو مبيكي إن الزعماء السود ظلوا «يسعون لأكثر من قرن للجلوس والتحدث مع الحكومة» وقف مانديلا ودوكليرك في الحديقة أمام وفديهما البالغ عدد أعضاء كل منهما أحد عشر عضواً. لقد أظهر الوفدان تناقضاً عرقياً مدهشاً. كل أعضاء فريق الحكومة كانوا من البيض الأفريقانيين الذكور، في حين أن الأحد عشر عضواً من المؤتمر الوطني الإفريقي ضموا اثنين من البيض وواحداً هندياً وواحداً ملوناً إضافة إلى السبعة السود؛ وكان اثنان من الوفد من النساء.

أدلى الزعيمان بتصريحات لائقة وغير حزبية، وكان مانديلا يأمل في أن «ينخرطوا في ممارسة مقدسة بدون السعي وراء المنفعة لمنظمتهم السياسية على الخصوص... جميع الذين هم رهائن الماضي منا يجب أن يحولوا أنفسهم إلى رجال ونساء جدد سيصبحون أدوات مناسبة لإيجاد جنوب إفريقية الجديدة الرائعة التي من الممكن والضروري تحقيقها». تحدث بإيجاز بالأفريقانية وقدم معرفته الخاصة بالتاريخ الأفريقاني، مما ترك انطباعاً لدى وزير الخارجية بيك بوثا، الذي اجتمع إلى مانديلا لأول مرة.[8] تحدث دوكليرك عن «العملية التي لا يمكن التراجع عنها في التطبيع والتي بدأت فعلاً». وتبادل الفريقان الذكريات والنكات: كان من الواضح أن الوزراء الأفريقانيين قد فوجئوا بطلاقة ومعرفة الزعماء السود، وشعر الطرفان (كما قال ثابو مبيكي) بالحمق لأنهما لم يتناقشا قبل سنوات، كما فوجئوا لأن «أياً ممن كانوا في الغرفة لم يكن له قرون». كانوا

جميعاً في المركب ذاته، كما قال بيك بوثا لوفد من المؤتمر الوطني الإفريقي، محاطون «بسمك القرش عن يمين وعن يسار». تأثر دوكليرك لاكتشافه أن مانديلا كان مستمعاً جيداً ناقش قضيته وكأنه محام متدرب، مع أنه تشكى فيما بعد من أن مانديلا «قد لامنا بمنولوجات طويلة مفعمة بالاتهامات المضادة»؛ قرر أن مانديلا قد «روعته تجربته، وأنه ليس لديه رؤية حقيقية للمستقبل».[9]

بعد ثلاثة أيام من المحادثات وافق فريق الحكومة على إيجاد مناخ سلمي للمفاوضات من خلال إطلاق سراح سجناء سياسيين، وإلغاء قوانين القمع وحالة الطوارىء. هذه القرارات أعلنت في «محضر غروت شور». ودعاها دوكليرك «بالخطوة الكبيرة إلى الأمام»، وقال مانديلا إنها كانت «تحقيقاً للحلم». «لقد سرنا في هذه المناقشات على أنه يجب أن لا يكون هناك فائزون وخاسرون» قال مانديلا: «نحن جميعاً منتصرون ـ إن جنوب إفريقية منتصرة». لكن توجب عليه أن يذكر الحكومة أن التمييز العنصري ليس ميتاً. وأنه هو لا يتمتع حتى ذلك الوقت بحق الاقتراع.

استمر مانديلا وزعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بالشعور بالحاجة إلى الحفاظ على قوة مسلحة في جنوب إفريقية كنوع من سياسة «الأمان» إذا ما انهارت المفاوضات. بقيت الوحدة العسكرية لـ «عملية فيولا» سليمة لم تمس. (انظر الصفحة 384) يرأسها ماك ماهاراج وسيفيوي نياندا (غيبوزا): كانا قد حافظا على الاتصال مع مانديلا في السجن، وبعد إضفاء الشرعية على المؤتمر الوطني الإفريقي انضمت إليهما روني كارسيلز المغامرة. لكن بعض الناشطين من الفيولا كانوا قد أصبحوا راضين منذ أن أصبح المؤتمر الوطني الإفريقي شرعياً، وكانوا يشعرون أن زعماءهم قد تجاهلوهم. أما الرفاق السريون في دوربان فكانوا عديمي الاهتمام بالأمن، حيث أبقوا السجلات السرية على أقراص الكومبيوتر. اعتقلت الشرطة اثنين منهم بمحض الصدفة، وانتزعت معلومات عن مكان اجتماع سري، حيث نصبت كمائن لآخرين، وأغارت

سريعاً على منازل فيولا في جوهانسبورغ. ولدى معرفة زعماء فيولا بالكارثة نقلوا أسلحتهم بسرعة وكذلك مخابئهم وتجهيزاتهم إلى أمكنة أكثر أمناً. لكن في 25 تموز (يوليو) اعتقلت الشرطة مالك ماهاراج وآخرين، متهمة إياهم بالتآمر للإطاحة بالحكومة. أدلوا بتفصيلات رهيبة، تذكر بمحاكمة ريفونيا، عن شبكة سرية تهدف إلى تجنيد، وتدريب وقيادة وتسليح جيش «شعبي» أو «ثوري»، لاستخدامه للاستيلاء على السلطة من الحكومة عن طريق العصيان المسلح.[10]

رأى دوكليرك في ذلك ذخيرة قوية ضد مانديلا، عارضاً الثوريين والشيوعيين بوصفهم ما زالوا قوة شريرة؛ وكان يأمل بدق إسفين بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية. قرأ تقارير البوليس لمانديلا، وأصر مجدداً على أن سلوفو يجب استبعاده من فريق المؤتمر الوطني الإفريقي، مدعياً أنه كان في اجتماع سري للحزب الشيوعي في تونغات في أيار (مايو). كان مانديلا عارفاً «بعملية فيولا» ـ التي وفرت في السابق روابط اتصاله مع تامبو، وكان قد التقى ماهاراج وجهاً لوجه في اجتماعات سرية. لكنه أخذ في البداية على حين غرة بمدى اتساع العمليات التي كشفها دوكليرك. كان سلوفو قادراً بسرعة على البرهان على أنه لم يكن حاضراً في اجتماع تونغات: أظهر جواز سفره أنه كان في لوساكا في ذلك الوقت. والـ «جوي» الذي قيل إنه كان موجوداً لم يكن هو، بل سيفيوي نياندا. أصر مانديلا على أن يبقى سلوفو ضمن فريقه، وجادل بأن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكن نزع سلاحه في حين تنشر الحكومة وحداتها المسلحة الخاصة بها ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. استمرت الشرطة في التفتيش بحثاً عن مشبوهين آخرين من الفيولا بمن فيهم مكسريلز، الذي أُعلن أنه «مسلح وخطير». لكن مخابىء السلاح بقيت دون اكتشاف. في النهاية، في آذار (مارس) 1991، مُنح ماهاراج والآخرون العفو، وسقطت القضية ضدهم.[11]

أعطت القضية دوكليرك أيضاً معلومات حاسمة عن استراتيجية التفاوض

عند المؤتمر الوطني الإفريقي. فقبل اعتقال ماهاراج مباشرة، في 19 تموز (يوليو)، اقترح جوي سلوفو على الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي أن عليهم أن يعرضوا وقف الكفاح المسلح في الاجتماع المقبل مع الحكومة. كانت تسوية تاريخية ـ ولا سيما أنها أتت من زعيم الـ MK ـ تهدف إلى مفاجأة دوكليرك، وانتزاع تنازلات كبيرة. كان مانديلا مرتاباً في البداية، لكنه ناقش ذلك طوال الليل، وبعد الكثير من تحليل الذات وافق في الصباح، وحمل معه الهيئة التنفيذية بالإجماع. لكن الشرطة وجدت وثيقة مكتوبة بخط اليد في حقيبة ماهاراج تلخص الاستراتيجية، مما أعطى دوكليرك الوقت لتهيئة الرد.[12]

اجتمع مانديلا وفريق المؤتمر الوطني الإفريقي مع الحكومة في بريتوريا في 6 آب (أغسطس). ووعد مانديلا بوقف فوري لإطلاق النار. ومن جهته وعد دوكليرك بإطلاق سراح السجناء السياسيين والعفو عن المنفيين المتهمين بجرائم سياسية. وافق الطرفان على «محضر بريتوريا» الذي أعلن أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يوقف جميع الأعمال المسلحة فوراً. لكن دوكليرك ـ الذي حُذر مسبقاً بشأن استراتيجية المؤتمر الوطني الإفريقي، أدخل إشارة إلى «النشاطات ذات الصلة»، التي تمنحه فائدة في المفاوضات فيما بعد.[13] مع ذلك، حقق عرض المؤتمر الوطني الإفريقي مما كان يأمل به مانديلا وسلوفو: اختراقاً في المأزق.

لم يكن عرض المؤتمر الوطني الإفريقي بوقف إطلاق النار كريماً كما كان يبدو. ففي كانون الثاني (يناير) 1990، اعترف ألفريد نزو أمين السر العام علناً: «ليست لدينا القدرة داخل بلدنا لتعميق الكفاح المسلح بأية طريقة ذات معنى».[14] ومانديلا بوصفه القائد الأول لد MK آمن بالأهمية الرمزية للكفاح المسلح، على الرغم من أنه اعتقد «أن له شعبية بغض النظر عما حققه على الأرض». قال فيما بعد: «لم يكن لدينا أي اعتقاد خاطىء بأن سيكون في مقدورنا تحقيق نصر عسكري ضد هذا النظام».[15] لكنه لن يستبعد النشاط

السري. وقد رسم تمييزاً مشوشاً بين «العمل» و«الكفاح»: «لقد أوقفنا العمل المسلح، كما شرح في تموز (يوليو) 1991»، «لكننا لم نضع حداً للكفاح المسلح، سواء أكان داخل بلادنا أم خارجها. وشرح سلوفو فيما بعد أن النشاطات السرية ستتم المحافظة عليها إلى أن يصبح التغيير لا رجعة عنه، وهذا شرط قبله دوكليرك سراً.[16]

غضب الرفاق الشباب الناشطون لوقف الكفاح المسلح مقابل تنازلات ضئيلة؛ وكانت مجموعة كبيرة ليست قابلة لفكرة المفاوضات بأكملها. وكان خمسة وعشرون سجيناً في روبن آيلاند ما زالوا رافضين العرض بالعفو، وأصروا على أنهم لن يغادروا قبل تحقيق انتصار على أرض المعركة. توجب على مانديلا العودة إلى الجزيرة في نيسان (أبريل) 1990 لإقناعهم بصعوبة بقبول عرض الحكومة.[17] وعلى البر الرئيسي بذل المؤتمر الوطني الإفريقي جهداً كبيراً لإقناع أعضائه الأكثر ثورية بالتحول من إطلاق النار إلى التحدث، وأعلنوا شعار «المفاوضات هي كفاح» على القمصان وواجهات السيارات، ونشروا إعلانات صحفية أعلنت أن الـ MK لم يتم حله.

أثار محضر بريتوريا موجة من التكهنات حول تواطؤ مانديلا الواضح مع دوكليرك، واعترف مانديلا على التلفاز «إننا شرعنا فعلاً بشكل من أشكال التحالف». ودارت الشائعات التي تفيد أنه سيشارك في الوزارة.[18] إلا أن التفاؤل كان قصير الأمد وغير ناضج إذ أصبح مانديلا عديم الثقة أكثر فأكثر بـ دوكليرك، الذي كانت له استراتيجيته الخاصة لإضعاف المعارضة السوداء، وكان بإمكانه التلاعب بمشكلات مانديلا الخطيرة مع حلفه بالذات، كان يتشكى من أن «المؤتمر الوطني الإفريقي لديه مقدرة محدودة جداً لضمان أن مؤيديه وكوادره تحترم التعهدات التي أعطاها».[19]

صار المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً ثورياً إلى حد ما منذ ذلك الوقت. فهو ما زال متحالفاً مع الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية؛ الذي اعتبر مجدداً

حزباً شرعياً وذلك قبل اجتماع بريتوريا، وتم ذلك على مدرج سوويتو في 29 تموز (يوليو) بحشد بلغ حوالى 50,000. رأت الصحافة البيضاء في تلك الانطلاقة شؤماً أكبر في ضوء انكشاف عملية فيولا (التي اعتبرت مؤامرة شيوعية، مع أن فيولا كانت من اختراع المؤتمر الوطني الإفريقي وليس الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية). خطب مانديلا في الحشد، مرحباً بالحزب الشيوعي الجنوب إفريقي «كصديق يمكن الاعتماد عليه، وهو يحترم استقلال سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي»، وأصر على أن الحزب لم يسع أبداً من خلال تجربته «إلى فرض وجهات نظره على المؤتمر الوطني الإفريقي». كان انبعاثاً مشهدياً؛ في الشهور الخمسة عشر التالية سيصل عدد أعضاء الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية إلى 25,000 ـ في وقت كانت فيه الأحزاب الشيوعية عبر العالم في حالة انحسار. كان الالتزام الأيديولوجي للحزب الشيوعي لجنوب إفريقية غامضاً؛ أحدهم دعاه «الحزب الخجول فيما يتعلق بالشيوعية».[20] لكن كان لديهم سجل بطولي في مقارعة التمييز العنصري ـ كانوا يؤمنون بالتعددية العرقية إيماناً يفوق في أصالته أي حزب شيوعي آخر في العالم ـ في حين وفروا قضية ثورية للناشطين الشباب في المناطق. إن عودة ولادة الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية كحزب شعبي أوصلهم بشكل محتوم إلى التنافس مع المؤتمر الوطني الإفريقي، بعد نفوذهم ومبادلاتهم المتكتمة بدرجة أكبر في الماضي، وأصبح مانديلا بسرعة ناقداً لهم أكثر فأكثر. قال بن تيورول المطّلع السابق في الحزب: «لقد ارتكبوا غلطة فادحة، في محاولتهم أن يصبحوا حزباً جماهيرياً».[21]

استمرت الحكومة، ومعظم الصحافة البيضاء، في إبراز الشر الشيوعي؛ لكن كان من الأصعب جداً الإيمان «بالهجوم الضاري» على مستوى العالم منذ انهيار الأنظمة الشيوعية في روسيا وأوربة الشرقية. وحذر مانديلا بريتوريا من أن تحاول إعاقة المفاوضات «عن طريق إثارة هيستيريا مضادة للشيوعية» في الحقيقة

كان من السذاجة مساواة الشيوعية في جنوب إفريقية بالمقاومة المتصلبة كما أظهر جوي سلوفو. قال مانديلا فيما بعد: «كان الشيوعيون هم الذين برزوا في النهاية بوصفهم الأكثر اعتدالاً».[22]

ما زال مانديلا يواجه مشكلات كبيرة في توحيد المؤتمر الوطني الإفريقي، وفي إقناع الجميع بالمفاوضات والمصالحة. بقيت زعامته الشخصية سالمة لم تهاجم ومرعبة؛ كان على أصدقائه تشجيع الأعضاء الأصغر على التحدث معه.[23] إلا أنه واجه أصعب مهمة له في محاولة تأليف حزب موحد من عدة فروع كان يفصلها عن بعضها الحظر المفروض عليها لمدة ثلاثين عاماً؛ وقد أمضى وقتاً طويلاً في تأسيس علاقته بالذات مع الهيئة التنفيذية الوطنية، بوصفه رجل دولة أكبر سناً أبقى مسافة بينه وبينهم، في حين تدخل في القضايا الحاسمة.

جميع الشكاوى بشأن اعتدال المؤتمر الوطني الإفريقي برزت إلى الواجهة عندما عقد «مؤتمراً استشارياً» حضره 1,600 عضو في جوهانسبورغ في كانون الأول (ديسمبر) 1990. كان تامبو قد عاد إلى جنوب إفريقية، حيث ما زال بحالة وهن بسبب السكتة الدماغية، ليفتتح رسمياً المؤتمر رئيساً. ألقى كلمة جريئة، وافقت عليها الهيئة التنفيذية الوطنية، قائلاً: إن على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يخفف من تأييده العقوبات الشاملة؛ حذر من أن الدول الغربية كانت تتراجع أصلاً عن العقوبات، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه تحمل تحييده في الخارج. لكن الناشطين لم يقبلوا بذلك، وأصر المؤتمر على العقوبات، حتى ولو لم يتم فرضها.

حيَّا مانديلا زعامة تامبو للمؤتمر الوطني الإفريقي، خلال سنيه الحالكة، لكن تُرك له أن يجمع شمل المؤتمر. امتدح بلباقة جميع تشكيلاته المختلفة؛ فدائيّي الـ MK الذين ملأتهم بالعزم والتصميم سُنِيٌّ من الخبرة في المعارك والتضحيات، السجناء القديمي العهد، الذين تربوا على الصبر والمواظبة،

المنفيين «بمستواهم العالي من التدريب السياسي» والزعماء داخل البلاد، بتجربتهم في التعبئة الجماهيرية «الذين ربما كانوا الأكثر تساوقاً في المزاج الشعبي».[24] لكن التوترات كانت واضحة؛ إذ رفض الناشطون الداخليون الأصغر سيطرة المنفيين الأكبر سناً من لوساكا، في حين ادعى كل فريق شرف النصر.

كان مانديلا يظهر نفسه كزعيم محافظ ومعتدل أكثر مما توقعه الرفاق الشباب، فهو رجل مختلف جداً عن الثوري الفج الذي كان في السجن بوصفه زعيم جيش الفدائيين. وقد واجه انتقاداً صريحاً من المندوبين لفشله في التشاور معهم خلال محادثاته مع الحكومة. في كلمته الختامية وعد أن «الزعامة قد تبنت مبدأ أنهم خدم الشعب» لكنه تألم لأنه «لم تكد تكون هناك كلمة مديح» للهيئة التنفيذية الوطنية، وقد رفض انتقاد الذين اعتقدوا أنه يستطيع التفاوض بلا أية سرية قائلاً عنهم: «لا يفهمون طبيعة المفاوضات».[25]

بعد ذلك بستة أشهر، في 2 تموز (يوليو) تعرضت سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي لردود أكثر ضراوة في مؤتمرها الوطني الكامل في دوربان ـ وهو الأول داخل جنوب إفريقية منذ أكثر من ثلاثين عاماً ـ وبمندوبين فاق عددهم الألفين. كان هدف مانديلا الرئيسي هو إعداد الطريق أمام تسوية سلمية وحل وسط، وذلك لتوجيه طاقات الناشطين إلى المحادثات، وليس إلى الحرب. ووصف المفاوضات بأنها «استمرار للكفاح المؤدي إلى هدفنا المركزي؛ نقل السلطة إلى الشعب». وحذر من أن الفترة القادمة للنقل ستكون «من الفترات الأكثر صعوبة وتعقيداً وتحدياً في حياة منظمتنا بأكملها».

لكن بعض الأعضاء الأصغر كانوا فاقدي الصبر أمام رأيه المحافظ، أو شعروا أنه كان يخون الثورة. كما أنه لم يرحب دوماً بالانتقاد. عندما اقترح نسبة 30٪ من الهيئة التنفيذية للنساء، جادل تيرور ليكوتا، حليفه القديم في روبن آيلاند. جادل بقوة ضد «الرمزية». رد مانديلا بغضب، قائلاً إنه كان

بإمكانه بحث الموضوع في روبن آيلاند. قال ليكوتا فيما بعد: «علّمنا مانديلا أن الجدل لا يعتبر علامة لعدم الاحترام أو التحدي».[26]

توجب على مانديلا أن يتعامل مع حزب سياسي غير منظم. كان معرضاً للهجوم من جديد بسبب عدم كفاءته. تساءلت الجوهانسبورغ صنداي تايمز «هل يوجد المؤتمر الوطني الإفريقي ـ منظمةً ـ في غير مجال فن الخطابة والعناوين الرئيسية؟»[27] كما أن ألفريد نزو أمين السر المتقاعد أبلغ انتقاده المدمر بالذات والذي تم تسريبه بطريق الصدفة؛ إننا نفتقد إلى المشاريع والإبداع والمبادرة. نحن نبدو سعيدين جداً في البقاء مصنفين ضمن حدود فن البلاغة والرَّوْسَمْ (الكليشيه) الشعبيتين».[28] أصر مانديلا على أنهم يجب أن يكونوا «قاسين قساوة مطلقة» بخصوص مواطن ضعفهم، وكان قلقاً بصورة خاصة بشأن فقدان الاتصال الفعال بين المؤتمر الوطني الإفريقي ومجموعات الأقلية. لكنه وعد «ببناء منظمتنا كقوة عسكرية قوية ومجهزة جيداً».[29]

كان الرعيل القديم هو الذي ما يزال يسيطر على المؤتمر الوطني الإفريقي، بمن فيه مانديلا، وتامبو وسيسولو؛ كانت آخر انتخابات من أجل الهيئة التنفيذية الوطنية قد جرت عام 1985، لكن كان هناك ثلاثة متبارين أصغر يتنافسون على الزعامة المستقبلية، وكل منهم من مسرح منفصل للنضال؛ كريس هاني قائد الـ MK، ثابو مبيكي الذي كان مستشار تامبو الرئيسي في المنفى، وسيريل رامافوزا، رئيس اتحاد عمال المناجم. عندما اقترع المندوبون على أمين السر الذي سيخلف نزو فاجأوا الكثيرين من الناس باختيارهم رامافوزا، الذي كان قد انتقد ويني صراحة، والذي لم يكن مقرباً من مانديلا آنذاك: قبل إطلاق سراح مانديلا كان رامافوزا قد قال عن وضعه: «ليس مختلفاً عن وضع أي عضو آخر في المؤتمر الوطني الإفريقي».[30] وبوصفه من نقابات العمال فقد أظهر شجاعة ومهارة في آن واحد كمفاوض. كان بإمكانه أن يسحر معارضيه بصوته الرقيق، وعينيه الودودتين، وابتسامته العريضية في حين أنه لم

يغب هدفه عن ذهنه بتاتاً؛ وقد أوجد الحالة الدرامية الخاصة به ـ فقد أُلهم لأن يصبح نقابياً عمالياً برؤيته سيلڤستر ستالون في فيلم إف. آي. أس. تي. اعتقد مانديلا أنه «جازم جداً لكنه ديبلوماسي بالولادة»؛ وبرهن على أنه لا غنى عنه في المفاوضات التي تلت.[31]

أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تأسيس نفسه، رغم كل تكهنات وسائل الإعلام عن الانقسامات. قال سيسولو: كانت «وحدة في الزعامة لم يسمع بمثلها في أي مكان، في أي جزء من العالم».[32] ضمت الهيئة التنفيذية الجديدة المؤلفة من خمسين شخصاً قسماً شاملاً من العروق، بمن فيهم الهنود، وسبعة ملونين وسبعة بيض. وتشكى الليبراليون البيض من أنهم استبعدوا وأن الأعضاء البيض كانوا جميعاً من الشيوعيين؛ لكن الشيوعيين وحدهم هم الذين وقفوا إلى جانب المؤتمر الوطني الإفريقي خلال مراحل النضال بأكملها.

انسحب تامبو من الرئاسة، وانتخب مانديلا خلفاً له بالإجماع. قال فيما بعد: «لم أنظر إلى نفسي كزعيم إلى أن تم انتخابي. والآن أصبح ذلك ما يجب القيام به».[33] في الحقيقة رأى معظم الناس أنه الزعيم الحقيقي. وكانت هناك مخاوف من أنه ربما يصبح أوتوقراطياً من غير وزن تامبو المقابل. لكن مانديلا عبر عن إجلال بليغ لتامبو بوصفه الموحد الحاسم للحزب؛ لقد «مهد الطريق إلى الأمام بالذهب، ذهب إنسانيته، ودفئه، وروحه الديموقراطية، وتحمله وفوق كل شيء ألمعيته الفكرية، التي فاقت دهاء العنصريين في النهاية في هذا البلد». وبقي مانديلا متأثراً بعمق بتراث تامبو بشأن المصالحة والإجماع.

كان مانديلا يشرف على منظمة أكبر بكثير مما حلم بها سابقوه أمثال لوثولي أو كزوما؛ ومنذ عام 1991 انتقل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى شل هاوس، وهو مجموعة برجية في وسط جوهانسبورغ. وأصر مانديلا على أن يكون سيسولو وتامبو في الغرف المجاورة له. وكان السبعينيون الثلاثة ينتقلون بانتظام داخل وخارج مكاتب كل منهم، وهم قريب بعضهم من بعض كما كانوا

في حملة التحدي قبل أربعين عاماً. كان تامبو أكثر فلسفية من مانديلا بشأن سياسة المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين ظل سيسولو يقيّم مانديلا كمعلم مع تلميذ («إنه يفعل أفضل مما كنت أتوقع»).[34] إلا أنهما كانا مستشارين خلفيين، في حين كان مانديلا نجم الأداء، وتجسيد السياسة. اختار ثلاث نساء قويات لإدارة مكتبه: «ليس من المفيد لزعيم أن يحيط نفسه برجال يقولون دوماً نعم».[35] ساعدت فرين جينوالا على إعادة تنظيم منظمته قبل أن تدير قسم لأبحاث، في حين أدارت بارباره ماسيكيلا مكتب الرئيس ومعها جيسي دوارت. لقد عملتا ضمن جدول أعمال قاسٍ. قال مانديلا مازحاً: «أعتقد أحياناً أنه كان لديّ حرية في السجن أكثر مما لدي في المكتب». وجد من الصعب العمل ضمن (بيروقراطية)، وعامل مكتبه وكأنه بيته، مع اعتبار موظفاته كبناته. كان يطلب طعام الغداء إلى المكتب في كثير من الأحيان، ويعد العملة بعناية، ويمضغ الذرة بسرور الأطفال. كان مثابراً على دقة المواعيد بعد نظامه في السجن، مصمماً على رفض النكات عن «الزمن الإفريقي»: لقد أصر على أن «التأخر هو إشارة عدم احترام للآخرين»[36] لكنه كان يتجنب أحياناً أمينات سره عند لقائه الأصدقاء القدامى في الممر ويستمر في الحديث، أو يعطي الزوار رقم هاتفه السري في المنزل؛ بعد سني العزلة التي قضاها، كان يستمتع بالوجوه الجديدة، وبدا أنه يعطي انتباهاً خاصاً لأولئك الذين لم يدفعوا بأنفسهم إلى الأمام؛ كان يسعى في الاجتماعات وراء الأشخاص الهادئين في الخلف.[37]

كان موظفوه أشد قلقاً بسبب تصميمه المستمر على رؤية الجانب الأحسن في كل شخص، كما كان الحال في السجن. فإذا حذروه من أن زائراً ما كان فاسداً لا سبيل إلى تقويمه، كان يشعر بتحدٍ أكبر للبرهان على عكس ذلك. واستمر الزملاء في الشكوى من أن «ماديبا كان لطيفاً أكثر من اللزوم». وربما يؤدي ذلك إلى الخطأ في حكمه على شخص ما، وأنه كان مسايراً جداً

للمستغلين المقبولين ظاهرياً والـ wheeler-dealers. لكن كرمه كان يجعل الآخر أكثر كرماً في كثير من الأحيان، وربما كان يحوّل العداء إلى ولاء. وكانت ثورات غضبه المفاجئة ـ سواء حقيقية أم مُتكلفة ـ تثير الذعر. كان يمكن أن ينفجر غضباً وكأن كرامته قد أسيء إليها، أو عندما يشعر أن أحداً ما يتفضل عليه. لكنه بقي سياسياً بارعاً وبعيد النظر. وذا أعصاب لا تقهر. وبدا أن الأخبار السيئة لا تثنيه، فهو يصنع نكتة منها، كما لاحظ أمناء سره، ويبقى شامخاً.[38]

ثقته بنفسه بدت من غير الممكن مهاجمتها: فحتى عندما يكون مرهقاً أو مكتئباً فإنه يرتب نفسه بعناية للترحيب بزائر؛ وهو يبقى مدركاً غريزياً لصورته، مع مشيته الأرستقراطية ولباسه الأنيق. قال ماسيكيلا: «إن ثيابه لم تكن هامشية بالنسبة إليه بل مركزية بالنسبة لحياته السياسية». وما زال يشعر ـ كما كان الحال في عقد الخمسين ـ أن «الثياب تصنع الرجل». ذات مرة في أوسلو أراد قبعة من الفرو، ووُضع أمامه عدد منها ليختار، إلا أنه لم يوافق على أيةٍ منها. واختفى فيما بعد من فندقه ليعود باختياره بالذات، قبعة على النمط الروسي ما زال يلبسها عام 1999. ساعده غروره على الاستمرار. كان يسعى وراء المجاملات (أنا رجل عجوز بشع)، لكنه كان يعلم أن حضوره الأنيق ربما يفوق حضور معظم السياسيين في العالم.[39]

هل يتطور مانديلا ليصبح (أوتوقراطياً) إفريقياً آخر، جامعاً السلطة حول نفسه؟ راقب الجنوب إفريقيون والأجانب العلائم بقلق. من المؤكد أن تامبو لديه تواضع أصيل. كان مانديلا يفتقده، وكان أقرب إلى أن يكون قديساً. كان تامبو محبوباً أكثر ضمن الهيئة التنفيذية الوطنية، فهو رصين أكثر، وأكثر ميلاً للاستماع إلى كل شخص، ولا تغيظه معارضته أبداً. عبر عن ذلك ألبي ساكس بقوله: «كان تامبو ديموقراطياً بالطبيعة، يتعين على مانديلا أن يتعلم».[40]

كان أسلوب مانديلا يزعج بعض موظفيه، وفي آب (أغسطس) 1991،

بينما كان مسافراً في الخارج، قيل إن هناك مؤامرة لتقليص سلطاته ووضع رامافوزا مسؤولاً عن المفاوضات مع الحكومة. تم إعداد خطة تنظيمية متقنة، تضع رامافوزا في الذروة بوصفه أمين سرٍّ عاماً، ومانديلا بعده؛ لكنها كانت غلطة، كما شرح مانديلا، قامت على تشابه خاطىء بالأحزاب الشيوعية في الخارج، حيث كان أمين السر هو الزعيم الأكثر أهمية. في الحقيقة لم تكن هناك مؤامرة أو تهديد جدي، والقصة تعاظمت بسبب معلومات خاطئة متعمدة، استخف بها مانديلا فيما بعد. لكن الهيئة التنفيذية وجدته يقظاً أكثر.[41]

إن أسلوب مانديلا الضخم يعود إلى أوّليته في الزعامة وطفولته في الترانسكي، حيث كان يراقب الملك وهو يقرأ الأحكام على مرؤوسيه. اعتقد مراسل الواشنطن بوست وهو ديفيد أوتاواي أن مانديلا «لديه استبدادية تطابق زعماء القبائل التقليديين، وأنه يخفي توقاً سرياً لأن يعامل كزعيم».[42] بدا بالتأكيد وفي كثير من الأحيان أنه يستجيب لحاجة نفسية في الآخرين إلى ملك؛ لاحظ عالما الاجتماع آدم ومودلي «مطالبة بالملكية»، عندما كرس عمال صناعة السيارات السود وقتاً إضافياً بلا مقابل لتصنيع سيارة مرسيدس مترفة لمانديلا.[43] إن الأسلوب الضخم كان يضلل في أحوال كثيرة، ربما يبدو مانديلا أوتوقراطياً، لكنه يؤمن بعمق بالديموقراطية لقد بقي «عضواً مخلصاً ومنتظماً» للمؤتمر الوطني الإفريقي، وعندما تحدث عن «رؤسائه» لم يكن يمزح بالضرورة. لقد أسكتته الهيئة التنفيذية بقسوة، وتصريحاته المتناقضة عكست تحولاتهم هم بالذات وليس تحولاته هو. شرح عام 1994: «أشعر أحياناً أنهم مخطئون جداً، لكن يتعين عليّ احترام الأغلبية، يجب أن أذهب إليهم واحداً بعد آخر لإقناعهم».[44] كان قوياً جداً في الإقناع: إذ كان على حق وبعناد حول قضية ذات أهمية قصوى ـ مثل تشرشل وديغول ـ عندما كان الكثيرون على خطأ، ولديهم السبب الذي يجعلهم يؤمنون بصحة رأيه.

لكن مانديلا واجه عدة تحولات مؤلمة، في الوقت الذي ابتعد فيه

المؤتمر الوطني الإفريقي عن السياسات الثورية باتجاه الاعتدال والتسوية. كانت أصعب المجادلات تدور حول الملكية العامة والتأميم. وناقش من كانوا في روبن آيلاند التأميم نظرياً لسنوات عديدة، إلا أن الهيئة التنفيذية الوطنية تعين عليها الآن الموافقة على السياسات العملية التي يمكن تطبيقها سريعاً. ما زال مانديلا ينظر إلى التأميم بوصفه الوسيلة الواضحة للتخفيف من عدم المساواة، ولمنح سلطة اقتصادية للسود. وقبل أن يذهب إلى السجن عام 1962، رأى كيف أن حزب العمال البريطاني تبنى الفقرة الرابعة من دستوره، وآمن بالاستيلاء «على أعلى المناصب» عن طريق ملكية الدولة. وعندما تناقش معه السفير البريطاني روبن رينويك عام 1990، ضد التأميم أجاب: «لقد كانت فكرتك. كانت (موضة) آنذاك». [45] لم يتعرض مانديلا في السجن خلال عقدي السبعين والثمانين إلى خيبة الأمل مع ملكية الدولة التي تم الشعور بها في شتى أنحاء العالم؛ وكان بإمكانه رؤية كيف أن النقابات الجنوب إفريقية كانت تعمل بالتحالف مع حكومات التميز العنصري.

عند إطلاق سراحه عام 1990، كان مدركاً أن جنوب إفريقية بحاجة ماسة إلى الاستثمارات الأجنبية لضمان النمو الاقتصادي وإيجاد المزيد من فرص العمل، ووعد بأن يشن حملة طلباً للمستثمرين حالما يتم إلغاء العقوبات. قال في شباط (فبراير) 1990: «متى تمت تسوية الوضع فإن الاستثمار في البلاد هو التطور الطبيعي، وهو ما نريده». [46] لكنه ـ وكما اعترف فيما بعد ـ كان بطيئاً في رؤية أن التهديد بالتأميم سيفزع المستثمرين الطويلي الأمد. لقد ذكر رجال الأعمال كيف أن الحكومات الأفريقانية استخدمت الصناعات المؤممة، بما فيها السكك الحديدية والفولاذ، والخطوط الجوية الجنوب إفريقية، لتعزيز وإغناء مواطنيها بالذات. لماذا يُمنع السود الآن من الاستفادة من الفرصة ذاتها[47]؟ لكنه في كل مرة كان يدعو فيها إلى التأميم كانت بورصة جوهانسبورغ تنخفض: خطبة واحدة خفضت مؤشر الذهب بنسبة 5٪. [48]

لقد أصبح أكثر مرونة، اقترح أن الكتل العشر المختلطة التي تسيطر على البورصة هناك حاجة لتأميمها، لكن يمكن أن تتحطم بالقوانين المقاومة (للتروستات) الاحتكارية. رجع إلى تفسيره الخاص مجدداً لميثاق الحرية، الذي يسمح لمجالات العمل الإفريقية «بأن تزدهر بصورة لم تكن عليها في السابق». وأصبح صديقاً لزعماء الأعمال بمن فيهم هاري أوبنهايمر، الرأسمالي الرئيسي. وطلب من هيلين سوزمان صديقته القديمة منذ روبن آيلاند أن تنظم غداء مع ملوك المال (حيث لاحظت) أنه قد سحر معظمهم».[49] حذروه من أن التأميم لا يعتبر الوسيلة لتوفير الثروة، كما أن عدة زملاء من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم ثابو مبيكي طلبوا إلغاء الفكرة. لكن زملاءه الماركسيين كانوا في وضع المراقب؛ واستمر الرفاق الشباب في المناطق بمساواة الرأسمالية بالقمع.

إن وجهات نظر مانديلا ربما تكون مشوِشة. وبدا أنه مرتاح مع أصحاب المصارف أكثر من ارتياحه مع نقابات العمال، ولم يبد اشتراكياً أمام الزوار الأجانب. قال الكاتب المسرحي آرثر ميللر، الذي أمضى وقتاً معه أواخر عام 1990 «إنه واحد من أشد المحافظين الذين التقيتهم. ولو أنه ولد في مجتمع سلمي لأصبح قاضياً».[50] لكن مانديلا ما زال يؤمن بمجتمع بلا طبقات، في حين أنه «مدرك بألم» للاتجاه المعاكس.[51] تطلع إلى وسائل لتخفيف عدم المساواة. وفي أيلول (سبتمبر) 1991 أبلغ رجال الأعمال أن التأميم وحده من شأنه تخفيف عدم التوازن، رغم أنه يرحب بأي بديل. إن الإشارات المشوشة عكست جدالات ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي كانت أكثر تطرفاً من تلك التي عصفت داخل الأحزاب الاشتراكية لأوربة؛ لأن جنوب إفريقية كانت قضية متطرفة منذ وقت طويل، بالنسبة إلى عدم المساواة والاعتماد على رأس المال الدولي.

في شباط (فبراير) 1992 فقط تمكن مانديلا من الذهاب إلى السوق الاقتصادية العالمية في دافوس، سويسرة، حيث تحول أخيراً ضد التأميم. احتفي به من قبل المصرفيين والصناعيين العالميين في مآدب غداء وعشاء. وتجادل معهم بأن الدول الصناعية الأخرى بما فيها بريطانية وألمانية واليابان احتاجت إلى صناعات مؤممة لاستعادة اقتصادياتها بعد الحروب العالمية. وشرح قائلاً: «إننا نسير عبر تجربة رضّية للحرب ضد الشعب، ولذلك فإننا بحاجة إلى التأميم». لكنه ظهر، كما تشكى أحد الاقتصاديين، وكأنه اشتراكي قديم حذر، وقد بزه دوكليرك وباثيليزي اللذين عبرا عن رأيهما بالذات في المؤتمر بخصوص المشاريع الحرة.

وأخيراً غير رأيه بسبب ثلاثة مندوبين ودودين من اليسار. فوزيرة الصناعة الهولندية كانت محبة ومتفهمة، إلا أنها سحقت وجهة نظره. شرحت قائلة: «انظر، هذا ما أدركناه آنذاك، لكن اقتصاديات العالم أصبحت الآن معتمداً بعضها على بعض. وإن عملية العولمة بدأت جذورها، ولا يمكن لأي اقتصاد أن يتطور تطوراً منفصلاً عن اقتصاديات الدول الأخرى». وأخبره زعماء من الدول الاشتراكية الرئيسية ـ الصين وڤييتنام ـ كيف أنهم قبلوا المشاريع الخاصة، ولا سيما بعد انهيار الاتحاد السوڤييتي. قال مانديلا متذكراً «لقد غيروا رأيي كلياً. عدت إلى الوطن لأقول: «أيها الرجال، ليس أمامنا خيار. إما أن نحتفظ بالتأميم، ولا نحصل على استثمارات. أو نعدل من موقفنا بالذات ونحصل على استثمارات». [52]

ما زال يتعين عليه مواجهة معارك في الوطن. فعندما عقد المؤتمر الوطني الإفريقي مؤتمراً اقتصادياً بعد ذلك بوقت قصير، اقترح التخلي عن خيار التأميم، لكنه اتُهم بخيانة ميثاق الحرية، وتوجب عليه سحب الاقتراح؛ كانت الجدالات العاطفية القديمة ما تزال موجودة ضمن الهيئة التنفيذية والمناطق.

ولم يقبلوا بسياسة أكثر اعتدالاً في خصخصة بعض الصناعات واستبدال التأميم ببرنامج إعادة البناء والتطوير الجديد حتى عام 1993 عندما كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتطلع نحو الانتخابات. بقي مانديلا مصراً على إيمانه بالمجتمع اللاطبقي، لكنه قبل مع حزبه بأن جنوب إفريقية لا تستطيع الخروج عن السوق العالمي، الذي بدا فيما بعد وهو أكثر قسوة مما كانوا يتوقعون.

30

قوة ثالثة

بينما كان مانديلا يحاول توحيد حزبه وبث الاعتدال فيه، وإعداده للسلطة، تدمرت مفاهيمه بتصعيد مخيف للعنف السياسي. . فموجة القتل في عقد الثمانين اندفعت بسرعة بعد إطلاق سراحه، وعدم قدرته على منعها جدياً دمر مصداقيته زعيماً للمستقبل. لكن جوهر العنف كان من المستحيل التغلغل إليه، كما أن مستويات الدليل على ذلك سيتم اكتشافها تدريجياً فقط؛ ولم تتضح الحقيقة أكثر إلا بعد ثماني سنوات.

في البداية كانت معظم أعمال القتل مركزة في زوازولو ـ ناتال، أي المنطقة المركزية الفقيرة لشعب الزولو، حيث بدت البشاعات أسوأ ما تكون عليه في المناطق الريفية المحيطة المسالمة. وبين تموز (يوليو) 1990 وحزيران (يونيو) 1993، مات ما يعادل 101 شخص شهرياً في «أحداث ذات صلة سياسية»، في كوازولو ـ ناتال. ووصل العدد إلى 3653 قتيلاً.[1] ونظر معظم البيض إلى العنف بوصفه صراعاً قبلياً صريحاً بين المحاربين من الزولو والمتطفلين من الكزوسا الذين سعوا إلى السيطرة على الشعب من خلال المؤتمر الوطني الإفريقي. وبدا أن مفتاح السلام يكمن مع الرئيس باثيليزي وحزبه الإنكاثا من الزولو، الذي كان يوسع سلطاته. وكان بإمكان الإنكاثا المحافظة على التوازن في المفاوضات المقبلة، لأن حزب دوكليرك الوطني كان يأمل بوضوح بأن يجلبه، مع مجموعات أخرى قبلية، إلى جانبه ليتفوق على المؤتمر الوطني الإفريقي في الاقتراع.

كان مانديلا حريصاً وهو في السجن على البقاء على علاقة جيدة مع باثيليزي، وقبل إطلاق سراحه، كان قد أرسل له رسالة أخرى مطولة، حاثاً إياه على لقاء تامبو في لندن، كتب: «من خلال شخصيتي السياسية بأكملها، كانت هناك أشياء قليلة أحزنتني [أكثر] من رؤية شعبنا يقتل الفرد منه الآخر كما يحدث الآن».[2] كان تامبو وسيسولو ـ مثلهم مثل الزعماء الآخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي ـ محترسين جداً من باثيليزي بعد تحولاته الماضية، لكن مانديلا احتفظ بعلاقته الرئاسية معه؛ لقد دافع عن باثيليزي لمقاومته ضغط الحكومة لتحويل زوازولو إلى بانتوستان منفصل، واعتقد أن بمقدوره إقناعه بالتعاون مع المؤتمر الوطني الإفريقي. قال سيسولو فيما بعد: «لا أعتقد أنه كان هناك من هو أكثر إقناعاً لباثيليزي من مانديلا».[3]

كان مانديلا يأمل بحدوث تقارب شخصي مع باثيليزي، رئيساً مقابل رئيس. وكلمه بالهاتف بعد مغادرته السجن بأسبوع، شاكراً إياه لرفضه التفاوض مع بريتوريا إلى حين خروجه وطالباً زيارته؛ بعد ذلك بأسبوع، ذهب مانديلا بجرأة إلى عرين الأسد، إلى معقل الزولو في دوربان ليخاطب حشداً من 100,000 شخص. جميعهم تقريباً من الزولو، وذلك في كينغ بارك. أراد أن يشاركه باثيليزي منبره، لكن زملاءه عارضوه، مما أثار غضب باثيليزي، اقترح مانديلا اجتماعاً مشتركاً في المستقبل، لكن الحشد أعطى «عدم موافقة بهدير مشؤوم».[4] ناشدهم مانديلا قائلاً: «خذوا بنادقكم، وسكاكينكم والـ pongas وألقوا بها في البحر»! لكنه تأسف لأن مناشدته «لم تلق آذاناً صاغية».[5] وبعد ذلك بوقت قصير ـ كما تبين ـ قدمت الشرطة سراً منحة بقيمة 120,000 راند إلى الإنكاثا لتمويل اجتماع حشدها المضاد بالذات.[6]

كان مانديلا يأمل أيضاً بالتعامل مباشرة مع ملك الزولو، ابن عم باثيليزي وهو غودويل زويليذيني، الذي كانت له روابطه الخاصة معه بوصفه المحامي السابق للبيت الملكي للزولو؛ لكن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يكن ليرضى أن

يجتمع به بلا زملائه، كما أصر الملك، وأي لقاء مع باثيليزي كان يلاقي الڤيتو من قبل الزعماء المحليين للمؤتمر الوطني الإفريقي وعلى رأسهم هاري غوالا، الزولو القديم الستاليني من روبن آيلاند، الذي هو الآن نصف مشلول لكنه ما زال متصلباً. يتذكر مانديلا في كثير من الأحيان أن «المؤتمر الوطني الإفريقي أراد أن يخنقني عندما ألمحت إلى باثيليزي».[7]

كان دوكليرك ينتقد مانديلا على الدوام لعدم اجتماعه بباثيليزي، الذي يقول إن سببه هو «موقف مانديلا المستبد».[8] هل كان بإمكان الزعيمين وقف المذابح؟ قال باثيليزي فيما بعد: «لو أنه كان لمانديلا طريقه لأصبح التاريخ مختلفاً»[9] وجاكوب زوما وهو زعيم زولو من المؤتمر الإفريقي في ناتال (الذي كان أيضاً في روبن آيلاند) اعتقد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يرتكب خطأ فادحاً: «كان من الضروري لباثيليزي أن يشعر بالترحيب والعناق وأنه جزء من العملية. . . ربما كنا شهدنا نهاية المشكلة»[10] لكن العنف على الأرض كان له زخمه أصلاً، واعتقد الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي أن الصراعات يمكن حلها فيما بعد. كان ثابو مبيكي يجري اتصالات سرية مع زعماء محليين من الإنكاثا، ممن قابلوا المؤتمر الوطني الإفريقي في أيلول (سبتمبر)، لأول مرة منذ الانفصال بين المجموعتين عام 1979. أصر مبيكي على عدم وجوب اجتماع مانديلا وباثيليزي ما لم يكونا جزءاً من العملية؛ وكان مبيكي هو الذي سيضع الاتفاق في النهاية.

كانت أعمال القتل ما تزال تتصاعد، وتقترب أكثر فأكثر من حرب أهلية. في حين أن الشرطة ظهرت ظهوراً غريباً وهي رافضة للتدخل. قال تقرير للجنة العفو الدولية: «كانت الهجمات تشن صارخةً في وضح النهار، وبوجود الشرطة في كثير من الأحيان، وبمشاركتها مشاركة فعالة في بعض الحالات». انتشرت الهجمات أكثر فأكثر في تموز (يوليو) 1990، عندما أنشأ باثيليزي حزب حرية

الإنكاثا، بهدف جلب حزب الزولو إلى المسرح الوطني. أعلن: «إننا لن نسمح للمؤتمر الوطني الإفريقي وشريكه الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي بسحق المعارضة بأكملها والخروج بوصفه الحزب الوحيد القابل للحياة» وادعى حزب حرية الإنكاثا أنه جنّد 300,000 عضو في شهوره القليلة الأولى، وأنه سيصبح لديه قريباً 1,8 مليون عضو.[11] بعد وقت قصير من ذلك التاريخ، انفجرت أعمال القتل السياسي في الترانسفال، لا سيما في المناطق المدينية التي تحميها بريتوريا، مثل ويتووكر سراند، وفيرينايجنغ: قُتل 4756 شخصاً في «عنف ذي صلة سياسية»، في منطق بي. دبليو. في السنوات الثلاث التالية، حسب تقرير لجنة الحقائق فيما بعد ـ وهذا يفوق ما حدث في كوازولو ـ ناتال.[12] وكان من الصعب عدم ربط العنف بالطموحات الوطنية لحزب حرية الإنكاثا.

كانت النُزُل للجنس الواحد للعمال من الزولو في المدن الصغيرة هي مراتع العنف، وقد وقعت مذبحة شنيعة في سيبوكينغ جنوب جوهانسبورغ في 22 تموز (يوليو)، عندما جُمع المئات من الزولو من النُزُل للقيام بمظاهرة جماهيرية. ولدى توقع المشكلات، حذّر المؤتمر الوطني الإفريقي وزير القانون والنظام أدريان ڤلوك، الذي لم يقم بأي عمل، وهكذا تركت المعركة الناتجة ثلاثين قتيلاً معظمهم من المؤتمر الوطني الإفريقي. زار مانديلا سيبوكينغ في اليوم التالي، وشاهد الأجساد الميتة في المشرحة، وقد قطعت إرباً إرباً وشوهت. ألقى اللوم على دوكليرك أكثر من أن يلقيه على باثيليزي، وتساءل لماذا لم يفعل شيئاً؛ لكنه لم يتلق الرد المعقول.[13]

كانت أعمال القتل مشؤومة على الخصوص لأنها بدت وكأنها مؤقتة لتشويش المفاوضات. بعد ثلاثة أيام من توقيع مانديلا محضر بريتوريا مع دوكليرك في آب (أغسطس) عمت موجة جديدة من العنف عبر مناطق الترانسفال، مؤدية إلى مقتل ألف من السود خلال شهر. وبينما كان مانديلا

كانت مصداقيته تتدمر بالمذابح التي لم يكن بمقدوره السيطرة عليها بالتأكيد، وكان البي الجنوب إفريقيون يشيرون إلى عنف الأسود على الأسود «كعلاقة تشير إلى أن المؤتمر الوطني الإفريقي غير قادر على الحكم. ويبدو أن خطط ضباط الاستخبارات العسكرية لبث الانقسام بين صفوف المعارضة السوداء يبدو أنها بدأت تنجح. الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بدوا الآن وهم يعتبرون باثيليزي عدواً لهم أكثر من دوكليرك.

بدت الشرطة عديمة الفعالية أكثر الآن، عندما بدأت العصابات المسلحة بمهاجمة القطارات الحاشدة التي نقلت العمال السود الذين يعملون بين سوويتو وجوهانسبرغ وفي أكثر المعارك وحشية في 13 أيلول قامت عصبة من الرجال المسلحين بالتسلق عبر العربات، وقتلت ستة وعشرين شخصاً وجرحت مائة. بالإجمال فإن 572 شخصاً قتلوا في عنف القطارات في السنوات الثلاث التالية ـ حيث ألقت لجنة الحقائق اللوم فيما بعد على الإنكاثا، والشرطة والجيش.[14]

رد المؤتمر الوطني الإفريقي على العنف عن طريق تشكيل العُصَب شبه العسكرية الخاصة به والتي سميت «وحدات الدفاع عن النفس»، وادعوا أنها تقوم على مجموعات محلية استجابة لـ «مطالب جذرية بالحماية ضد المذابح». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي شرَّع الإمداد بالأسلحة الذي نظمه روني كاسريلز، عضو الهيئة التنفيذية؛ وإن وحدات الدفاع عن النفس التي كان هدفها الدفاع عن النفس، لم تكن تُراقب عن كثب؛ شرح كاسريلز فيما بعد؛ كان الوضع صعباً جداً في أوقات مشوشة أشد التشوش». هذا وستلقي لجنة الحقائق فيما بعد اللوم جزئياً على المؤتمر الوطني الإفريقي «للمشاركة في دوامة عنف في البلاد من خلال تشكيل وتسليح وحدات الدفاع عن النفس».[15]

صار مانديلا الآن قد أقنعته استخبارات المؤتمر الوطني الإفريقي أن الهجمات لم تكن من عمل مؤيدي الإنكاثا بكل بساطة، بل حرضت عليها ما

أسماها «قوة ثالثة» ضمن أجهزة الأمن التي كانت تحاول عمداً منع المحادثات مع الحكومة(*). وصار أقل مَيْلاً إلى التخلي عن الكفاح المسلح؛ في أيلول (سبتمبر) أبلغ مؤتمراً صحفياً أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما يتعين عليه الشروع بالقتال من جديد. وفي تشرين الأول (أكتوبر) حذر دوكليرك من أن الناس يلاحظون أن «هناك قوى مقربة منك، أيها السيد الرئيس، لها جدول أعمال مزدوج». في الحقيقة كان دوكليرك قد تم تحذيره قبلاً في كانون الثاني (يناير) 1990، من قبل وزير الدفاع ماغنوس مالان، بخصوص منظمة سرية إجرامية ضمن قوات الدفاع، تحمل الاسم الأورويلي: مكتب التعاون المدني؛ طلب دوكليرك إجراء تحقيق من قبل القاضي لويس هارمز الذي قدم تقريره في تشرين الأول (أكتوبر) 1990: لكنه كان دليلاً مموهاً يرفض الدليل على وجود فرقة قتل مقرها ڤلاكبلاس خارج بريتوريا، وهذا ما تبين فيما بعد أنه صحيح جداً. وجد مانديلا أن تقريرها رمز لا يمكن تصديقه، واعتقد أن دوكليرك والآخرين في الحكومة «اختاروا النظر إلى اتجاه آخر أو تجاهل ما عرفوا أنه يجري تحت سمعهم وبصرهم». بحلول نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) كان يتهم وكالات الاستخبارات بتنظيم «ذبح شعبنا»، كانت الاستخبارات الغربية قلقة أيضاً: عندما زار دوكليرك البيت الأبيض في أيلول (سبتمبر) 1990، قال الرئيس بوش سريعاً: «أنا قلق بخصوص... الدليل على وجود قوة ثالثة».[16]

اتسع الصدع بين مانديلا ودوكليرك. استمر مانديلا في مكالمة دوكليرك بالهاتف بمزاعم جديدة، وغالباً ما كان لا يصدق التفسيرات التي قدمت له.

(*) إن مصطلح «القوة الثالثة» قد استعمله مجلس أمن الدولة في عهد الرئيس بوثا في نوڤمبر (تشرين الثاني) 1985، عندما ناقش المجلس تأسيس وحدات قوة منفصلة تقوم بفرض الأمن الداخلي. لم توافق قوى الأمن ولا الدفاع على مهام هذه الوحدات، فأنشأ كل منهما فيما بعد منظمات منفصلة عن بعضها قامت بالمهمة بشكل فعّال. وبذلك استطاع الوزراء أن يدّعوا أن ليس ثمّة «قوة ثالثة». بينما كان مانديلا يتحدث عن قوى أقل تنظيماً من الناحية الرسمية.

اتهم دوكليرك مانديلا بالنفاق. مشيراً إلى أن لدى المؤتمر الوطني الإفريقي عدداً من المشاغبين ورفض تقريع مانديلا قائلاً: «سيد مانديلا، أنا لم أهتف إليك لأتلقى إهانة. إلى اللقاء»[17] شعر مانديلا بغضب أكبر منذ أن دعا دوكليرك في وقت سابق بوصفه «رجل التمامية» رغم نصيحة سيسولو وآخرون، حيث انتقده الناشطون على ذلك. قال سيسولو: «عندما يشعر بالخيانة من المستحيل إنهاؤه ضمن ذلك الخط». كان سيسولو أقل مفاجأة بتصرف دوكليرك، لأنه نظر إليه دوماً على أنه جزء من مكائد الحزب الوطني، لكن مانديلا أعطى دوكليرك موافقته الشخصية، التي سحبها الآن. في الحقيقة لم يبجِّل دوكليرك في أي وقت من الأوقات، كما بَجَّل ب. دبليو. بوثا؛ والآن أصبح عديم الثقة به كلياً.

كان دوكليرك يأمل بدعم باثيليزي كوزن معاكس ضد المؤتمر الوطني الإفريقي، لكنه كان يجده حليفاً أخرق. «خليط من التناقضات» يمكن أن يكون «عنيداً بتشبث، ونكداً بإحباط».[18] كان وزراء دوكليرك أيضاً يجدون باثيليزي متصلباً في أحوال كثيرة. تذكر وزير المالية السابق باريند دو بليسيز قائلاً: «أردنا تحالفاً مع الإنكاثا، لكن كان من المستحيل التعامل معه. فهو يوافق في أسبوع ما على شيء ما، وفي الأسبوع التالي يحدث إخفاق تام». قال وزير الخارجية بيك بوثا «كان باثيليزي يسبب لنا الكثير من المشكلات، والأوربيون والأميركيون هم الذين عززوه».[19]

مما لا شك فيه أن طموحات باثيليزي كان يتم تشجيعها علناً بالمجموعات اليمينية فيما وراء البحار. ففي أمريكة كانت مؤسسة التراث ومجموعات أخرى معادية للشيوعية ما تزال ترحب به بوصفه الأداة التي تعاقب شيوعيي المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين أنه كان مدعوماً في ألمانية بمؤسسة كونراد أديناور وبعض رجال الأعمال الأغنياء. لكن بريطانية هي التي وفرت له معظم مؤيديه المتحمسين في زياراته الكثيرة. رأته السيدة تاتشر مجدداً مطلع

عام 1990، وذلك ضد نصيحة وزارة الخارجية. وامتدحته بوصفه «مناوئاً شجاعاً لانتفاضة العنف في جنوب إفريقية في حين أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يصادق على الثورة الماركسية».[20] لكن السياسة البريطانية تجاه الزولو كانت مشوشة. ما زالت السيدة تاتشر تجادل لصالح نوع ما من الحل الكونفدرالي القبلي، يعطي المزيد من الاستقلال الذاتي للزولو والقبائل الأخرى، في حين أن أصدقاءها اليمينيين كانوا يشجعون بدرجة أكبر تحدياً شبيهاً بالحرب بدا أنه يهدف إلى الانفصال.

كان لقبلية الزولو جاذبية خاصة لدى مجموعة من الأغنياء البريطانيين اليمينيين بمن فيهم السير جيمس غولد سميث وصديقه جون أسبينال، صاحب الكازينو وحديقة الحيوانات والذي اشترى ممتلكات كبيرة خارج كيبتاون وسمّى نفسه «الزولو الأبيض». في تموز (يوليو) 1990 كان باثيليزي المتحدث الرئيسي في لندن في اجتماع لمركز دراسات السياسة، الذي يعتبر مركزاً فكرياً مفضلاً لدى السيدة تاتشر، حيث حذر من أن ثوريي المؤتمر الوطني الإفريقي مصممون «على إيصال أنفسهم إلى السلطة»، وأبلغ البريطانيين أن عليهم «القيام بمهمة لم تنته بعد في جنوب إفريقية».[21] كان المتحدثون البريطانيون متحمسين أكثر. وتشكى الصحفي المحافظ بروس أندرسون من أن الزولو لم يكونوا عنيفين بدرجة كافية. وفي حين قال أسبينال إن جنوب إفريقية يجب تقسيمها إلى ما يزيد عن ثلاثين جزءاً قبلياً! فإن باثيليزي عدَّ هذا مبالغاً فيه جداً.[22]

بعد أربعة أشهر أقام أسبينال مأدبة لباثيليزي في لندن، لبحث موضوع الحياة البرية، ظاهرياً، حضرها محافظون أثرياء بمن فيهم غولد سميث، وجاكوب روتشيلد ومارك غوردون من جبهة الحرية الدولية التي كانت تشجع سياسة باثيليزي.[23] استمر أسبينال في لعب دور الزولو الأبيض؛ في أيار (مايو) 1991 عندما خاطب ملك الزولو 40,000 شخص في سوويتو، ألقى أسبينال كلمة «حذر فيها المؤتمر الوطني الإفريقي من أنه أيقظ عملاق

الزولو».[24] كان باثيليزي قد أصبح جالب الحظ لليمين المتطرف في بريطانية وأمريكة، مثل جوناس سافيمبي في أنغولا؛ إلا أن حماته لم يسعوا إلى ضبطه، ولم تكن لديهم خطة مرئية لإحلال السلام في ميادين المعارك الدموية.

في جنوب إفريقية، التقى مانديلا أخيراً بباثيليزي شخصياً في 29 كانون الثاني (يناير) 1991 بعد عام من مغادرته السجن. حافظ باثيليزي على تبجيل رئاسي لمانديلا، واصفاً إياه بأنه شخص أكبر، في التقليد الإفريقي.[25] تحدثا في الرويال أوتيل في دوربان لثماني ساعات واتفقا على تعزيز السلام، ووقف «الحديث عن القتل» وتأليف لجنة مراقبة مشتركة؛ لكن مانديلا فكّر فيما بعد أن الإنكاثا «لم تبذل أي جهد لتطبيق الاتفاق».[26] وفي الشهور الثلاثة الأولى من عام 1991، قتل أربعمئة شخص، معظمهم بعد اجتماع دوربان. كانت هجمات الإنكاثا على المؤتمر الوطني الإفريقي تستدعي ردوداً دموية أكثر فأكثر، وكان الطرفان يردان بأعمال الثأر: اعتبرت لجنة الحقائق فيما بعد أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مسؤولاً عما يزيد عن ألف عملية قتل في كوازولو ـ ناتال، ودولة الأورانج الحرة، في حين ألقي اللوم على الإنكاثا بمقتل ما يقارب الأربعة آلاف.[27]

كان لدى مانديلا وباثيليزي أشياء كثيرة مشتركة؛ فكلاهما ينحدران من أوَّليَّة فخورة في الزعامة، وكلاهما تلقيا علومهما في فورت هير، ولديهما جاذبية واضحة يمكن أن تسترضي الزوار البيض. لكن باثيليزي بقي الزعيم القبلي أكثر بكثير، الذي تشغله تقاليد الزولو وطريقة المخاطبة الرسمية؛ لم يتوجب عليه في أي وقت من الأوقات أن يستسلم لمبادىء ديموقراطية الحزب؛ في حين أن داعميه فيما وراء البحار شجعوا قبليته. كانت أطواره تصبح غريبة أكثر فأكثر مع علامات تشير إلى جنون الاضطهاد حيث كان يرد بغضب شديد على الناقدين، بما فيهم الصحفيون، الذين بدؤوا يتحولون ضده (ربما هو السياسي الأبغض ـ على القارة الإفريقية ـ كما حكم ديڤيد أوتاواي من الواشنطن

بوست).[28] وكان مانديلا يفقد الصبر تجاه مزاج باثيليزي الصعب التكهن به: فبعد لقاء ودي رجل ـ لرجل، عاد إلى كوازولو ليقوم بهجوم ضارٍ بلباسه القبلي. وفسر مانديلا ذلك بأنه يعود إلى فقدان الشعور بالأمان عند باثيليزي: لقد حرم من حب الأبوين وعطفهما عندما كان طفلاً، كما شرح، لذلك أصبح غير واثق من أنك ستبقى صديقه بعد مغادرته.[29] والآن جاء دور الزملاء مثل سيسولو لإقناع مانديلا بالاسترضاء.

في 1 نيسان (أبريل) 1991 التقى مانديلا بباثيليزي من جديد. وحذره من أن لدى الحكومة جدول أعمال خفي لبث الانقسام بين السود. لكن باثيليزي رفض الفكرة، كما شرح في رسالة سرية إلى مانديلا بعد ذلك بيومين: «أنا لا أصدق قط أن السيد دوكليرك يشرف على مادة تآمرية في توظيف قوات الأمن من أجل أن يزيد فرصة الرجل الأبيض في الاستمرار في السيادة علينا... هل أنت غير واثق حقاً بالسيد إف. دبليو. دوكليرك وحكومة جنوب إفريقية؟».[30]

لكن مانديلا كان عديم الثقة بـ دوكليرك فعلاً، وله بعض الحق في ذلك. في 5 نيسان (أبريل) بعد أن حذر مانديلا الهيئة التنفيذية، كتب المؤتمر الوطني الإفريقي إلى دوكليرك مهدداً بالانسحاب من المحادثات ما لم تطرد الحكومة الوزراء ورؤساء الشرطة المسؤولين عن العنف. قال مانديلا في مؤتمر صحفي: «في أي بلد آخر لا تُبقي الحكومة على الوزراء الذين كانت مكاتبهم مسؤولة عن مقتل الآلاف من الناس». وعندما رفض دوكليرك أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي أنه سيلغي المحادثات ليشرع في عمل جماهيري، يبلغ ذروته في إضراب عام. آنذاك نظم دوكليرك مؤتمراً حول العنف رفض مانديلا حضوره قائلاً: إن دوكليرك يعرف أصلاً كيف يضع حداً للعنف. تشكّى دوكليرك فيما بعد بقوله: «إنه ما يزال يعمل ضمن الرؤية التي غذاها الكثيرون جداً من الثوريين، وهي أن امتلاك فعاليات الحكومة يساعد أولئك الموجودين في السلطة على تحقيق أية أهداف يريدونها».[31]

لقد لحق الأذى الآن بصورة مانديلا في الوطن والخارج وبدرجة خطيرة، إذ إنه ظهر وهو غير قادر على السيطرة على عنف «الأسود ضد الأسود». كتب الصحفي الليبرالي شون جونسون في أيلول (سبتمبر) 1990: «إن صورة المحرر العظيم قد تلاشت، ربما إلى الأبد».[32] «إن ما يقوله هذا الرجل المسكين يفسر في أسوأ ضوء ممكن». كما كتبت بيزنس داي «بلا أدنى اعتبار للخط السياسي الجيد الذي رسمه أو الضعف الموروث في موقفه». وعلى العكس من ذلك، فإن دوكليرك اعتبر في الخارج رجل دولة ذا سلطة متعاظمة اعتقد العالم السياسي ستيفن إليس فيما بعد أن «موقف دوكليرك الدولي كان أعلى من موقف رئيس أية حكومة أخرى في جنوب إفريقية منذ خمسين عاماً».[33] بدا وهو في سيطرة تامة، وفي نيسان (أبريل) 1991 قام بجولة أوربية ناجحة، مدعياً أن حكومته قد دخلت مجدداً إلى العالم المتحضر من خلال تفكيك التمييز العنصري، ومناشدة رجال الأعمال بالشروع باستثماراتهم من جديد؛ في لندن ـ كما قال ـ فإن السيدة تاتشر «فعلت كل ما بوسعها لدعمي».[34] وفي مأدبة غداء في داوتنغ ستريت أعجب وزير الخارجية دوغلاس هيرد «برجل حكيم وشجاع بدرجة مدهشة بعد أن فقد كل أوراقه الرابحة تقريباً».[35] وكتب هوغو يونغ في الغارديان: «إن ما يحتاجه السود هو زعيم كفؤ مثل دوكليرك».[36]

لكن كانت هناك روايات متزايدة في «الصحافة البديلة» الأكثر جسارة في جنوب إفريقية عن مؤامرات سرية، وبخاصة في الأسبوعية الأفريقانية فري ويكبلاد. وفي حزيران (يونيو) 1991 ادعى ضابط استخبارات عسكرية سابق تحرر من الوهم وهو الكابتن نيكو باسون، ادعى أن رؤساءه السابقين خططوا لزعزعة المعارضة السوداء بالعنف والخدع القذرة مثلما فعلوا في ناميبيا، وعلى رأسهم قائد قوات الدفاع كات ليبينبرغ.[37]

لا يمكن البرهان على صحة ادعاءات باسون، لكن في تموز (يوليو) 1991 كان هناك اختراق رائع. فقد حصل مراسل الغادريان في جنوب إفريقية

ديفيد بيريسفورد على بعض الوثائق السرية جداً من ضابط سابق في قوى الأمن أظهرت بوضوح أن الشرطة كانت تمد الإنكاثا بالمال، عن طريق حساب مصرفي سري في دوربان، وذلك بمعرفة باثيليزي. نشرت الغارديان القصة مع الـ ويكلي ميل في جوهانسبورغ التي أبرزتها في 18 تموز (يوليو): «الشرطة تدفع للإنكاثا لإحباط المؤتمر الوطني الإفريقي». نادراً ما كان لأية قصة إخبارية أخرى مثل هذا الوضع على حكومة ما. أجبر وزير الشرطة أدريان ڤلوك على الاعتراف بالدفعات، وبعد ذلك بعشرة أيام أزاح دوكليرك ڤلوك وماغنوس مالان وزير الدفاع من وظائفهما، مع احتفاظه بهما في وزارته. وفي الأسابيع التي تلت أظهرت الـ ويكلي ميل مفاجآت مدمرة أكثر عن تدريب القوات الدفاعية السري لقتلة لصالح الإنكاثا.[38]

هذه الفضائح بررت جميع شكوك مانديلا بخصوص وجود قوة ثالثة. ضعفت سلطة دوكليرك واعترف قائلاً: «مصداقيتنا قد تدمرت تدمراً خطيراً». وفي وقت متأخر «بدأ بالشك في أن بعض العناصر في قوى الأمن ربما كانت تستخدم نفوذها».[39] بعد ذلك بأسبوعين عين لجنة جديدة بإشراف القاضي ريتشارد غولدستون، كشفت بعد بداية بطيئة مؤامرات خطيرة بدرجة أكبر. أراد المؤتمر الوطني الإفريقي أن يدفع بفرصته إلى داخل الوطن عن طريق تصعيد العمل الجماعي. لكن مانديلا كان راغباً بالتفاوض برغم كل شيء، في حين نادى زعماء الكنائس ورجال الأعمال بالاسترضاء.

في أيلول (سبتمبر) 1991 عقد مؤتمر سلام وطني في فندق الكارلتون في جوهانسبورغ، حضرته أربع وعشرون هيئة سياسية وضم الزعماء الثلاثة الرئيسيين: دوكليرك، مانديلا، وباثيليزي. وقبل ذلك بثلاثة أيام عقد دوكليرك اجتماعاً عاصفاً مع مانديلا، حيث اتهمه بالقيام بهجمات علنية عنيفة، وتشكى من أن «عملية فيولا» ما تزال تسرب السلاح، كان المناخ مشؤوماً في اجتماع الكارلتون حيث كان المئات من مؤيدي الإنكاثا مسلحين «بالأسلحة التقليدية»

وهم يتظاهرون في الخارج دون أن تتدخل الشرطة. كانوا يضربون بأقدامهم ويتمنطقون بدروعهم. في نهاية المؤتمر اتفقت جميع الأطراف على عقد «اتفاق سلام وطني»، وعد «بالمساعدة بفعالية لإيجاد مناخ من التسامح الديموقراطي والامتناع عن التخويف والاتفاق على عدم حيازة... أي سلاح، محمولاً كان أم معروضاً أمام أي اجتماع سياسي». لكن الجموع المولعة بالحرب في الخارج لم تكن مشجِعة. وفي مؤتمر صحفي نقل عبر التلفاز فيما بعد، ندد مانديلا بعنف بـ دوكليرك لعدم تفريق الجموع، في حين رفض باثيليزي المشاركة في مصالحة ثلاثية مع الآخرين.[40] استمرت أعمال القتل مع إطلاق نار شامل بعد ذلك عدة أيام. واستمر مانديلا بالتحدث سراً مع دوكليرك لكنه صار الآن أقل ثقة به بكثير. في قمة الكومونولث في هراري في تشرين الأول (أكتوبر) 1991 قال إن دوكليرك: «أصبح رجلاً مختلفاً جداً عما كان عليه في البداية» واعترف «باحتمال وجود بعض السذاجة من جانبنا».[41]

خلال العام الذي تلا، برز الدليل أكثر فأكثر على وجود مؤامرات سرية وفرق قتل. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) 1992 كشف القاضي غولدستون تفصيلات إضافية عن أعمال غير مشروعة قامت بها قوى الأمن، وفي الشهر التالي قدم الجنرال بيير ستين تقريراً إلى دوكليرك يفيد أن وحدات من الجيش عملت في السر لمهاجمة وتمزيق المؤتمر الوطني الإفريقي، وأنها ربما كانت متورطة في مذابح القطارات. ورد دوكليرك بإحالة ستة ضباط كبار إلى التقاعد، ثم عين ثلاثة جنرالات للتحقيق كانوا هم أنفسهم قد اتهموا بالتورط من قبل، وهذا عمل أسمته لجنة الحقائق فيما بعد «خطأ شنيع في الرأي».[42]

برز المزيد من الدلائل على وجود قوة ثالثة فيما بعد، مظهراً كيف أن الجيش درب القتلة سراً لصالح الإنكاثا، وكيف أن الشرطة شجعت المذابح من سيبوكينغ وأثارت المعارك القبلية. لكن القصة الكاملة لم تظهر أبداً. وكما جاء في تقرير لجنة الحقائق عام 1998 «فإن اللجنة لم تحرز تقدماً هاماً في كشف

القوى التي كانت تقف وراء العنف في عقد التسعين». رأت القليل من الدلائل على وجود قوة ثالثة موجهة مركزياً ومتماسكة أو مشكلة رسمياً. لكنها وجدت أن:

> شبكة من العاملين والعاملين السابقين في الأمن، والذين عملوا في أحيان كثيرة بالاتحاد مع عناصر يمينية و/ أو قطاعات من حزب الحرية للإنكاثا ـ كانت متورطة في انتهاكات جسيمة للحقوق الإنسانية ـ بما فيها أعمال القتل العشوائية والمنظمة.[43]

كان من الواضح أن مجموعات من ضباط الجيش والشرطة كانت لهم برامجهم الخاصة للتحريض على العنف، مستخدمين في أحوال كثيرة التكتيكات المميتة ذاتها التي طبقوها في زعزعة استقرار دول مجاورة في عقد الثمانين، بهدف بث الانقسام بين المعارضة السوداء وإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي. وبعد عام 1992، عندما أصبحت الحكومة أكثر صرامة وجِديَّةً معهم، عمل الكثير منهم في أعمال خاصة في النهاية، حيث موّلوا أنفسهم عن طريق بيع الأسلحة أو المخدرات، وكانوا يعملون أحياناً مع عصابات إجرامية. وبينما بدأت الأحزاب الرئيسة بالتفاوض حول تسوية سلمية. كانت المجموعات السرية تؤسس شبكتها الخاصة بالفساد، والتي أصبحت مرتعاً للنشاط الإجرامي، وستكون أكبر مشكلة يواجهها مانديلا في السنوات التالية.

31

خروج ويني

خلال العامين الأولين من نيل حريته، وجّه مانديلا العديد من الضربات القاسية، في الوقت الذي ظهر فيه وهو عديم القدرة على السيطرة على العنف، الذي تسبب في موتِ أكثر من أية سنة من سني التمييز العنصري. وكان يبدو أحياناً حذراً لدرجة تمنعه من إيصال البلاد إلى عصر جديد. وفي الوقت ذاته كان يواجه أزمة داخلية ضاغطة انكشفت انكشافاً مؤلماً.

بدا مانديلا خلال جميع لقاءاته العامة وأسفاره في شتى أنحاء العالم، أنه يتمتع بانسجام مثالي. وكانت ويني ما تزال جميلة جداً مع أنها في عقد الخمسين، بعينيها القويتين ذاتهما وحضورها الدافىء. وبالنسبة إلى الكثيرين كانت تتمتع بمصداقيات متساوية تقريباً مع زوجها في الكفاح، على الرغم من الاتهامات بخصوص مقتل ستومبي سيبي؛ هذا في حين أنه كان بمقدورها الوصول إلى أكثر مما كان في مقدور مانديلا الوصول إليه بالنسبة إلى النفوس الأصغر والأكثر راديكالية، وإلى المشردين والذين لا زعيم لهم على أطراف المجتمع. بدا الزوجان الشهيران وهما يدعم أحدهما الآخر بالتبادل؛ ويني بإمكانها أن تقود مانديلا بلباقة إلى الأصدقاء السياسيين، في حين كان هو حريصاً على تأمين احتياجاتها. وما زال يشعر بالذنب لأنها حملت الوطأة العظمى من أعباء الأسرة والاضطهاد السياسي. وكانت ممتنة لكل من وقف إلى جانبها.

القلائل جداً من الأصدقاء هم الذين رأوا الحقيقة وراء المظهر الكاذب الذي كشفه عام 1996 عندما أبلغ قاضي الطلاق أنه منذ مغادرته السجن: «فإنها لم تدخل غرفة نومي ولا مرة واحدة عندما أكون مستيقظاً». كان يحب أن يتناقشا في أكثر مشكلاتهما خصوصية وشخصية، كما أخبر القاضي، «لكنها كانت ترفض على الدوام. إنها من نوع الأشخاص الذين يخشون المواجهة».[1] أكدت ابنتهما زندزي: «إنهما لم يستطيعا أبداً مناقشة أمورهما، فمنذ اليوم الذي أصبح فيه والدي حراً، كان علينا أن نتقاسمه مع باقي العالم».[2]

إن ويني مانديلا المثالية (أو زامي كما دعاها) كانت مفعمة بالضياء من خلال رسائله في السجن، إلا أن ذلك المثل الأعلى تلاشى سريعاً في الحياة الواقعية. في حين بدت صورته العامة مختلفة جداً في الوطن. وكما قال هو ذاته «زامي تزوجت الرجل الذي تركها بسرعة، وأصبح هذا الرجل أسطورة؛ ثم عادت الأسطورة إلى الوطن وبرهنت على أنها رجل فوق كل شيء».[3] وكما أوضحت فاطمة مير: «في حين كانا معاً خلال انفصالهما، فقد بدءا لدى اجتماعهما باكتشاف كم أصبحا بعيدين أحدهما عن الآخر».[4]

كان مانديلا يبدو أنه ما زال مسحوراً بويني؛ إذ كان ينظر إليها دوماً، وعندما يكون بعيداً كان يهتف لها في كثير من الأحيان. كان الزائرون لبيتهما يروهما معاً، وهما يلهوان مع أحفادهما فوق السرير الواسع جداً. قالت فاطمة: «إن مانديلا كان بحاجة ماسة إلى ويني لتكون معه، ليحبها ويكون محبوباً من قبلها، ولتكون في البيت عند وصوله، أي بالمختصر لتكون زوجة بالمعنى المألوف».[5] لكن ويني لم تكن لديها النية بالهدوء والاستقرار في حياة عائلية هادئة، أو التخلي عن علاقاتها الوثيقة برجال آخرين.

كان عدم إخلاص ويني واضحاً جداً للصحافة. تساءلت صحيفة الستار بعد أسبوع من إطلاق سراح مانديلا: «كم سيطول بقاء صورة ويني المحتشمة؟» عندما أجرت مراسلة من صحيفة الدايلي ميرور اللندية مقابلة مع مانديلا في

نيسان (أبريل) 1990 في سوويتو عرفت كم كان محباً لويني، وكم كانت ويني عديمة الاستجابة وعديمة الصبر تجاهه. لكن صحيفة الميرور نشرت جزءاً مثالياً من حياتهما معاً.[6] لقد عاشت ويني في محيط مختلف جداً عن مانديلا، الذي لم يستطع الاستغناء عن عادته في السجن في الاستيقاظ باكراً جداً والنوم مبكراً؛ في ليلتهما الأولى بالذات معاً في سوويتو، لاحظ أحد الأصدقاء أن ويني تركت المنزل في الساعة العاشرة ليلاً، وعادت في ساعات الصباح الأولى. وما زالت ويني تفتح البيت أمام الشبان، الذين كانوا يهرعون بصورة مستمرة إلى الداخل والخارج. حاول مانديلا إبعادها عن ارتباطاتها مع المقاتلين الفدائيين والـ MK مدركاً أن معظم اتصالاتها كانت مشبوهة. لكنه لم يستطع السيطرة على نشاطاتها.[7]

لم يكن مانديلا على علاقات متوترة مع ويني فحسب. فوراء سهولة الوصول إليه، بنى حول شخصيته الخاصة جدراناً عالية عندما كان في السجن؛ وبدا وكأنه نوع من القضية المتطرفة لزعيم شعبي ترك حياته الخاصة وراءه: «لقد جمع بين الحماسة المتطرفة والحذر الذي لا يمكن اختراقه (كما وصف آرثر شليزينغر فرانكلين روزفلت).[8] وجد من الصعب الالتزام بالأصدقاء القدامى والأسرة في وقت كان فيه برنامجه المكثف يترك له القليل من الوقت للتأقلم والهدوء. قالت أمينة كشالية «لقد نسي كيفية التواصل، فقد تحدث إليّ في البداية وكأنه سجّان».[9]

أبناؤه وجدوه منعزلاً، وكانت ابنتاه الأصغر أقرب بكثير إلى أمهما. تذكرت ويني ما قالته لها زندزي بعد أسبوع من إطلاق سراح مانديلا: «مامي، تعلمين أننا كنا في حال أفضل عندما كان أبي في السجن، كان يمكننا الوصول إليه، والتحدث إليه كأب، والآن انتهى ذلك كله». وبعد ست سنوات كانت ويني ما تزال تتشكى؛ ما زال أولادي ينتظرون عودة أبيهم. إنه لم يعد أبداً،

حتى عاطفياً». لم يعد باستطاعته التواصل مع الأسرة كأسرة. «كان يتواصل مع الكفاح الذي كان حياته كلها».[10]

لم يصبح ولدا مانديلا الأكبران من زوجته الأولى إيڤلين، لم يصبحا أبداً قريبين من زوجة أبيهما. فابنه ماكغاثو، الذي هو في الناتال، ما زال يعاني صعوبة في الدراسة، في عقد الأربعين من عمره، وكان يرى والده في أحوال نادرة. وابنته الكبرى ماكي كانت تشعر بمرارة لأنه ليس لها والد، وأخبرت الواشنطن بوست في مقابلة قبل إطلاق سراح مانديلا مباشرة: أوحت أنه اختار عمداً أن يعتقل عام 1962[11]، ولم تشعر أن كوابحه قد تلاشت إلا بعد أن زارته في السجن في عيد ميلاده الواحد والسبعين، و«لأول مرة انفتح أمامي كأب». كانت ماكي تعيش في بوسطن عام 1990، وكانت متألمة بحق عندما زار مانديلا المدينة وطلب رؤية أحفاده، ولم يطلب رؤيتها؛ مع أنها تلقي اللوم في ذلك على ويني. وبعد عودة ماكي إلى جنوب إفريقية في تشرين الأول (أكتوبر) 1990، كانت ترى والدها بين حين وآخر، لكنها شعرت أنه لا يعرف كيف يتحدث إليها. قالت «كان الحال أفضل عن طريق الرسائل». مع أن رسائلهما كانت متكلفة أيضاً.[12] كان مانديلا يتذكر جيليان ابنة جوي سلوفو ـ التي عانت أيضاً من التزام والدها بالكفاح ـ وكيف أنه حاول عناق ماكي التي فرت بعيداً عنه. قالت لمانديلا: «أنت أب لشعبنا كله، لكن لم يتح لك الوقت أبداً لتكون أباً لي».[13]

بعد مضي بضعة شهور في المنزل الذي يشبه علبة الكبريت انتقل مانديلا وويني إلى المنزل الكبير في «بيفرلي هيلز» ـ وهو حي واسع جداً في سوويتو ـ الذي كانت ويني قد بنته خصيصاً لهم، حيث فيه سبع غرف نوم وغرفة اجتماعات ومائدة في غرفة الطعام تتسع لخمسة وعشرين شخصاً. قالت ويني: «هل ترون كم هو في مكانه الصحيح في هذا المنزل، وقد بنته له زوجته. بنته كله بنفسها».[14] لكن مانديلا كان يشعر دوماً بعدم الارتياح بخصوص ترف

المنزل، وبرهنت المحافظة عليه ـ بسرعة ـ أنها تشكل عبئاً مالياً ـ ولا سيما بعد تشرين الأول (أكتوبر) 1990 ـ عندما توقف أحد المانحين عن الدفع.[15]

عشية السنة الجديدة، نظمت ويني «ضربة السنة» في المنزل، بحضور خمسمئة من الضيوف كان من بينهم سيسولو وتوتو وسلوفو؛ إلا أن مانديلا ظهر وهو غير مرتاح، وألغى كلمة غير مناسبة للعيد، ناصحاً طلاب المدارس بوجوب العودة إلى المدرسة بعد العطلة. كانت ويني تحب أن تصور المنزل على أنه عش ـ حب أسري للأبناء ولستة عشر من الأحفاد ـ لكن القصص بدأت تظهر عن بيتها المتعثر فيما يخص العلاقة الزوجية بينها وبين مانديلا. كانت وسائل الإعلام قد بدأت بتصوير الزوجين الشهيرين بوصفهما ميلودراما وطنية. قالت فاطمة مير: تساءلت وسائل الإعلام «كيف يمكن لبطل يشبه القديس أن يعيش مع زوجة تشبه الساحرة؟» قال جون كارلن من صحيفة الأندبندنت اللندنية: «مانديلا كان معمياً بالحب مثل شمشون، وقد تم إغراؤه مثل ماكبث ليخون طبيعته الأفضل».[16]

واجه المؤتمر الوطني الإفريقي معضلة متعاظمة: كان الجميع مدركين لصورة ويني السياسية، ولا سيما بالنسبة إلى الشباب. أدرك مانديلا أنها تملك بريقاً شعبياً كان يفتقده. ورأى فيها تامبو صلة حاسمة مع الشباب والعاطلين عن العمل: أدرك أن البعض من أصدقاء ويني الناشطين كانت لهم ارتباطات مشبوهة؛ لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بحاجة إليهم لضمهم داخل خيمته. كما أن دعم ويني والمثيرين للحماسة كان مهماً للزعماء الطموحين بمن فيهم ثابو مبيكي. ورأت فاطمة مير أن زواج آل مانديلا كان مهدداً بسبب الصراع على السلطة في المؤتمر الوطني الإفريقي أكثر مما هو بسبب العلاقات الشخصية.[17]

كان للمشاركة السياسية حماستها الخاصة. قال أحد مساعديه: «إن تناول طعام الغداء مع آل مانديلا يجعلك تشعر أن هناك حلفاً حقيقياً بينهما. لقد بدا

وهو هائم بها ومسحور بهذا الهاجس».[18] لكن ويني رفضت التزام مانديلا التام بالحركة. وقد تشكت فيما بعد قائلة: «إن المؤتمر الوطني الإفريقي يشغله كلياً، إنه مُكيَّف مثل كلب بافلوف للاستجابة فقط لنداء المنظمة». كانت مصدومة منذ البداية لأن مانديلا كان يسمي دوكليرك «رجل التمامية»، وادعت أنها تجادلت معه حول ذلك في أول رحلة لهما إلى الخارج؛ كان دوكليرك «قاتلاً بنفس درجة بي. دبليو. بوثا»، وعندما طلب مانديلا من مؤيديه في دوربان أن يلقوا سلاحهم، انفجرت غضباً، وقالت متذكرة «إنني ألقي سلاحي، لا يمكنك أن تدعو المؤتمر الوطني الإفريقي لإلقاء رماحه في البحر في حين يقتله العدو، وفي حين يموت أبناء شعبنا بالمئات».[19] وفي حين أراد مانديلا وضع حد للكفاح المسلح، رغبت ويني في أن ترتدي نوعاً من لباس الـ MK. وتحدثت عن «شق طريقنا إلى الحرية». وهددت بالعودة بنفسها مجدداً إلى الغابات لتقاتل الرجل الأبيض. لكن مانديلا بقي استرضائياً بالنسبة إليها؛ شرح قائلاً إن الناس خارج الهيئة التنفيذية الوطنية لم يجدوا من السهل تفهم القرارات.[20]

«الفيل الأنثى» كما كانت تدعى ويني، كان يفلت زمامه أكثر فأكثر. فإن المؤتمر الوطني الإفريقي يأمل بكبحها بإحضارها إلى داخل المنظمة، وفي أيلول (سبتمبر) 1990 ـ سلمها المؤتمر ـ بلا حكمة ـ شؤون الخدمة الاجتماعية. لقد خيب ذلك الكثير من المانحين الكبار بمن فيهم الأسقف تريغور هادلستون، رئيس الحركة المناوئة للتمييز العنصري في لندن، والذي اعتقد أن ويني لا يمكن الاعتماد عليها في التعامل مع مبالغ كبيرة من المال. دافع مانديلا عنها قائلاً إن معارضي التعيين «يمكن عدّهم على أصابع اليد الواحدة».[21]

لكن كان لويني ضغائنها الخاصة ضد الكثيرين من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي، ولا سيما أولئك الذين نددوا بها علناً بعد مقتل ستومبي سيبي عام 1988. لقد هاجمت سيريل رامافوزا، وهزئت بميرفي موروبي بوصفه صديقاً للهنود: قالت لمانديلا «إما موروبي وإما أنا». رأت مؤامرة تحاول إذلال مانديلا

وتفكيك الزواج. شرحت فيما بعد: «لقد بذلوا ما في وسعهم لتدمير ذلك الارتباط مع الأسرة، لأنهم أرادوا مانديلا مثلما هو عليه اليوم، لقد كنت متطرفة، متطرفة جداً».[22]

كان من المفترض أن تمثل ويني للمحاكمة مطلع عام 1991، لقتل ستومبي وخمسة آخرين في كانون الأول (ديسمبر) 1988 (انظر الفصل 26). أثارت الاستعدادات تكهنات عميقة، بقصص عن اختفاء شهود أو مغادرتهم البلاد. وشعر بعض السياسيين والديبلوماسيين أن مقاضاة ويني من شأنها أن تدمر معنويات مانديلا، وأشيع أن دوكليرك كان يحاول الضغط على المدعي العام لإلغائها. لكن مانديلا رحب علناً بمحاكمة لتسوية هذا الأمر، واتهم الحكومة بالتملص منها عمداً، في حين حكمت عليها الصحافة بدلاً من ذلك.[23] عندما اتهمت في النهاية ـ بالخطف والاعتداء أكثر من القتل ـ ردت ويني على هذا رداً متوقعاً؛ بأن ذلك كان جزءاً من نموذج الشرطة في المضايقات، والذي «لم يكن أبداً مفاجئاً لأسرة مانديلا أو لي أو المسحوقين من جنوب إفريقية. أنا أعلم أنني كنت شخصياً مقياسهم الذي يستطيعون من خلاله قياس مدى غضب الشعب».[24] ندد ألفريد نزو أمين السر العام للمؤتمر الوطني الإفريقي بذلك بوصفها محاكمة سياسية خرقت روح الاتفاقات مع الحكومة.

كان مانديلا يريد أن تحصل ويني على أفضل دفاع ممكن. وطلب من جورج بيزوس أن يتولى ذلك، وتوقع أن تُدفع النفقات من قبل منظمة الدفاع والمساعدة الدولية، التي كان السويديون يمولونها إلى حد بعيد. لكن السويديين ورئيس المنظمة ثريفور هادلستون كانوا يشكّون في أن قضيتها كانت مؤهلة للنجاح. في تشرين الأول (أكتوبر) هتف مانديلا إلى مدير منظمة الدفاع والمساعدة الدولية هورست كلينشميت في لندن، وهو قلق قلقاً واضحاً لأن المبالغ تم رفضها. شعر كلينشميت ـ كما ذكر للمنظمة ـ بإحراج وانعدام لباقة يفوقان الوصف «وشرح أن المنظمة ربما يتم حلها قريباً على أية حال. في

النهاية تم إقناع السويديين بدفع جزء كبير من التكاليف الباهظة للمحاكمة، في حين تم دفع جزء من قبل الرئيس القذافي رئيس ليبيا. لكن النقاش ـ على حدٍّ قول دينيس هيربستين المؤرخ ـ في منظمة الدفاع والمساعدة الدولية «دق إسفيناً بين المؤتمر الوطني الإفريقي ومجلس المنظمة مما أفسد العلاقات مرة واحدة وإلى الأبد».[25] وتألم أعضاء منظمة الدفاع والمساعدة الدولية لأن مانديلا لم يشر إليهم في كتابه عن سيرة حياته.

عندما مثلت ويني أخيراً للمحاكمة في شباط (فبراير) 1991، قدم لها مانديلا أكبر دعم ممكن، رأى أنه من واجبه زوجاً، وحث أصدقاءه على حضورها؛ في يوم الافتتاح ضم الحضور جوي سلوفو، ألفريد نزو، كريس هاني، وفاطمة مير. ولم يرفض إلا القلائل؛ قالت أمينة كشاليا: «لقد تأثرت بإخلاصه لها، لكنها لم تكن تستحق ذلك».[26] ومن لندن أرسل آل تامبو رسالة تضامن، كتب أوليفر إلى ويني: «نحن نعلم أنك قلت الحقيقة سواء حكمت المحكمة لصالحنا أو ضدنا، ستبقين حائزة على ثقتنا وحبنا».[27]

كانت للمحاكمة التي استمرت أربعة أشهر الدراما الخاصة بها مع اختفاء الشهود وتغيير الشهادة. حاولت ويني أن تبعد نفسها عن نادي مانديلا الموحد لكرة القدم، وأن تشدد على أنها كانت غير موجودة في مكان وقوع الجريمة، أي إنها عادت إلى براندفورت ليلة ضرب ستومبي. شعر محامو الدفاع بالحيرة للارتباك الجلي للمدعين العامين. شهد مساعد المدعي العام ڤان ڤورين بعد سبع سنوات قائلاً: «أحدهم حاول تخريب القضية فشرطة الأمن لم تقدم لنا الدليل بالوضوح الذي كان يجب أن يكون متوافراً لتدمير قولها إنها لم تكن في مكان الجريمة».[28] بعد الجريمة مباشرة كان لدى الشرطة ما يكفي من الدليل لاعتقال ويني ـ كما أظهرت سجلات السجن. لكن هل كانوا يخفونه لحماية سيدة أولى محتملة، أم يحتفظون بالذخيرة من أجل قصف مستقبلي؟

أمضت ويني ذاتها خمسة أيام في مقصورة الشهادة ـ حيث حافظت على

تماسكها وعلى وجه فاقد التعبير ـ كما لاحظ القاضي، في حين أظهرت أنها «هادئة ورابطة الجأش ومتأنية وكاذبة لا تخجل». قبل القاضي بادعائها التواجد في مكان آخر عند وقوع الجريمة، في حين وجدها مذنبة بالتستر على الاعتداء. «مع غياب كامل للشفقة على الضحايا». حكم عليها بالسجن ست سنوات. بدت غير مرتبكة عندما غادرت المحكمة بقبضة مطبقة. بدا مانديلا مرتبكاً أكثر وهو يستمع إلى الحكم في المحكمة، إلا أنه لم يشك في الحكم؛ متى تم هناك استئناف، «فمن الملائم ترك القضية بين يدي المحكمة». استمرت ويني في الإصرار على أن القاضي «لم يكن يحاكمني كفرد. بل كان يحاكم المؤتمر الوطني الإفريقي؛ مجرِّماً هذا المؤتمر ومحاولاً إبعادي عنه».[29]

استأنفت ويني ضد الحكم، وفي حزيران (يونيو) 1993 قدمت محكمة الاستئناف حكمها: إنها تؤكد قناعتها بالنسبة إلى الخطف، لكنها قررت أن ويني لم تشارك في الاعتداءات. وبعد دراسة دقيقة ومتلهفة «خففت المحكمة الحكم إلى السجن عامين مع وقف التنفيذ، وغرامة بمقدار 15,000 رند (حوالى 3000 دولار). العقوبة كانت متساهلة تساهلاً ملفتاً للنظر. لكن الحكم (بما فيه قبول عدم وجود ويني في مكان الجريمة أثناء وقوعها) لن يتعزز بما وجدته لجنة الحقائق بعد خمس سنوات. إن قضية قتل ستومبي لن تذهب أدراج الرياح.[30]

كانت ويني تفقد بعض أتباعها السياسيين. وفي مؤتمر المؤتمر الوطني الإفريقي في دوربان بعد المحاكمة، انتخبت للهيئة التنفيذية الوطنية؛ وحاولت أن تصبح رئيسة عصبة النساء، على عكس نصيحة مانديلا، الذي اعتقد أنها ستفشل، وهذا ما حصل. في آب (أغسطس) أعاد المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيم قسم الخدمة الاجتماعية ليحد من سلطاتها. ومع ذلك بقيت ويني متحدية بعناد، منسجمة مع عشيقها المحامي الشاب، دالي مبوفو، وبصراحة أهانت مانديلا. وعندما خططت للذهاب إلى أمريكة فيما يفترض أنها رحلة رسمية طلب منها عدم الذهاب؛ إنها لم تكتف بعدم إطاعته. بل أخذت مبوفو معها؛

وعندما هتف لها مانديلا وهي في نيويورك كان مبوفو هو الذي رد.[31]

واجه مانديلا أزمة جديدة عندما تحولت ويني فجأة ضد كزوليسوا فالاتي ـ حليفتها القديمة ضد بول فيرين في قضية ستومبي ـ ورمتها خارج بيتها في سوويتو. توسلت فالاتي إلى مانديلا، الذي اعتقد أن ويني كانت غير منصفة لها؛ ووصل إلى البيت ليجد مراسلاً من صحيفة سوويتان، مع مصور يصوران فالاتي وهي تمنع من الدخول إلى المنزل. حاول مانديلا إقناع المراسل بالاستغناء عن القصة، ثم طلب من المحرر الليلي للسوويتان وهو مويغسين ويليامز (أصبح فيما بعد محرر كيب آرغوس) طلب منه رؤيته في المنزل الكبير. وصل ويليامز ليجد ويني تستضيف حفلة كبيرة احتفالاً بخطوبة ابنتها زندزي إلى زوليبانزي هلونغوين، وهو رجل أعمال من سوويتو، حيث كانت سدَّادات (الشمبانيا) تندفع إلى الأعلى، في حين جلس مانديلا بحزن في مكتبه، وهو مذهول. توسل إلى ويليامز أن يوقف القصة، التي اعتقد أنها ربما تدمر فرص ويني في الاستئناف. اضطرب ويليامز بعمق لكنه لم يستطع وقفها. وفي يوم الإثنين 30 آذار (مارس) 1992 نشرت السوويتان بتعابير فنية قصة تصرف ويني العنيف، مثيرة موجة جديدة من التكهنات حول زواج مانديلا.[32]

نالت فالاتي ثأرها من ويني بالتراجع عن دليلها المساعد في المحاكمة: ادعت الآن أن ويني لم تتواطأ فقط في تعذيب ستومبي، بل أمرت أيضاً بقتل أعداء آخرين. بمن فيهم أبو بكر أسفات، الطبيب الهندي في سوويتو الذي كان بإمكانه تكذيب دليلها بخصوص مقتل ستومبي. وقام سائق ويني الآن أيضاً ـ وهو جون مورغان ـ بمناقضة دليله بالذات بالادعاء أن ويني قد ترأست الهجوم على ستومبي.[33]

لم يعد بإمكان مانديلا الآن تجاهل إساءات ويني. ففي 13 نيسان (أبريل) دعا إلى مؤتمر صحفي، وكان صديقاه القديمان تامبو وسيسولو (اللذان لم يحاولا التأثير عليه) عن يمينه ويساره، وهناك أمام كاميرات التلفاز عبر عن

تقديره لشجاعة ويني ومساهمتها في الكفاح، لكنه أتبع ذلك بإعلان أنه بسبب خلافاتهما وتوتراتهما «وافقنا على أن الانفصال سيكون الأفضل بالنسبة لكل منا»، وأضاف: «إنني أبتعد عن زوجتي بلا أية اتهامات مضادة. إنني أعانقها بكل الحب والعاطفة اللذين غذيتهما لها داخل وخارج السجن منذ اللحظة الأولى التي التقيت بها». وقف ليغادر بنظرة أسى كلي: «سيداتي وسادتي، آمل أن تقدروا الألم الذي عانيته». كانت آخر مرة عبر فيها علناً عن مأساته الخاصة.

بدا لوقت ما وكأنه فقد ثقته. فقد وجده مراسل البي بي سي فيرجال كيهن، رجلاً متغيراً بعد ذلك بأسبوع، يتحدث بحزن حول اضطراره الاختيار بين الكفاح وزوجته.[34] بدأ حياة جديدة، وانتقل إلى منزل تم شراؤه له من قبل رئيس دولة إفريقية صديقة، حيث أعدته له بعناية مساعدته باربارة ماسيكيلا آملة في أن «يخفي ألمه».[35] كان بيتاً واسعاً في الضاحية لكنه باهت، ويقع في الضاحية البيضاء في هوتون، وله حديقة كبيرة وحراس في بيت عند البوابة، لكن كان يبدو وكأنه لم يسكن من قبل. بدا مانديلا منعزلاً، في حين كان أصدقاؤه المقربون «مغلقة أفواههم ومتوترين».[36] كان يبدو أحياناً أنه قادر على التحدث إلى حراسه فقط، أو الجيران البيض الذين كان يزورهم أحياناً زيارات غير متوقعة. قال أحد الأصدقاء «كان في بحر من العزلة». كان يشعر بالعزاء بوجود الأحفاد، الذين كان يستطيع أن يمرح معهم أو يسترخي. مع أن حبهم لم يكن نزيهاً دائماً: فقد شرح: «عند حلول عيد الميلاد تقريباً يتذكرون أن لهم جداً. فهم يركضون حولي ويخبرونني كم يحبونني... وأعلم ما هو السؤال التالي... ماذا ستعطينا[37]؟».

ما زالت ويني تأمل بالمصالحة، وتوسلت إلى فاطمة مير، التي بقيت صديقة للطرفين بأن تقنع مانديلا بتغيير رأيه. لكن ويني صارت الآن مخاصمة زوجها والمؤتمر الوطني الإفريقي الذي أصر على وجوب استقالتها من مركزها الرسمي، كانت هناك حماية زمنية أخذت تتلاشى وتؤدي في النهاية إلى وضع

حد بعلاقتها مع مانديلا. ففي أيار (مايو) بدأ المحققون في المؤتمر الوطني الإفريقي يتفحصون مبالغ مختلسة تخص عشيق ويني دالي مبوفو عندما كان نائبها في قسم الخدمات الاجتماعية. وقد وجدوا بالصدفة رسالة عاطفية من أربع صفحات كتبتها له ويني في آذار (مارس). وكانت غاضبة جداً من مبوفو لعلاقته مع امرأة أخرى: «إنك تركض وراء أتفه الأعذار العاطفية. وقبل أن أتركك سوف أعلمك القليل من الأمانة والإخلاص وستعرف ماذا تعني خيانة الثقة بالنسبة إلى المرأة!» منذ خمسة شهور لم تكن تتكلم مع «تاتا» (مانديلا)، وقالت في الرسالة «إن الوضع يتدهور في البيت». لكن ما كان مدمراً أكثر على الصعيد السياسي هو إشارتها إلى شيكات كانت قد صرفتها لمبوفو باسم قسم الخدمة الاجتماعية. وطلب مانديلا أن يتم التحقيق فيها.

كان ذلك هبة لأعدائها. فقد أرسلت نسخة من الرسالة إلى صحيفتي جوهانسبورغ صنداي وصنداي تايمز، اللتين أكدتا أن الخط خطها. حاولت ويني يائسة استرجاع الرسالة، مقابل وثيقة أخرى. لكن كان قد تم إطلاع مانديلا بالذات عليها، الذي أدرك أنها «متعارضة مع علاقة الزواج». وقد نشرت دون حذف شيء منها في الصنداي تايمز في 6 أيلول (سبتمبر) 1992، إلى جانب صورة ويني مع مبوفو. بعد ذلك بأربعة أيام استقالت من مناصبها في المؤتمر الوطني الإفريقي «من أجل زوجي العزيز وأسرتي المحبوبة»، في حين ألقت اللوم على «حملة مشؤومة وشيطانية ضدي».[38]

بدا أن مانديلا قد وجد القشة الأخيرة في الرسالة، خيانة وإهانة لا يمكن له تجاهلهما؛ شعر بعض الأصدقاء المقربين بالقلق من أنه ربما ينهار. بدا وهو كئيب وهامد جسدياً، رافضاً النهوض من الفراش. مرت عدة أيام قبل أن يستعيد توازنه بمساعدة برنامج مكثف لم يكد يترك له وقتاً للبقاء وحده. لقد أبقى على شيء من مظاهر الحياة الأسرية الطبيعية. في تشرين الأول (أكتوبر) 1992، بعد شهر من نشر الرسالة، نظمت ويني حفل زفاف لزندزي وعريسها

هلونغوين، بحضور 850 من الضيوف في قاعة فندق كارلتون في جوهانسبورغ. ظهر مانديلا من غير أن يقول كلمة لويني. وعندما جلس مقطباً إلى طاولته أرسلت إليه هيلين سوزمان ملاحظة عبر الغرفة مخبرة إياه بأنه كان يبدو مثل جون فورستر، رئيس الوزراء السابق، ويجب أن يبتسم. وهذا ما فعله سريعاً.[39] في نهاية الحفلة ألقى كلمة معبرة. وصف كيف أن خيطاً واحداً مر عبر سني حياة كل المقاتلين من أجل الحرية: «لقد تزعزعت حياتهم الخاصة مع أسرهم زعزعةً كاملةً».

> راقبنا أطفالنا وهم يكبرون بلا توجيهنا، وعندما خرجنا، قال أبنائي مثلاً: «اعتقدنا أن لدينا أباً وأنه سيعود في يوم من الأيام، لكن ما أثار خيبتنا أن أبانا قد عاد، وهو يتركنا وحدنا كل يوم تقريباً لأنه أصبح الآن أباً للشعب!
>
> يتساءل المرء من جديد ما إذا كان الأمر يستحق ذلك. لكن عندما تأتي تلك الشكوك فأنت تقرر مع ذلك وللمرة Umpleenth أنه على الرغم من كل المشكلات فإنه كان ـ وما يزال ـ القرار الصحيح الذي يجب أن نلزم أنفسنا به.[40]

32

التفاوض

للتاريخ الكثير من الطرق الماكرة، والدهاليز المخترعة
ت. إس. إليوت، «جيرونش»، 1920

شهد مانديلا بعد حوالى عامين من إطلاق سراحه، افتتاح المفاوضات التي عمل من أجلها. ففي 21 كانون الأول (ديسمبر) 1991، وسط عطلة عيد الميلاد منتصف الصيف، انعقد المؤتمر من أجل جنوب إفريقية ديموقراطية في مركز التجارة العالمي، وهو مبنى مستقبلي مثل مستودع قرب مطار جوهانسبورغ. قالت هيلين سوزمان: «من المدهش أن الأشخاص الذين كانوا في السجن منذ فترة قصيرة يتفاوضون مع الذين وضعوهم هناك؛ لكنهم سيقررون حول جنوب إفريقية جديدة.[1] كان العديد من مندوبي المؤتمر الوطني الإفريقي ما زالوا مدهوشين لجلوسهم ضمن شروط متساوية مع الذين اضطهدوهم». «لقد شاهدت اثني عشر من رجال الشرطة الذين كانوا يحرسونني في السجن». هذا ما قاله ميرفي ميروبي الذي سيدير المؤتمر فيما بعد. «الآن يرونني وأنا أتحدث بود مع وزير الدفاع وقائد الشرطة».[2]

تجمع مئتان وثمانية وعشرون مندوباً من تسعة عشر حزباً سياسياً؛ كان التجمع الأكثر أهمية ـ كما قال مانديلا ـ منذ مؤتمر عام 1909، الذي أوجد اتحاد جنوب إفريقية؛ لكن المندوبين كانوا كلهم من البيض آنذاك، في حين أن معظمهم الآن من السود. كان هناك غائبون خطيرون بمن فيهم الأحزاب

الأفريقانية اليمينية والرئيس باثيليزي الذي طالب بدون حق بثلاثة وفود منفصلة للزولو. لكن المفتاح الأول للسلام كان التوصل إلى نوع ما من التفاهم بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة.

كان هناك تناقض يدعو إلى القلق بين المناخ السلمي الممل في كثير من الأحيان داخل مركز المؤتمر، والمذابح التي كانت تحتدم في أنحاء جنوب إفريقية في الخارج. لكنه لم يكن تناقضاً؛ لأن الكثير من العنف كان في النتيجة إظهاراً للقوة الذي كان جزءاً من عملية المساومة. وكما كتب عالم السياسة ستيفن إليس فيما بعد: إن جنوب إفريقية ليست البلد الوحيد في العالم الذي تترافق فيه أعمال النضال الثوري في مراحل مختلفة مع المفاوضات المكثفة.[3] أراد المتطرفون أن لا تكون هناك تسوية في غيابهم؛ في حين احتاج المؤتمر الوطني الإفريقي إلى سلاح العمل الجماهيري كمقابل للقوة العسكرية الساحقة للحكومة. تم نصح دوكليرك من قبل فيليب غونزاليس، رئيس الوزراء الإسباني، بأن يتوقع أن مناوئيه سيلجأون إلى العمل الجماهيري والاحتجاج، وأنهم سيقولون شيئاً حول فائدة المؤتمر، وآخر مختلفاً تماماً أمام الناس في اليوم التالي، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع حركات المقاومة من خلالها تمهيد ميدان اللعب ضد سلطة الدولة.[4]

لكن مانديلا ودوكليرك قبلا المنطق الأساسي وراء أية محادثات سلام؛ أي إنهما لا يستطيعان أن يكسبا بقوة السلاح بلا خسائر لا تحتمل في الأرواح. ما زال مانديلا مقتنعاً ـ كما كان في السجن ـ بأن «نصراً عسكرياً كان حلماً بعيداً إن لم يكن مستحيلاً». حذر الناشطين من المؤتمر الوطني الإفريقي من أنه ليس باستطاعتهم انتظار سقوط الحكومة، ومن أن المفاوضات تتطلب تنازلات رئيسية.[5] وأخبر دوكليرك الديبلوماسيين أنه يعتقد أن باستطاعته الاحتفاظ بالسلطة لعشر سنوات إذا دعت الضرورة، لكن الإصابات ستكون كبيرة جداً.[6] لقد نظر كلاهما إلى داخل الهاوية، وواجه مانديلا أكبر مهمة مطلوبة

بالنسبة لمركزه ـ أي التفاوض حول ثورة سلمية بلا رد فعل عنيف من اليمين الأبيض أو اليسار الأسود.

تم النظر بحق إلى المفاوضات بوصفها صراعاً (دراماتيكياً) بين مانديلا ودوكليرك، وكلاهما سيدان في مجال السياسة ضمن تكهنات منعزلة، وتبين أن كلاهما يتحملان أزمات زوجية: ففي حين انفصل مانديلا عن ويني، كان دوكليرك يقع في حب زوجة صديقه اليوناني طوني جورجيا دس.[7] لقد انحدر مانديلا ودوكليرك من أصول متعارضة كلياً، السجين السابق مقابل السجّان السابق، وشكوكهما المتبادلة أعطت نكهة خاصة للمناقشات. لكنهما كانا يتناقشان لمعظم الوقت مع أحزابهما الخاصة أكثر من نقاشهما أحدهما مع الآخر. تعين على دوكليرك أن يحول المتطرفين والجنرالات لديه عن المواجهة التي كانت هدفهم الرئيسي لأربعين عاماً؛ في حين توجب على مانديلا أن يكبح الرفاق الذين كانت الثورة المسلحة بالنسبة إليهم هي طموح حياتهم.

كانت تلك من بين أكثر المفاوضات إثارة في التاريخ، وراقبتها الحكومات الغربية بافتتان.. ففي حين استمر القتال في شمال إيرلندة، ويوغوسلافية، والشرق الأوسط، تم النظر إلى جنوب إفريقية «كعاصمة التفاوض في العالم»، واجتمع الأكاديميون والصحفيون والديبلوماسيون لمراقبتها. لكن في النهاية، فإن الجنوب إفريقيين على العكس من الناميبيين والزيمبابويين لم يحتاجوا إلى دول أخرى لتصنع لهم سلامهم، وهم دوماً فخورون أن لديهم ليعلّموا العالم أكثر مما لدى العالم ليعلّمهم.

افتتح الزعيمان المؤتمر بكلمات متلفزة أعدت بعناية. أكد دوكليرك الحاجة إلى حكومة انتقالية ذات ديموقراطية «مشاركة في السلطة». وقدم مانديلا نظرة مستقبلية تدعو إلى الأمل مع أقسام من الأفريقانيين والزولو الذين يتطلعون إلى عام 1992 ليحقق أول انتخابات ديموقراطية بشروط طبيعية.

إن عملية التحرك نحو الديموقراطية لا يمكن وقفها، التاريخ يمنحنا جميعاً

فرصة فريدة. وإن مبادلة تلك الفرصة مقابل وعاء من حساء العدس من الماضي والتبجح السلبي بالشجاعة، إنما هو نكران للمستقبل.

معظم الأطراف وافقت آنذاك على إعلان النوايا، «أي تحقيق جنوب إفريقية غير مقسمة، بشعب واحد يشترك في مواطنية ووطنية وإخلاص واحد». وافق الفريقان الرئيسيان على قبول القرار «بإجماع كاف» ـ وهذه فقرة غامضة متعمدة. وقد فسرها مانديلا كاتفاق بين المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة، ومعظم الأطراف الأخرى، لكن المفاوض الرئيسي من المؤتمر الوطني الإفريقي ـ سيريل رامافوزا ـ فسر ذلك تفسيراً أكثر فظاظة: «ذلك يعني أنه إذا وافقنا نحن والحزب الوطني، فإن الآخرين كلهم سيشعرون أنهم مجمّدون».[8]

اختير رامافوزا ـ أمين السر العام الجديد ـ ليترأس فريق المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد حقق انطباعاً سريعاً لدى الأفريقانيين، الذين كانوا غير مستعدين لمثل هذا الذكاء من رجل أسود. كانت عيناه تمعنان ببرود، كما رآهما دوكليرك، وتبدوان «أنهما تبحثان باستمرار عن أضعف نقطة من دفاعات مناوئية».[9] كان مدعوماً بفريق قوي بمن فيه جوي سلوفو، وماك ماهاراج، وڤالي موزا، الذين عملوا سريعاً وبكثافة في مكاتبهم التي تقع إلى جوار فريق الحكومة، في حين كان تامبو مبيكي متواجداً في أحيان كثيرة. لكنهم أوضحوا أن مانديلا ذاته، «كان دوماً على بعد مكالمة هاتفية». استمروا في التفكير. «ماذا سيقول الرجل المسن؟»، وقد ذهبوا إلى بيته في وقت الأزمات ليجدوا الجواب.[10]

انتهى اليوم الأول لمؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية نهاية مشؤومة، بحدوث انفجار بين الزعيمين. ادعى دوكليرك أنه أَمَرَّ رسالة إلى مانديلا قبلاً محذراً إياه من أنه سيكون ناقداً حاداً للمؤتمر الوطني الإفريقي لمحافظته على جيش الـ MK الخاص به. لكن مانديلا أصر على أن دوكليرك «لم يشر أبداً ولو مجرد إشارة» إلى أنه سيقوم بمثل هذا الهجوم.[11] مما لا شك فيه أن المؤتمر

الوطني الإفريقي أخذ على حين غرة بكلمة دوكليرك الختامية، والتي ألقت اللوم عليه للاحتفاظ سراً بمخابىء الأسلحة، ولخرق الاتفاق الذي تم التوصل إليه قبل ثلاثة أشهر. غضب مانديلا لأن دوكليرك استغل فرصته لكونه المتحدث الأخير ليؤنبه «مثل معلم المدرسة الذي يعاقب طفلاً غير مطيع». إضافة إلى أنه توصل إلى تفاهم سري مع دوكليرك في شباط (فبراير) 1991 ـ انتقد من قبل معظم الزملاء ـ بالسماح للـ MK بالبقاء دون المساس بهم إلى فترة الانتقال.[12] بعد انتهاء دوكليرك سار مانديلا ـ بتوتر وغضب مكبوت ـ إلى المنصة، أمام مشهد كامل لكاميرات التلفاز، ليسحقه بلغة الشخص الثالث ـ حتى إنه لم ينظر إليه ـ بمقطع ممتاز من الذم والقدح:

> حتى رئيس نظام أقلية غير شرعي وفاقد للمصداقية كنظامه، لديه أخلاقيات معينة ليتمسك بها... إذا استطاع رجل من طبيعته الحضور إلى مؤتمر ولعب نوع السياسات كما في ورقته ـ فالقلائل جداً من الناس يرغبون في التعامل مع رجل كهذا.

أصر مانديلا على أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيسلم أسلحته فقط إذا أصبح جزءاً من الحكومة التي تجمع تلك الأسلحة، واتهم دوكليرك مجدداً بالتمويل السري للمنظمات العنيفة بما فيها الإنكاثا: إذا كان رجل في موقع دوكليرك لا يعرف عن ذلك ـ كما قال ـ «إذاً فهو ليس مؤهلاً ليكون رئيس حكومة». لكن كان ما يزال مستعداً للعمل معه برغم كل أخطائه.

دُهش زملاء مانديلا في المؤتمر الوطني الإفريقي. قالت باربارة ماسيكيلا: «لقد كان يرتعش، يمكنك أن ترى كل تلك السنين في السجن وهي تبرز». «لم يهاجم رئيس دولة علناً بهذه الطريقة في أي وقت من الأوقات». قالت فرين جينوالا التي كانت تعمل في كتبه: «لكن مهما كان غضب مانديلا الشخصي ـ فإن انفجاره خدم هدفاً سياسياً حاسماً، إذ جعل من الواضح بقوة أن المؤتمر الوطني الإفريقي موجود هناك»، كما قال كاثرادا: «ليس كحزب مهزوم

بل كمشارك فخور». ورأى بعض الصحفيين أن عبير السلطة قد تحول فعلاً إلى المؤتمر الوطني الإفريقي.[13]

كان دوكليرك غاضباً بهدوء، يأخذ الملاحظات على عجل ويهمس. قال لي فيما بعد: «لقد اضطررت للسيطرة على نفسي، لكن لحسن الحظ أنني تلقيت النعمة للحفاظ على قبضة».[14] قدم جواباً قصيراً، شارحاً أنه ما لم يتم حل قضية الأسلحة، «فإننا سيكون لدينا حزب يحمل القلم بيد في حين يدعي الحق بحيازة السلاح باليد الأخرى».

في الصباح التالي كان الطرفان بحالة استرضاء حذرة؛ قال بيك بوثا: «إننا مثل حمار الوحش، لا يهم ما إذا وضعت الرصاصة في الخط الأبيض منه أو الأسود. إذا رميت الحيوان فإنه سيموت». صافح مانديلا يد دوكليرك ووعد بالعمل معه، مما أراح الأفريقانيين الآخرين. لكن دوكليرك اعتقد فيما بعد «أن هجوم مانديلا المشؤوم الذي لا مبرر له أوجد صدعاً بيننا لن يشفى كلياً أبداً».[15] انفض المؤتمر مع بعض التشاؤم، تاركاً خمس مجموعات متفاوضة لإنجاز اتفاقية مفصلة قبل الاجتماع الكامل التالي في أيار (مايو).

تلقى دوكليرك سريعاً هزيمة مذلة من الناخبين البيض. عندما انهزم حزبه الوطني في شباط (فبراير) 1992 في انتخابات فرعية في بوتشيفستروم، أحد معاقله، من قبل الحزب المحافظ، الذي عارض أية محادثات مع المؤتمر الوطني الإفريقي. ثم اتخذ قراراً جريئاً بعد ذلك: الإعلان عن استفتاء لجميع الناخبين البيض حول القضية البسيطة في التفاوض بشأن دستور جديد. رأى الكثيرون من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي في ذلك تحولاً ساخراً عن المحادثات الفعلية، فيما انغمست الحكومة بأسلوب حملة. ومع أن مانديلا لم يكن في مقدوره الموافقة على أي انتخاب أبيض بكليته، فإنه قدم دعماً سرياً إلى دوكليرك. في 17 آذار (مارس) أحرز دوكليرك انتصاراً ساحقاً ـ 68,7٪ من الأصوات، مع نتيجة بنسبة 86٪. أعلن: «أن الشعب ارتفع فوق مستواه». رأى

الليبراليون البيض أن تلك كانت لحظته الأفضل. لكن مانديلا عرف أنه ليس اقتراعاً لصالح حكم الأغلبية السوداء. وأنه يعزز مركز دوكليرك.[16] لم يصبح دوكليرك قوياً بهذه الدرجة فيما بعد أبداً، لكنه بدا أنه ما يزال يلعب ورقة الزمن.

بتاريخ 15 أيار (مايو) 1992 انعقد الاجتماع الثاني الكامل لمؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية في مركز التجارة العالمي. بدا دوكليرك وفريقه مبتهجين بعد الاستفتاء الأبيض، وكانوا يصرون على أغلبية أصوات بنسبة ثلاثة أرباع لإمْرار النقاط الرئيسية في الدستور. ارتاب مانديلا في أن دوكليرك كان ينسحب بكل بساطة من المحادثات، لإحباط حكم الأغلبية؛ تشكى من عدم حدوث أي تقدم خلال الشهور الخمسة الأخيرة. كان مدركاً للانتقاد من اليسار بأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يتنازل عن الكثير جداً مقابل القليل جداً. وكانت المجموعة العاملة بخصوص الدستور تصل الآن إلى مرحلة المأزق. كان دوكليرك ما يزال يتطلع إلى النماذج السويسرية أو الألمانية، مع صيغة «للمشاركة في السلطة». بما في ذلك جعل الرئاسة بالتناوب، وتعيين مجلس شيوخ من الممثلين الأقليميين لحماية الأقليات. كان ذلك يهدف إلى تجنب سيطرة أغلبية واضحة، أو «أن الفائز يحصل على كل شيء»؛ رأى مانديلا أن ذلك يؤبد الحكم الأبيض عن طريق تقسيم السود. وارتاب في أن دوكليرك كان يأمل بإبقاء الحزب الوطني في السلطة حتى بعد أن يكون قد خسر الانتخابات، وكان قد دعا ذلك بسياسة «الخاسر يأخذ كل شيء».[17]

في نهاية اليوم الأول لمؤتمر كوديسة الثاني التقى مانديلا ودوكليرك لتجنب الوقوع في طريق مسدود. قال مانديلا: «إن جنوب إفريقية والعالم بأكمله ينظران إليك وإليّ. دعنا نترك الباب مفتوحاً ونقول إننا أحرزنا تقدماً». وافق دوكليرك على أن المفاوضات يجب أن تبقى جارية، وأدلى كلاهما بتصريحات تدعو إلى الأمل؛ لكن دوكليرك كان مقتنعاً بأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان

يحاول وضع حد للمحادثات. انفض المؤتمر بمأزق. قال مانديلا في السويد بعد ذلك بخمس سنوات: «إن جوهر المشكلة لم يكن بخصوص النسبة أو علم الحساب. بل في أن الحزب الوطني يحاول التمسك بالسلطة بأي ثمن كان».[18] لكن دوكليرك أصر على أن الشيوعيين والناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي قد تسلموا مقاليد الأمور الآن، وأنهم سيرفضون التنازلات: «إنهم ما زالوا يفضلون الطرد الثوري للحكومة والاستيلاء على السلطة من قبل الشعب».[19] في الحقيقة كانت الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي منقسمة في اجتماعها التالي حول استمرار المفاوضات. واحتج آلبي ساكس بأنه لما كانت الحكومة غير جادة فإن على المؤتمر الوطني الإفريقي إيقاف المحادثات إلى أن توافق على الشروط الرئيسية. أقنع مانديلا ساكس أن لا يطرح ذلك للاقتراع.[20]

لكن بعد بضعة أيام، في 17 حزيران (يونيو)، غزت عصبة من مؤيدي الإنكاثا المسلحة بقوة منطقة ڤال في بويباتونغ وقتلت خمسة وأربعين شخصاً. وشارك في الهجوم رجال بيض بوجوه مصبوغة بالأسود، وتواطأت الشرطة بوضوح (كما أكدت لجنة الحقائق فيما بعد)[21] زار مانديلا المنطقة المهجورة وهو يكاد يتميز من الغيظ، مقتنعاً أن الحكومة قد تسترت على المذبحة، مقارناً التمييز العنصري بالنازية والإبادة الجماعية. لقد قوبل بشعارات تقول: «مانديلا، أعطنا بنادق».[22] قال أثناء تشييع الضحايا: «لم يعد بإمكاني أن أشرح لشعبي لماذا نستمر في التحادث مع نظام يقتل شعبنا». كتب إلى دوكليرك، واضعاً حداً للمفاوضات، ومكرراً المطالب الدستورية للمؤتمر الوطني الإفريقي ومصراً على أن المتهمين بالمذبحة يجب أن يحالوا إلى المحاكمة. طلب دوكليرك الاجتماع به، لكن مانديلا لم ير فائدة في ذلك، متهماً إياه «بأخطاء حقيقية وتشويهات، ودعاية حزبية سياسية صاخبة».[23] انكشف فقدان دوكليرك للسيطرة عندما زار بويباتونغ في مرسيدس مدرعة. لتتم تحيته بصرخات «اقتل البوير!». تعين عليه العودة. وتم إبلاغه أن أحد

الجنرالات الأفريقانيين في السيارة التالية قال: «الآن يمكنه أن يرى ما هي عليه جنوب إفريقية الجديدة الخاصة به». [24]

عادت المفاوضات كما يبدو إلى النقطة الأولى، في حين ظهرت البلاد كلها وهي على حافة الفوضى، مع استمرار للعنف والأزمة الاقتصادية. أصبح كل زعيم يتساءل الآن عن مدى سيطرة الآخر على حزبه بالذات. وتشكى دوكليرك من أن عليه التعامل مع مؤتمريْن وطنييْن إفريقييْن مختلفين. [25] اعتقد مانديلا أن الأفريقانيين اليمينيين كانوا يفرضون سياساتهم الخاصة ـ ولا سيما بعد بروز المزيد من الأدلة على القوة الثالثة. وعندما سأل دوكليرك لماذا لم يوقف عنف الزولو أجاب: «سيد مانديلا، عندما تشترك معي ستدرك لماذا ليست لدي السلطة التي تعتقد أنني أملكها». لكن مانديلا اعتقد أن دوكليرك قد انشل؛ كانت لديه القدرة على وضع حد للعنف». [26]

شعر مانديلا بالقلق، وقد أبلغ سكان بويباتونغ أن «المجموعة الدولية هادئة جداً بخصوص المذابح الجارية» وأنه يتطلع الآن إلى الخارج طلباً للدعم. طلب من الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس بطرس غالي دعوة جلسة خاصة لمجلس الأمن. وطار إلى السنيغال لحضور اجتماع منظمة الوحدة الإفريقية، التي وافقت على الطلب. ناقش مانديلا الوضع مع بطرس غالي، واقترح قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة. وفي لندن سعت الحركة المناوئة للتمييز العنصري برئاسة تريفور هادلستون سعت لدى الحكومة البريطانية لتضغط من أجل تدخل الأمم المتحدة.

في 15 و 16 تموز (يوليو) اجتمع مجلس الأمن في نيويورك لسماع ممثلين عن مختلف الأطراف في جنوب إفريقية، بمن فيهم بيك بوثا من الحكومة وباثيليزي من الإنكاثا. ألقى مانديلا كلمة عدوانية محذراً الأعضاء من الكلمات «التي لها صدى جميل» من الحكومة التي «أعلن مجلس الأمن أن دستورها باطل». وأصر مجدداً على أن «هذا العنف منظم ومنسق. وهو موجه بالتحديد إلى

الحركة الديموقراطية. . . وهي تشكل سياسة لا ترحم من إرهاب الدولة».[27]

أصدرت الأمم المتحدة قراراً يدعو لإحضار مرتكبي مذابح بويباتونغ إلى العدالة. وعينت ممثلاً خاصاً ـ كان مانديلا قد طلبه. أرسلت سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكية السابق الذي حث الأطراف كلها على استئناف محادثاتها. كان ذلك تذكيراً لـ دوكليرك بسمعة مانديلا الدولية، وحاجته بالذات للقبول الدولي؛ لكن الأمم المتحدة لم تلعب أبداً دوراً حاسماً في المفاوضات.

الأزمة منحت المزيد من الفسحة للناشطين أو «التمرديين»، ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي الذين كانوا يناقشون العودة إلى الكفاح المسلح. ومما يدعو إلى «السخرية أن الكثيرين من الشيوعيين أيدوا الآن «خيار لايبزيغ» الذي سمي كذلك على اسم المتمردين الألمان الذين قاموا بمظاهرات جماهيرية في شوارع لايبزيغ قبل ثلاث سنوات مما ساعد على الإطاحة بالدكتاتورية الشيوعية. لكن في حين ألقى دوكليرك اللوم على الشيوعيين، كان هناك الكثيرون من غير الشيوعيين في المؤتمر الوطني الإفريقي ممن كانوا ناشطين بنفس الدرجة. واجهت مانديلا عملية توازن حاسمة كما شرحت صديقته فاطمة مير: «لقد وازن بحذر بين المفاوضات والتعبئة الجماهيرية وهو عارف تماماً أن مسؤولية الاثنتين تقع على عاتقه»[28] حقق حلاً وسطاً: «برنامج لتجنيد «العمل الجماعي» لحث الحكومة على التراجع. شرع مانديلا بذلك بنفسه في 16 حزيران (يونيو) في ذكرى انتفاضة السويتو، مخاطباً مدرج سوويتو الممتلىء وهو يرتدي قبعة البيسبول. بلغ البرنامج ذروته في 3 آب (أغسطس) بإضراب عام ـ الأكبر في تاريخ البلاد ـ عندما أضرب ما يزيد على أربعة ملايين عامل، وهذا مناقض رائع لإضراب مانديلا الفاشل قبل ثلاثين عاماً والذي أدى فشله إلى تبني الكفاح المسلح. قاد في هذه المرة مسيرة ما بين 50,000 و100,000 شخص إلى مبنى الاتحاد في بريتوريا، حيث أبلغ الحشد الضخم أن المظاهرة يجب أن لا تتحول إلى عنف أو «تسمح لأي منا بأن يصبح مخدراً بالنجاح».

أراد الناشطون الآن توسيع الحملة إلى أرض الوطن، التي كانت تقنياً

خارج جنوب إفريقية، لتجميع مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي. سمحت الهيئة التنفيذية الوطنية بمسيرة إلى بيشو، عاصمة جمهورية سيسكي الفاسدة، في حين أرسل دوكليرك رسائل إلى مانديلا يناشده فيها ضبط النفس.[29] في 7 أيلول (سبتمبر) عبرت مسيرة الـ 70,000 من المؤتمر الإفريقي الحدود ودخلت إلى المدرج خارج بيشو. كان الحاكم المحلي قد أمرهم بعدم التقدم أكثر من ذلك، إلا أن المغامر روني كاسريلز قاد مجموعة عبر فجوة في السياج وتوجه نحو العاصمة. لم يكن قراراً حكيماً. (كما حكمت لجنة الحقائق فيما بعد) لأنه «ساعد الوضع المتفجر والذي لا يمكن التكهن به».[30] فتح جنود سيسكي النار بدون تحذير وقتلوا ثمانية وعشرين من الزاحفين، ثم قتل العديد منهم وهم يفرون هاربين.

بدا مانديلا غاضباً، من دوكليرك وناشطيه بالذات، لكنه دافع عن كاسريلز أمام النقاد، قال فيما بعد: «لقد كان ينفذ قرار المنظمة بالضبط».[31] أدرك مدى الإحباط: «إن شعبي بدأ يقول لي: ما قيمة ذلك؟ دعونا نتخلى عن المفاوضات؛ إنهم لن يكونوا قادرين أبداً على إيصالنا إلى هدفنا». إلا أنه اعتقد أن المواجهة في بيشو قد جلبت الطرفين بدرجة أقرب إلى الكارثة، ودمرت صورة المؤتمر الوطني الإفريقي لدى الأصدقاء في الوطن وخارجه. وألقي اللوم على كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والحكومة «لشروعهما في حملة انتخابية في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات».[32] أدت مذبحة بيشو إلى إعادة تقييم مؤلمة، كما فحص الشيوعي الإفريقي مجدداً فكرة لايبزيغ. سأل المحرر جيريمي كرونين: «ما هو مدى الواقعية في هذا الخيار؟ يجب أن نكون حذرين في عدم التقديس الأعمى للعصيان الجماهيري، أو النظر إليه كوسيلة ثورية وحيدة ممكنة».[33]

عززت المذبحة موقف مانديلا لاستئناف المفاوضات، ورأى دوكليرك في بيشو نقطة تحول، عززت موقف المعتدلين في المؤتمر الوطني الإفريقي. صارت هناك الآن حركة تدعو إلى الأمل نوعاً ما من وراء الستار. كان سيريل

رامافوزا يعمل عن كثب مع نظيره الأفريقاني رويلوف ماير، عبر «قناتهما الخلفية» للتوصل إلى اتفاقات في أربعين اجتماعاً بين حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر). كان لدى رامافوزا مبادئه الخاصة الحازمة عن المفاوضات ـ كما أبلغ الإيرلنديين الشماليين في بلفاست بعد ذلك بثلاث سنوات. يجب أن تحتفظوا بالتهديد بالكفاح المسلح، لا أن تستخدموه، في حين يجب أن تقيموا ثقة شخصية مع أعدائكم[34] ـ. ورامافوزا ـ مثل مانديلا ـ يمكنه أن يعتنق مع الأفريقانيين، مع ماضيهم بالذات بمعاناتهم في ظل مضطهديهم البريطانيين، في حين تفهم ماير مظالم السود أفضل بكثير من دوكليرك. إن الذكرى المشتركة في الاضطهاد ساعدت في تقريب الرجلين من بعضهما بعضاً بصورة أوثق.

كان موقف دوكليرك المساوم يضعف بعد (تكتيكاته) في التأجيل. وقد ارتكب نوع الأخطاء ذاتها مثل غورباتشيف في روسية أو إيان سميت في روديسية ـ مع أنه حُذر عام 1990 بالتحديد من قصر نظر سميث.[35] كانت وزارته قد ضعفت أصلاً. وأُجبر اليمينيان ماغنوس مالان وأدريان ڤلوك على الاستقالة. وتراجع المفاوض الرئيسي الأصلي جيريت ڤيلجيون. وغادر وزير الإعلام ستوفل ڤان ديرميروي الموالي لـ دوكليرك. كما أن وزيره للمال بارنيد دو بليسيز كان قد استقال بعد فضيحة مالية. أما ب. دبليو بوثا، الرئيس السابق، الذي كان ما يزال لديه بعض الحلفاء، فقد راقب من التقاعد بازدراء، مخبراً دوكليرك: «أنت تركت جنوب إفريقية تترنح».[36] كان العديد من زملاء دوكليرك قد تحرروا من الوهم بخصوصه. تذكر بارند دو بليسيز: «كانت لديه ثقة كاملة في قدرته على السيطرة على الوضع، لكن لم تكن لديه استراتيجية حقيقية». «لقد أخطأ قراءة وضع مانديلا كاملاً». هذا ما قاله ليون ويسيلز نائب وزير الخارجية الشاب. «اعتقد أنه كان بإمكانه الاحتفاظ بسلطته والمشاركة بقوته. عندما فشل ذلك، لم يكن لديه موقع يتقهقر إليه. إنه لم يفهم فن السياسة عند السود».[37]

وبالمقارنة، فإن هدف مانديلا كان واضحاً كل الوضوح وثابتاً تماماً، في حين كان فريقه متحداً بعضه مع بعض. لقد شرح في تموز (يوليو) 1992: «إنني سياسي، والسياسة هي الحكومة».[38]

أراد شخصاً واحداً، واقتراعاً واحداً في نظام وحدوي، وبقي بعيداً عن المفاوضات التفصيلية. تاركاً إياها للخبراء؛ لكن متى طلبوا استشارته، فإنهم يجدونه برجاً من القوة. قال رامافوزا بعد ذلك: «لقد كرس ذهنه للقيام بشيء، وأصبح لا يتزعزع، لم يكن بمقدورنا أبداً التفاوض حول انتهاء التمييز العنصري بلا مانديلا»[39] وتعلم ماك ماهاراج المفاوض الرئيسي تعلم عن ظهر قلب الجُمل الحاسمة في رسالة مانديلا الأصلية إلى ب. دبليو بوثا عام 1989. التي أصر فيها على مبدأ حكم الأغلبية، في حين كان يهدىء من مخاوف الأقلية البيضاء. تذكر ماهاراج: «إن خطوطه المتعرجة كانت تؤدي دوماً إلى الهدف ذاته. عندما ذهبت لرؤيته سأل: إلى أين يأخذنا ذلك باتجاه حكم الأغلبية؟ كم من الوقت سيستغرق ذلك؟» «لقد كان يوصلني من خلال المحادثات بأكملها إلى Nats لم يكن لديهم بوصلة؛ وفي النهاية أصبحوا منشغلين بمصالحهم الأنانية».[40]

تم الضغط الآن على الطرفين لاستئناف المحادثات. بحلول أيلول (سبتمبر) 1992 كانت جنوب إفريقية مرهقة بالعنف المستمر. والأزمة الاقتصادية المتعاظمة. ووراء الستار كان الخبراء الدستوريون واللجان يحاولون حل التوترات بين الأنظمة المركزية والفدرالية، تحت إشراف حركة العمل الدستوري، التي تشاورت مع الأحزاب السياسية وزعماء الأعمال. تم إقناع مانديلا بأن الأزمة ربما تدمر الاقتصاد، مما يجعل من الصعب على أية حكومة مستقبلية أن تنجح. لكن دوكليرك كان يتعرض لضغط أكبر، اعتقد مانديلا أن «دوكليرك احتاج إلينا أكثر مما احتجنا إليه، كان بحاجة ماسة إلى تلك القمة».[41] كانت استراتيجية دوكليرك السابقة قد اعتمدت على حلف مع

باثيليزي، لكن زعيم الزولو كان يبرهن على أنه من المستحيل التعامل معه؛ في حين أن الاكتشافات بخصوص قوة ثالثة قد حطت من شأن العلاقة. بدأ رويلوف ماير بإحراز بعض النجاح في إقناع دوكليرك أن الأفريقانيين بإمكانهم العيش مع حكم الأغلبية، شريطة أن يشاركوا ببعض السلطة.[42] وأدرك دوكليرك أنه اعتمد على المؤتمر الوطني الإفريقي من أجل السلام.

بقي مانديلا مفتاح أي حل، فكما قال أحد مندوبي المؤتمر الوطني الإفريقي: «البحث عن العودة مجدداً إلى المسار، كان يؤدي إلى ماديبا». ادعى دوكليرك أنه دعا مانديلا للاجتماع معه. لكن مانديلا قال إنه قام بالمبادرة بالتكلم هاتفياً مع دوكليرك. كان دور مانديلا بأن يصبح متفضلاً. «لقد بدا متنازلاً قليلاً» كما شرح بعد يومين في مقابلة «غصن الزيتون» مع صحيفة «ستار» وهذا ما نظر إليه بعضهم كنقطة تحول. «إنه رجل شجاع جداً، كما تعلم، لامع جداً وواثق، وهذا ما يدعو إلى القلق». أصر دوكليرك على أن مانديلا كان يهبط، لذلك «أستطيع تحمل أن أكون رحب الصدر».[43]

في 26 أيلول (سبتمبر) عقد مانديلا ودوكليرك قمتهما في مركز التجارة العالمي، مما أدى إلى صراع (دراماتيكي) آخر. اعتقد مانديلا أن دوكليرك لا يمكنه تحمل انهيار المفاوضات من جديد. بقي مصراً على ثلاثة شروط مسبقة لاستئناف المحادثات، كان أكثرها إثارة للنزاع إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين. رفض دوكليرك إطلاق سراح بعضهم بمن فيهم روبيرت ماكبرايد المخرب الخارج عن جماعته الذي كان باقياً في زنزانة موت لقصفه بارماغو في دوربان في حزيران (يونيو) 1986 مما أدى إلى مقتل ثلاث نساء من البيض. كان المفاوضون من المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم رامافوزا وماهاراج كانوا على استعداد للتنازل عن هذه النقطة. لكن مانديلا شعر بإخلاص خاص لماكبرايد، الذي كان قد زاره في السجن في أيار (مايو) 1990 ليطمئنه أنه يطالب بإطلاق سراح السجناء. كان مانديلا قد تزود بمعلومات سرية تفيد أن الحكومة

منقسمة على نفسها حول هذه القضية، وأبلغ دوكليرك أنه لن يكون هناك اجتماع ما لم يطلق سراح ماكيرايد. حذّر ماهاراج من أن ذلك ربما يعرض المفاوضات للخطر، إلا أن مانديلا ضحك بينه وبين نفسه، كما يتذكر ماهاراج، وأبلغ زملاءه بوجوب عدم فقدان أعصابهم. كان رافضاً لـ دوكليرك: «هذا الرجل، لديّ ما يكفي منه، إننا نمسك بالخط الفاصل هنا اليوم».[44] أراد دوكليرك أن يرفض مانديلا رفضاً قاطعاً، وقد استاء من «تكتيكاته المتنمرة والصاخبة». لكنه أدرك أن زملاءه الآن يفضلون تسوية بعيدة المدى، ووافق على شروط مانديلا.[45] تأثر فريق المؤتمر الوطني الإفريقي إلى حد بعيد، تذكر رامافوزا: «لدى مانديلا أعصاب من فولاذ، كان بإمكانه أن يصبح متوحشاً بطريقة هادئة ومتماسكة».[46]

كان من المتوقع للشرطين المسبقين الباقيين للمؤتمر الوطني الإفريقي - إزالة السياج عن نُزُل الزولو ومنع الأسلحة التقليدية للزولو، كان من المتوقع لهما أن يثيرا عداء باثيليزي. لكن دوكليرك تم الضغط عليه لوضع حد لعنف الزولو من قبل آخرين بمن فيهم سايروس فانس والقاضي غولدستون، وشعر أنه مجبر على الموافقة. انتهى لقاء القمة بتوقيع مانديلا ودوكليرك محضر تفاهم تم فيه قبول الشروط المسبقة الثلاثة؛ لكن الأهم أنه وافق على مجلس دستوري وحكومة انتقالية لوحدة وطنية. رأى دوكليرك في ذلك انتصاراً على الناشطين من المؤتمر الوطني الإفريقي، في حين رأى فريق المؤتمر الوطني الإفريقي فيه خطأً فاصلاً باتجاه الديموقراطية. قال ماهاراج: «إنه مهد الطريق لرجل واحد واقتراع واحد، وأعطى مانديلا الهيمنة».[47] كان مانديلا ذاته مبتهجاً: «هذا ما يريده شعبنا، وهذا ما يحتاجه اقتصادنا، وهذا ما تتوق إليه بلادنا».[48]

لكن باثيليزي كان يتفجر غضباً، نظراً لأنه رأى نفسه وقد استبعد من الصفقة، وأعلن أنه سينسحب من المحادثات. قاد مسيرة احتجاج عبر مركز جوهانسبورغ، وفي الشهر التالي دخل في ائتلاف غريب مع الأحزاب الأفريقانية

اليمينية واثنين من زعماء الوطن، سمي مجموعة الجنوب إفريقيين القلقين، وتعهد بإلغاء مؤتمر جنوب إفريقية ديموقراطية. أثمر محضر التفاهم، حقيقة، في إعادة تخطيط أساسي. إذ لم يضع حداً لتحالف دوكليرك السياسي مع بائيليزي فحسب، بل خفف أيضاً وبسرعة من العنف السياسي خارج كوازولو ـ ناتال، بما في ذلك الهجمات على القطارات، وفرق القتل والمذابح. هذا وستكتشف لجنة الحقائق فيما بعد دليلاً عرضياً على أن «توقيع محضر التفاهم أدى إلى انخفاض في معدل الهجمات العشوائية والمجهولة المرتبطة بعنف «القوة الثالثة».[49] هذا أوحى بوضوح أنه كان بمقدور دوكليرك وضع حد للعنف عند رغبته بذلك.

من جانبه قام المؤتمر الوطني الإفريقي بتنازل تاريخي ـ كما ميز دوكليرك: لقد وافقوا على «Sunset chauses» تضمن وظائف الموظفين المدنيين البيض، وتسمح بتأليف حكومة ائتلاف بين الوطني الأفريقاني ووزراء المؤتمر الوطني الإفريقي. الفكرة لم تكن جديدة؛ فقد سربها ثابو مبيكي بهدوء داخل المناقشات قبل بعض الوقت.[50] لكن تم طرحها مجدداً طرحاً مفاجئاً من قبل الشيوعي جوي سلوفو في «الشيوعي الإفريقي» لشهر آب (أغسطس). جادل سلوفو جدلاً مقنعاً «إننا لا نتعامل مع عدو مهزوم». وإن الجنود والموظفين المدنيين البيض ما زال بمقدورهم زعزعة حكومة ديموقراطية ـ لذلك يتعين على المؤتمر الوطني الإفريقي أن يجلبهم إلى جانبه عن طريق عرض الضمانات والمشاركة في السلطة، وكما قال دوكليرك: «فإنها أكثر إقناعاً لأنها تأتي من شيوعي ذي أوراق ثورية لا خطأ فيها».[51] كان يبدو من غير العادي لليسار أن يقترح الجلوس في الوزارة ذاتها عدوًّاً. وبدا ذلك خيانة بالنسبة إلى الكثير من الرفاق الشيوعيين؛ وقيل: «إن الشيء الوحيد الأحمر في سلوفو هو جوربه». اتهم الماركسي بالو جوردان سلوفو «بأنه جاهل بتاريخ القرن العشرين جهلاً ساحراً» وخشي روني كاسريلز وله بعض الحق من أن هذه السياسة

ستسمح للجنرالات الأفريقانيين بترسيخ أنفسهم.[52] كان مانديلا يشك بالخطة في البداية. إلا أنه اقتنع بها. وأصبح قلقاً أكثر بخصوص «الحركة الأولية المضادة أصلاً للثورة». ورأى في الائتلاف وسيلة لإبقاء البلاد متماسكة، ولتجنب التحديات المميتة مثل تحديات سافيمبي في أنغولا.[53]

في تشرين الثاني (نوفمبر) ناقشت الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي Sunset chauses لمدة يومين، وتحدث اثنان وستون من الأعضاء الثمانين، مع شعور كبير بخصوص الجذور لكن مانديلا ناقش بقوة أن جميع الأحزاب الديموقراطية يجب أن يكون لها دورها في الحكومة، وأن الائتلاف من شأنه نزع فتيل التهديد بحرب أهلية.[54] في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) صادق المؤتمر الوطني الإفريقي على مقترحات سلوفو. كان هناك ناقدون عنيفون. قالت ويني مانديلا: «إن النخبة في الحزب الوطني تذهب إلى الفراش مع المؤتمر الوطني الإفريقي من أجل الحفاظ على ملاءاتها الحريرية». ولم يقبل هاري غوالا «التحول المتطرف عما عرفنا دوماً أن المؤتمر الوطني الإفريقي يناضل من أجله».[55] من المؤكد أن القيود والتسويات لل Sunset Chauses ستبرهن على أنها مكلفة أكثر بكثير مما أدركه المؤيدون لها لأن البيروقراطيين الأفريقانيين، وضباط الجيش وسخوا أنفسهم. إلا أن التنازل الهائل أدار المفتاح باتجاه تسوية ديموقراطية.

بحلول كانون الأول (ديسمبر) 1992 كان المؤتمر الوطني الإفريقي يتناقش مع الحكومة في مناخ أكثر مدعاة للأمل، بلغ الذروة في خمسة أيام من مؤتمرات ـ غابات ـ حيث عمل الزعماء السود والبيض واسترضوا معاً. كان دوكليرك يمنح الفرصة لفكرة حكم الأغلبية بكل بساطة، التي حاول مانديلا تلطيفها بوعده دوكليرك بدور مستمر في الحكومة. شرح مانديلا في أسلوبه الأكثر استرضائية «ستلاحظ أن هناك اتزاناً ورصانة من جانب السياسيين، جميعنا ارتكبنا أخطاء في الماضي».[56] بحلول شباط (فبراير) 1993 كان الطرفان قد وافقا من حيث المبدأ

على أن يتبع الانتخابات حكومة وحدة وطنية لخمس سنوات، يضم أعضاؤها جميع الأحزاب التي تقترع بنسبة أكثر من 5٪ من الاقتراع الكلي. وفي آذار (مارس) عقد مجلس مفاوضات مع أربعة وعشرين حزباً آخر لإعداد التفصيلات.

في 23 آذار (مارس) قام دوكليرك بإعلان (دراماتيكي)، بدا بالنسبة للكثيرين من المؤتمر الوطني الإفريقي موحياً بالتخلي عن سيطرة البيض. أبلغ البرلمان أنه خلال السنوات التسع الماضية طورت الحكومة سراً سبع قنابل نووية، مماثلة لقنبلة هيروشيما، لضمان ردع موثوق؛ لكن هذه القنابل تم تفكيكها وتدميرها الآن تدميراً فعالاً. قال دوكليرك: إن جنوب إفريقية كانت البلد الأول الذي يرفض ويتخلى عن أسلحته النووية.[57] لكن السبب القاطع لذلك بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كان واضحاً؛ منع هذه القنابل من الوصول إلى أيدي السود.

في 20 نيسان (أبريل) أصبحت عملية التفاوض كلها مهددة. إن كريس هاني أمين السر العام للحزب الشيوعي والقائد السابق لـ MK الذي نُظر إليه عموماً بوصفه الزعيم الشعبي الأسود الثاني، قُتل في بوكسبورغ، قرب جوهانسبورغ. وبمصادفة مدهشة لاحظت امرأة أفريقانية رقم سيارة القاتل. وأبلغت ذلك إلى الشرطة فوراً. وبعد خمس عشرة دقيقة أوقفت الشرطة السيارة، التي كان يقودها مهاجر بولندي وكانت ما تزال لديه البندقية التي يخرج منها الدخان. بدت الجريمة كأنها تهدف إلى إثارة اضطرابات عرقية وإعاقة أية محادثات. أصدر دوكليرك ـ وهو في عطلة في صحراء كارو ـ أصدر بيان تعزية، لكنه عرف أن مانديلا وحده بإمكانه تهدئة شعبه، كما كتب فيما بعد: «تلك كانت لحظة مانديلا وليست لحظتي».[58] في جوهانسبورغ ذهب توكيو سيكسويل إلى مؤتمر غابات جنوب إفريقية مع بريغادير في الشرطة مطالباً بأن ينشر بيان كان يعده بالتلفاز.[59] وطار مانديلا عائداً من الترانسكي ليلقي أكثر الكلمات حسماً خلال مجرى حياته. ثم حذفت أشياء منها من قبل مؤتمر غابات

جنوب إفريقية، لكن أعيد نشرها كاملة فيما بعد بناء على إصرار مانديلا. بدأت:

> رجل أبيض مفعم بالتحامل والكراهية، جاء إلى بلدنا واقترف عملاً شنيعاً لدرجة جعلت شعبنا بأكمله يترنح على حافة الكارثة. امرأة بيضاء، من أصل أفريقاني خاطرت بحياتها بحيث جعلتنا نعرف هذا القاتل ونقدمه للعدالة.

كلمة مانديلا التي تشبه كلمة رئيس دولة، مقابل صمت دوكليرك أوحت أنه في الحقيقة هو الزعيم الحقيقي، وحامي السلام.

كان هناك انفجار للاضطرابات وأعمال النهب في الكاب وناتال، خلّف سبعين قتيلاً. ومن خلال الهلع السائد رسم المئات من البيض الخطط لمغادرة البلاد. ناشدهم مانديلا بالبقاء. إلا أن حمام الدم لم يحدث. قال مانديلا بعد ذلك بعامين خلال إزاحة الستار عن بلاطة ضريح هاني: «عند موت كريس فإن رسل القدر المشؤوم تنبؤوا بأن بلادنا ستضطرم باللهيب، قالوا إن زعامة شعبنا لن تستطيع ضبط «الناشطين الشباب»؛ إن النضج السياسي لشعبنا برهن على خطئهم.[60]

كان الوقت موحشاً بالنسبة إلى مانديلا، فبعد أسبوعين من جريمة قتل هاني مات صديقه الأقرب أوليفر تامبو بسكتة دماغية أخرى. قال مانديلا إنه «يحتفظ بحديث على مدى الحياة معه في رأسه» والآن شعر مجدداً، «بأنه الرجل الأكثر شعوراً بالوحشة في العالم». أقام المؤتمر الوطني الإفريقي جنازة دولة من النوع الخاص به، بحشد ضخم في سوويتو. اغتبط مانديلا لوجود وفود خارجية على مستوى عال؛ لكن السفير البريطاني كان غائباً غياباً ملحوظاً؛ كان في لندن مرافقاً باثيليزي في زيارة لجون ميجر رئيس الوزراء.[61]

قال أحد المراقبين الأجانب: إن مانديلا ودوكليرك ظهرا الآن مثل «اثنين مرهقين من ملاكمي الوزن الثقيل في نهاية شوط طويل على البطولة، كلاهما مدمّى ومرضوض رضاً سيئاً».[62] لكن مانديلا كان أكثر أماناً في داخل حزبه بالذات. كتب ديفيد أوتاواي في الواشنطن بوست: «لقد تم رفعه إلى منصب

جديد رفيع، يتجاوز المخاوف الإدارية اليومية والخصومات الداخلية للهيئة التنفيذية الوطنية. هو الآن رجل الدولة الأكبر المميز للحركة».[63] كان المؤتمر الوطني الإفريقي قد صمم على دفع فرصته إلى الأمام. قال رامافوزا: «بعد أن مات كريس هاني، اتجهنا إلى طريق القتل»[64] عندما اجتمعت الأحزاب مجدداً في مركز التجارة العالمي في أواخر نيسان (أبريل). أصر مانديلا على تحديد توقيت للانتخابات، حتى قبل الموافقة على الدستور المؤقت. فوجيء دوكليرك! لكن مانديلا أدرك أن زملاءه الأفريقانيين صاروا يتخاصمون الآن علناً فيما بينهم. عبأ مانديلا كل سلطته، في الوطن وخارجه. أوائل أيار (مايو) خاطب أعضاء البرلمان البريطاني في لندن، طالباً منهم استخدام نفوذهم مع الأفريقانيين «لإقناعهم بالتخلي عن مواقفهم الأنانية والتعصبية». قال: «إن التاريخ يطلب منكم أن تساعدونا»[65] بحلول 3 حزيران (يونيو) كانت معظم الأحزاب قد وافقت على إجراء أول انتخابات ديموقراطية تامة في جنوب إفريقية في 27 نيسان (أبريل) 1994. شاهد مانديلا الإشارة التي كان ينتظرها. أبلغ الأمريكيين السود في الولايات المتحدة بعد ذلك بشهر «إن العد التنازلي لنقل ديموقراطي للسلطة إلى الشعب قد بدأ».[66]

لكن كانت هناك عقبات ما تزال قائمة، إذ إن حزبين تمزيقيين بقيا خارج المفاوضات. الحزب المحافظ ومعظمه من الأفريقانيين كان يهدد دوكليرك، في حين كان حزب الإنكاثا التابع لبائيليزي يهدد مانديلا. في كوازولو ـ ناتال كانت عصابات الزولو ما تزال ترتكب أعمال القتل، محرضة على ردود انتقامية دموية من مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي؛ وقبل مانديلا أن المؤتمر الوطني الإفريقي لا بد وأن يُلقى عليه اللوم إلى حد ما. عندما ذبح عشرون شخصاً، بمن فيهم ستة من تلاميذ المدارس، قرب جبل تابل في آذار (مارس) 1993، اعترف مانديلا أن جميع الأحزاب ارتكبت أخطاء. وندد بأولئك المسؤولين عن المذابح الجماعية فقال: «سواء كانوا أعضاء في المؤتمر الوطني الإفريقي أم في

حزب الحرية للإنكاثا أم أعضاء في أجهزة أمن الدولة. فإنهم لم يعودوا من الكائنات البشرية. إنهم حيوانات. أنا لن ألوم حزب الحرية للإنكاثا والحكومة لوحدهما»، قال في مايلودي في نيسان (أبريل)، «يجب أن نكتشف الحقيقة، إن شعبنا منغمس في العنف».[67] كان مانديلا على استعداد لتعريض زعامته للخطر بخصوص موضوع التحدث إلى حزب حرية الإنكاثا. «هل تريدون مني أن أكون زعيماً أم تريدون مني الاستقالة؟» هذا ما قاله. عندما قالوا كلا، أجاب: «يجب أن تصغوا إليّ وأن تتحدثوا مع حزب الحرية للإنكاثا. إذا لم توافقوا على ذلك فباستطاعتكم أن تطلبوا مني الاستقالة! فإنني سأفعل ذلك».[68]

لكن مانديلا رأى باثيليزي الآن وهو يتحرك نحو استقلال ذاتي أقليمي واحتمال انفصال، لا يمكنه قبولهما: «أي تهديد لفرض قرارات بالقوة على أعناقنا، سنرفضه بلا تحفظ».[69] كان دوكليرك أيضاً يشعر بقلق متزايد إزاء خطط باثيليزي لإقامة دولة منفصلة. حاول مانديلا مجدداً أن يقوم بمناشدة شخصية لباثيليزي؛ في حزيران (يونيو) 1993 التقى به لأول مرة خلال عامين. بقي باثيليزي متصلباً، في حين كان ما يزال مدعوماً بالأصدقاء المحافظين في الغرب؛ في الشهر الذي تلا زيارته لجون ميجر في لندن كان ضيف الأمير تشارلز في منزله الريفي، هايغروف.[70] استمر الصحفيون اليمينيون في تعزيز باثيليزي؛ «استعداداً لحرب أهلية»، هذا ما جاء في العناوين الرئيسية لصحيفة التايمز فوق مقالة كتبها ويليام ريسموغ في تشرين الأول (أكتوبر) «إن دولة وحدوية ربما تعني حرباً أهلية. سيقاتل شعب الزولو من أجل استقلاله، ربما بنجاح».[71]

لكن الموعد النهائي للانتخابات استحث المحادثات لتسوية الدستور، في حين أن المناقشات التقنية المعقدة ساعدت في إخفاء المضامين العنيفة لنقل السلطة. كان المفاوضون من الطرفين يجدون في معظم الأحيان أنه من الأصعب إقناع زملائهم بالذات وليس مناوئيهم؛ وكما قالت فرين غوالا: «إن صداقة مميتة تتطور عندما ينظر إلى جمهورك من الناخبين بوصفهم أعداء،

والعدو هو حليفك». لاحظ ڤان زيل سلابيرت، أنه في النهاية «كان مفاوضو دوكليرك في الواقع جزءاً من فريق مانديلا في تسهيل الانتقال إلى حكم الأغلبية».[72]

بينما اقتربت التسوية أكثر فأكثر، أصبح المتطرفون على الطرفين أكثر عنفاً. في 25 حزيران (يونيو) تجمع ثلاثة آلاف أفريقاني في مركز التجارة العالمي، وهم يحملون أعلاماً عليها شعار مثل الصليب المعقوف للـ إي. دبليو. بي Afeu hamer weer stands Beweging. ويقودهم زعيمهم كبير البطن يوجين تيري بلانش. اندفعت سيارة مدرعة بعنف عبر المدخل ذي النوافذ الكبيرة الزجاجية، يتبعها حشد مشاكس تدفق إلى داخل المبنى صارخاً بإساءات ضد الكفيريين (الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب إفريقية) ومبوّلاً في غرفة المؤتمر. حاول الجنرال كونستاند ڤيلجيون زعيم حزب جبهة الحرية اليميني الجديد، حاول يائساً كبحهم. وبعد أن ألقى تيري بلانش كلمة لاهبة، تراجع الغزاة إلى الخارج ليشعلوا الشواء ويشربوا البيرة.

بعد ذلك بشهر كان هناك غضب أكثر شراسة، ففي 23 تموز (يوليو) اندفع خمسة رجال سود مقنّعين إلى كنيسة سانت جيمس في كيبتاون وأطلقوا النار على جماعة المصلين فقتلوا سبعة وشوهوا آخرين كثيرين. أُلقي اللوم في المذبحة على الفرع المحلي للـ APLA الجناح العسكري للـ PAC الذين تبجحوا بقتل البيض سابقاً؛ حكم فيما بعد على عضو في الثامنة عشرة من عمره من APLA بثلاثة وعشرين عاماً لمشاركته في ذلك. هذه الجرائم وجرائم أخرى حرضت المزيد من الهلع بين البيض؛ لكنها حثت أكثر فأكثر على التسوية.

كان مانديلا ودوكليرك ما يزالان على مستوى البنود الشفهية في حين كان فريقاهما يتفاوضان. كانا في أمريكة في تموز (يوليو) 1993، حيث استقبل كلاً منهما على حدة الرئيس كلينتون، لكن دوكليرك وجد نفسه مُرافَقاً إلى خارج البيت الأبيض بطريق ملتوٍ لتجنب لقاء مانديلا الذي كان في طريقه إلى

دخوله.[73] في اليوم التالي في فيلاديلفيا قدمت لكليهما ميدالية الحرية؛ عامل مانديلا دوكليرك بالتالي بازدراء في مؤتمر صحفي؛ نحن لا نَعدّه رئيس جنوب إفريقية بل زعيماً وُضع هناك من قبل 15٪ من السكان.

لكن المفاوضات تقدمت، وبحلول أوائل أيلول (سبتمبر) كان دوكليرك يقدم المزيد من التنازل: وافق على تأليف «مجلس تنفيذ انتقالي» ليعد العدة للانتخابات. وجاء دور مانديلا ليوافق أخيراً على إلغاء العقوبات. طار إلى الأمم المتحدة في نيويورك ليلقي كلمة تاريخية أمام الجمعية العامة، بوجه جامد خلو من التعبير. حذر من أن جنوب إفريقية ليست ناجية من الخطر حتى الآن، بل «إن نسيج المجتمع بالذات تهدده عملية تفكيك». إلا أن الانتقال إلى الديموقراطية أصبح الآن محتفظاً به في القانون، وطلب من الأمم المتحدة: «اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لإنهاء العقوبات الاقتصادية التي فرضتموها».[74]

وافق المتفاوضون على دستور مؤقت رأى فيه الكثيرون وثيقة نموذجية، تجسد فصلاً حازماً للسلطات، لائحة حقوق على النسق الأميركي، ومحكمة دستورية أيضاً. لكنها تقدم تنازلات ستبرهن على أنها مكلفة جداً؛ سيكون هناك ما يزيد على أربعمئة عضو في البرلمان؛ ويتم تشكيل تسع مقاطعات، لكل منها رئيس وزرائها وموظفوها. إحداها ستكون الكاب الشرقي، التي تضم اثنتين من أكثر الأراضي السابقة فساداً، السيسكي والترانسكي. إن تشكيل تسع مقاطعات بدلاً من الأربع السابقة كان تنازلاً لصالح الفيديراليين، إلا أنهم سيوترون الإدارة المستقبلية فوق الحدود القصوى.

كانت الفقرة الحاسمة أكثر من غيرها هي الأخيرة، حول اقتراع الأغلبية وحماية الأقليات. تجادل مانديلا ودوكليرك خلال الليلة الأخيرة لـ 17 ـ 18 تشرين الثاني (نوفمبر). كان دوكليرك مصراً على أن الحزب الفائز يجب أن تكون له أغلبية الثلثين بخصوص القضايا الحاسمة لكن مانديلا جادل «بأنه لا يستطيع أن يحكم في أية حال بلا دعم دوكليرك (سواء كنت أحبه أم لا، فهذا لا

صلة له بالموضوع. إنني بحاجة إليه)». [75] كان بعض المفاوضين من المؤتمر الوطني الإفريقي على استعداد لمنح أغلبية 60٪، لكن مانديلا بقي حازماً أكثر من الجميع؛ أبلغ دوكليرك أنه لا يستطيع أن يرأس وزارة بلا أغلبية تبلغ 50٪. لكن دوكليرك صار الآن أكثر استعداداً من أي من زملائه لقبول حكم الأغلبية بكل بساطة، وأفسح في المجال واضعاً آماله على «روح السعي للإجماع» التي أشير إليها في الدستور. قال جوي سلوفو: «إنه شيء اعتقدت أننا لن نفوز به». قال مانديلا «إن حكم الأغلبية سيُطبق. يجب أن نأمل أن لا يتوجب علينا استخدامه أبداً». [76]

في اليوم التالي كان زملاء دوكليرك في الوزارة يقتربون من العصيان. «لقد تخليت عن جنوب إفريقية». قال له المفاوض تيرتيوس ديلبورت سلفاً. [77] لكن دوكليرك أقنعهم في النهاية بالقبول، وعند منتصف الليل أصدر الجانبان الدستور الجديد. احتفل المؤتمر الوطني الإفريقي في الساعات الأولى، كان يوم عيد ميلاد رامافوزا أيضاً. لكن بقي هناك غائبون مشؤومون عن الاحتفال، بمن فيهم الإنكاثا والحزب المحافظ، الذي لن يعترف بالاتفاق.

مما لا شك فيه أن الاتفاق سجل تراجعاً رئيسياً من قبل دوكليرك. قال في لندن بعد ثلاث سنوات: «إن القرار بتسليم الحق في السيادة الوطنية هو أحد أكثر القرارات إيلاماً التي يتخذها زعيم... توجب علينا قبول ضرورة التخلي عن المثل الأعلى الذي تغذينا به». [78] لكن كان باستطاعته الادعاء أن ذلك سجل تراجعاً مماثلاً تقريباً للناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي الذين بدوا في البداية وهم يسيطرون على حزبهم. كتب آدم وسلابيرت ومودلي: «في مجالٍ ما تخلى مانديلا ومفاوضوه عن (الثورة الديموقراطية الوطنية) في حين تخلى دوكليرك ومفاوضوه عن هيمنة الأقلية الأفريقانية. الأول ضحّى بالصفاء الأيديولوجي والمتفق مع العرف والتقاليد والثاني بالسلطة السياسية». [79]

ابتعد المؤتمر الوطني الإفريقي بالتأكيد عن السياسات الاقتصادية

الراديكالية التي اقترحها عام 1990، واحتفظ بالآمال بتخطيط دولة طموح. أسس مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي بإشراف مستشاره الاقتصادي ڤيلا بيلاي ـ مع دعم قوي من نقابات العمال والشيوعيين ـ الذي وضع خططاً جريئة للتوسع. لكن بيلاي شعر سريعاً بضغوط غير مرئية. زار زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم تريفور مايفوويل وتيتو مبووويني صندوق النقد الدولي في واشنطن؛ والتقى زعماء أقوياء من «مجموعة برينتهيرست» ـ التي أنشأها مانديلا أول مرة مع أصدقائه من رجال الأعمال ـ التقوا مع المؤتمر الوطني الإفريقي لمناقشة المشكلات الاقتصادية؛ في حين استمر السفراء البريطانيون والأمريكيون بالسؤال عن خطط مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي. تحرر الكثيرون من الشيوعيين السابقين في المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم جوي سلوفو، تحرروا من الأوهام بخصوص الاقتصاديات الماركسية بعد مراقبة انهيار الاتحاد السوفييتي. وعندما واجه زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي الأول مسؤولية الاضطلاع بالسلطة، شعروا بالقلق حول اتفاق الدولة برغم التضخم المالي المتسارع والعجز المتنامي في ظل حكومة دوكليرك. في الوقت الذي طرح فيه بيلاي وثيقة مجموعة ماركو للبحث الاقتصادي «جعل الديموقراطية تعمل». في تشرين الثاني (نوفمبر) 1993 كان مانديلا قد سحب عرضه لكتابة المقدمة ـ تماماً في الوقت الذي كان فيه المفاوضون من المؤتمر الوطني الإفريقي يوافقون في مركز التجارة العالمي على «رسالة نوايا» سرية تلزمهم بتخفيض العجز، ورفع معدلات الفائدة، وباقتصاد مفتوح، مقابل الوصول إلى قرض من صندوق النقد الدولي بقيمة 850 مليون دولار، إذا طُلب.[80] إن التسوية مع الرأسمالية الدولية كانت مهمة تقريباً بقدر التسوية مع دوكليرك. «وبينما رأى المؤتمر الوطني الإفريقي أن السلطة في قبضته» كما كتب الصحفي جون مايتسون الذي حلل التغييرات «فإن العولمة كانت تأخذ بعيداً جزءاً من سيادة جميع الحكومات».[81]

امتُدح مانديلا ودوكليرك في أنحاء العالم لتجنبهما الكارثة وصنع السلام في وقت كانت تستمر فيه أعمال القتل في إيرلندة الشمالية والبوسنة ـ سُئل أين مانديلا الخاص بتلك الدول أو دوكليرك؟ ـ لذلك لم يكن من المفاجيء نهاية عام 1993 الإعلان عن أنهما فائزان مشتركان بجائزة نوبل للسلام. وضعت الجائزة مانديلا ضمن تقليد لوثولي وتوتو ـ حيث تكلل كلاهما بالغار فيما سبق. لكن بعض الناشطين كانوا غاضبين؛ قالت ويني مانديلا فيما بعد: «من الإهانة بمكان تقديم الجائزة له ولسجّانه في آن واحد. إنها رشوة ـ جزء من مؤامرة عملاقة لجعله أداة للسلام بالنسبة إلى الرجل الأبيض».[82]

لم يكشف احتفال نوبل في أوسلو في كانون الأول (ديسمبر) عن الكثير من التوافق بين الزعيمين. أخبر دوكليرك المجلس النرويجي أن السود والبيض معاً «ندموا» على الماضي لكنه لم يقدم اعتذاراً لنفسه، في حين اعترضت زوجته ماريك على جلوس مانديلا إلى جانب رئيس الوزراء النرويجي. وعندما ظهر الحائزان على الجائزة على شرفة الفندق، كان حشد من النرويجيين قد تجمع في الأسفل، وهم يحملون الشموع حسب التقاليد. لكن دوكليرك ارتبك عندما سمع شعارات المؤتمر الوطني الإفريقي وصيحات «اقتلوا البوير!»، وعندما غنّى الحشد Nkosi Silsaclal'i Africa التفت للتحدث إلى زوجته، وانسحب بسرعة من الشرفة.[83] وصف مانديلا المناسبة بأنها «حدث هام بالنسبة إلى عدوين سابقين يبنيان جنوب إفريقية جديدة». لكنهما ما زالا يبدوان كعدوين. فعندما سئل مانديلا على شاشة التلفاز النرويجي حول ما إذا كان دوكليرك مجرم سياسي أجاب «كل شخص تقريباً في حكومة هو مجرم سياسي». وبعد ذلك بوقت قصير في ستوكهولم ألقى مانديلا كلمة قتالية مرتجلة ألقى فيها اللوم على دوكليرك لتورطه في استمرار العنف. احتفظ دوكليرك على لسانه ـ كما تذكر فيما بعد «بأكبر قدر من ضبط النفس».[84]

في كيبتاون كان دوكليرك ما يزال غاضباً من «التعابير الازدرائية للمؤتمر

الوطني الإفريقي»، قال إن هذه التعابير تظهر أن «المؤتمر الوطني الإفريقي ليست لديه رسالة سياسية بشأن المستقبل». شرح مانديلا لماذا كانت علاقاته متوترة مع دوكليرك؛ لقد سمح دوكليرك «بذبح الأبرياء لأنهم سود وهذه ستبقى وصمة ضده». لاحظ دوكليرك سخرية الأقدار لكونهما تلقيا أعلى وسام في العالم كصانعيْ سلام في حين كانت علاقتهما «مميزة بالكثير من الارتياب والنقد اللاذع».[85]

كان دوكليرك واثقاً من أن مانديلا كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن النقد اللاذع. أو شعر بالسخط للتناقض بين جاذبية مانديلا العالمية كرجل السلام والغفران والهجمات اللامتسامحة عليه وعلى حزبه. من المؤكد أن مانديلا كان يبدو قاسياً في معظم الأحيان مع دوكليرك. زوجته ماريك (التي طلقها فيما بعد) كانت «مصعوقة» بالإهانات: «كلما هاتفه نيلسون مانديلا ليقول إنه تم اكتشاف الدليل على وجود قوة ثالثة، أو أن الشرطة اكتشفت بعض النشاطات الشريرة أو شيء آخر، كان يتوجب عليه أن يقرر: هل هذا سبب كاف لوضع حد للمفاوضات؟»[86] لكن مانديلا توجب عليه أن يكون «رجلاً من فولاذ» خلال المفاوضات؛ فكلما قام بتنازلات وتراجع عن الكفاح المسلح، كلما توجب عليه أن يظهر لأتباعه الناشطين بأنه كان قاسياً مع العدو. والأهم من ذلك، أنه ما زال يشعر بأن دوكليرك خانه شخصياً. وكلما برزت حقائق عن القوة الثالثة ومؤامرات الشرطة السرية، كلما وجد تأكيدات دوكليرك عن عدم معرفته بذلك أقل إقناعاً: هذا في حين كانت النتائج المميتة تظهر بوضوح أكثر فأكثر.

من يستحق أكبر مفخرة بخصوص التسوية؟ النقاش ما زال مستمراً. دوكليرك الذي ورث العملية التي بدأها ب. دبليو. بوثا، رأى الضرورة التاريخية، وتبعها إلى النهاية، معرضاً نفسه للخطر دون أن يفقد أعصابه، ومبقياً بشكل ضيق حزبه المتفكك بعضه عن بعض. كان لدى مانديلا قادة أكثر مقدرة، وهدف أوضح لتوحيد حركته. لكن كان من المشكوك فيه ما إذا كان

أي شخص ـ غير مانديلا ـ بأوراقه الفذة وتاريخه في التضحية، قادراً على إقناع الثوريين بالتخلي عن الكفاح المسلح، و«الاستيلاء على السلطة» بلا ارتجاعات سياسية عنيفة. قال جوي سلوفو عام 1994، على الرغم من ارتيابه الماركسي بدور أي فرد في التاريخ: «بدون مانديلا فإن تاريخ جنوب إفريقية كان سيتخذ منحى مختلفاً كلياً».

> وهذا ليس بسبب جاذبيته أو منزلته فحسب بل بسبب قيادته ومبادرته من روبن آيلاند أولاً. إنها حقيقة أنه هو الذي أطلق المفاوضات... تامبو كان من الصعب استبداله بغيره؛ فقد أبقى المنظمة في حالة استمرار، وأبقى الناس بعضهم مع بعض. لكن عندما حان الوقت لمواجهة فترة ما بعد عام 1990، كان دور مانديلا فذاً بشكل مطلق.[87]

33

الانتخـــاب

خاض مانديلا معركة أول انتخابات عامة له عام 1994 وهو في سن الخامسة والسبعين، أي أكبر بعامين من رونالد ريغان خلال حملته الرئاسية الثانية في الولايات المتحدة عام 1984؛ وبعمر ويليام غلادستون في حملاته الأخيرة بوصفه رئيساً لوزراء بريطانية عام 1894 و1895. كانا في نهاية محاولاتهما لإنجاح حزبيهما؛ مانديلا كان في البداية. لكن الفرصة لتحقيق حقوق سياسية متساوية كانت مطلبه الرئيسي في السنوات الخمس الماضية، حيث ضحى بالكثير من حياته. ومنزلته كلها كانت تقود إلى هذه الانتخابات.

شن المؤتمر الوطني الإفريقي حملة متقنة عبر مئة مكتب، نظمها ثلاثة من المحاربين القدماء في حملات الجبهة الديموقراطية الموحدة في عقد الثمانين، بوبو موليف، تيرو ليكوتا، وخيتسو غوردهان. استأجروا ستانلي غرينبرغ الخبير الأمريكي الذي يتحدث بسرعة وذا الشارب المضحك، والذي عمل في حملة بيل كلينتون عام 1992. نصحهم بالاتصالات مع الجذور وإنشاء منابر شعبية في شتى أنحاء البلاد.[1] لكن الجميع عرفوا أن مانديلا بالذات كان مصدر قوتهم المسيطر، حيث جسد حزبه، وحيث إن الهالة البراقة المحيطة به قد شفيت من جميع الضربات في الأعوام الأربعة الأخيرة.

إن صوره السابقة المتنوعة ـ مانديلا الزعيم، رجل الاستعراض، الثوري، زعيم الفدائيين، السجين، رجل الدولة، صنفت الآن من قبل مانديلا في

إجراءات حملة انتخابية، حيث لعب دوراً مختلفاً أمام كل جمهور. كان يخاطب أحياناً أربعة منابر شعبية في اليوم الواحد؛ لقد ذكّروه باجتماعات الزعيم التي راقبها عندما كان فتى. وما زال يستمتع برؤية وجوه جديدة بعد سنوات سجنه، ولا سيما الوجوه الشابة. كان يقول المرة تلو المرة: «أنا في الخامسة والسبعين، لكنني أشعر وأنا بينكم كأنني شاب في السادسة عشرة». وكان يكرر: «أنتم الذين ألهمتموني كل يوم من حياتي».

كان لمانديلا فريقه الخاص الذي يسافر معه، بمن فيه باربارة ماسيكيلا، جويل نيتشتنز، التي كتبت معظم أفضل كلماته؛ وكارل نيهوس الذي كان يهتم بوسائل الإعلام. كانت الحملة مرهقة ومنعزلة في معظم الأحيان. قال أحد أفراد الفريق: «كانت اللقاءات الخاصة رهيبة، مع القليل من الصدق بشأنها، كان كل شخص يريد الشيء القليل منه». لكن مانديلا أظهر في العلن الاحترام لجميع أنواع الناس: عندما كان المشاهدون يضحكون من مجموعة من زعماء غريكوا الذين كانوا ينشدون أغاني قبلية، كان يستشيط غضباً. قال كارل نيهوس: «كان لديه شعور بصورته بالذات، لكن الصورة في الحياة العامة لم تبد أبداً منفصلة عن الكائن البشري، ماديا كان هو الحملة».[2]

كان حديث مانديلا العام بعيداً عن الإثارة: حكمت عليه باتي وولدمير من الفانينشال تايمز بأنه «أحد أكثر المتحدثين مدعاة للملل في جنوب إفريقية. عندما ينتهي من حديثه يكون قد فقد نصف الحشد المتجمع». كان يبدو أحياناً كناظر المدرسة الذي يؤنب الفتيان. أخبر حشداً من ستة آلاف في منطقة من مناطق كيبتاون: «إنني أرتب سريري كل يوم، وأستطيع طهي وجبة محترمة، كما أستطيع تلميع الأرض. لماذا لا يمكنكم فعل ذلك؟».[3] لكن متى التحم مع الجمهور وتحدث إلى الأفراد، ولا سيما الأطفال، فإنه يعرض كل الجاذبية المنظمة لسياسي بالولادة. إن ذاكرته التي هي مثل فهرس بطاقات يمكنها تحديد أسماء ووجوه رآها لآخر مرة قبل قرن من الزمن، لكنه يبدو مثله مثل الزعماء

الآخرين الذين يشعرون بالعزلة، يبدو وهو يكسب الود من الجموع، ذلك الود الذي فقده في البيت. تساءلت مساعدته باربارة ماسيكيلا: «هل هي مشاعر إنسانية حقيقية، أم إنها PR لامعة؟ لن تعلم أبداً؛ لكن هل يهم ذلك؟».[4] بدا مانديلا وهو مرتاح أكثر بكثير من وقت خروجه من السجن في البداية: «إنه غالباً ما يترك بزاته ليسترخي في قمصان واسعة ذات ألوان زاهية، عرفه عليها الرئيس سوهارتو لأول مرة في أندونيسيا، عندما قدم له ستة منها. وعندما سأله طفل لماذا يلبسها؟ أجاب: يجب أن تتذكر أنني كنت في السجن لسبعة وعشرين عاماً. أريد أن أشعر بالحرية».[5]

أدت به إلفته للشبان إلى حملة رجل واحد عنيد لتخفيض سن الاقتراع من الثامنة عشرة إلى السادسة عشرة؛ بل حتى الرابعة عشرة. قال في أيار (مايو) 1993 «يقولون إن الشخص تحت سن الثامنة عشرة لا يمكنه التفكير تفكيراً صحيحاً والقيام باختيار حكم، إننا نرفض ذلك، ونطالب أن يكون سن الاقتراع من الرابعة عشرة». «إنني سأناضل وسأكسب هذه المعركة» هذا ما قاله بعد ذلك بشهرين. أعطى هذا ذخيرة مفيدة إلى منتقديه «زعيم أسود تحرري مسن وغريب الأطوار»، هذا ما دعته الصنداي تايمز اللندنية في حين أن رسماً كاريكاتورياً في إحدى الصحف أظهر طفلاً صغيراً في الـ nappies وهو يضع ورقة الاقتراع في الصندوق ـ وهذا ما سر مانديلا كثيراً[6] ـ ورفضت الهيئة التنفيذية في المؤتمر الوطني الإفريقي المصادقة على الاقتراح. هناك ستة عشر بلداً فقط منحت حق الاقتراع لمن بلغوا السادسة عشرة كما أشار ألبي ساكس ـ بمن فيها ألبانية وكورية الشمالية، اللتان لم يكن هناك أسوأ منهما.[7] «تذكر ماهاراج أن المنظمة رفضت رفضاً قاطعاً، ولم تتم إثارة القضية مرة أخرى».[8]

لكن معظم حدس مانديلا الانتخابي كان ذكياً، وكان قادراً مقدرة فذة على حشد الناشطين السود، في حين يطمئن أيضاً الناخبين البيض. استمر في حث الشبان البيض على البقاء في جنوب إفريقية حيث الحاجة إليهم هناك: في

حين حذر المستمعين السود من أنهم ليس باستطاعتهم العمل من غير البيض. أخبر حشداً في بلدة خايليتشا ذات الأكواخ: «أولئك الذين لا يعرفون مدى فائدة البيض لا يعرفون شيئاً عن بلادهم بالذات». كان يبذل جهداً عظيماً في كلماته باللغة الأفريقانية، والتي تمرن عليها مع مساعده كارل نيهوس، مع إنه ما زال يتكلم بلهجة الكزوسا القوية. كان بعيداً عن أن يكون (ديماغوجياً)، وكان يُهزم بسهولة من قبل الشبان الشعبيين الغاضبين ـ ولا سيما ويني التي عادت مجدداً لدخول السياسة عندما انتخبت رئيسة لجمعية النساء التابعة للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1993. كانت تقوم بحملة بلا كلل، حيث تزور الناخبين الفقراء البعيدين الذين تجاهلهم السياسيون الآخرون، وتخبرهم أنها ستضمن أن يفي المؤتمر الوطني الإفريقي بوعوده، إلا أن معظم المتحدثين باسم المؤتمر الوطني الإفريقي تجنبوا (الديماغوجية) الفجة، وما زال مانديلا من غير الممكن تحديه جدياً بطلاً للشعب.

كان مانديلا مصمماً على إظهار أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان حزباً مسؤولاً، مستعداً للحكم. وقد حذر زملاءه بوجوب أن يكونوا واعين في صنعهم للسياسة، قال في أيار (مايو) 1992: «إن العالم الثالث مشوش ببقايا حركات التحرر التي حررت بنجاح بلدانها من عبودية الظلم الاستعماري، لتنهزم فقط في الاقتراعات في الانتخابات الأولى ما بعد الاستعمار». أوجد المؤتمر الوطني الإفريقي برنامجاً طموحاً لإعادة البناء والتطوير ووعدد «بحياة أفضل للجميع». والبرنامج الذي كان يهدف إلى بناء مليون منزل خلال السنوات الخمس التالية، وتوسيع شبكتي الكهرباء والمياه، وضمان التعليم المجاني للجيمع، تمت مناقشته مع ملوك الصناعة بمن فيهم هاري أوبنهايمر. شرح مانديلا أنه لا يحوي «أية إلماحة إلى التأميم... ولا أي شعار يربطنا مع أية أيديولوجية ماركسية».[9]

عرف مانديلا أنه يعتمد بقوة على وسائل الإعلام، وقد تعلم الكثير عن التعامل مع الصحفيين بعد ابتعاده عنهم لثلاثة عقود من الزمن. عرف كيف

يتأقلم مع كل مادة، ومتى يكون متكتماً أو غير متكتم، إلى حَدٍّ أنه يضع يده أمام آلة التسجيل. لقد اعترف وروى للصحفيين كأفراد ـ ولا سيما النساء الجميلات ـ عن قدرته على الإطراء، أو «xhosalisation». قال مراسل البي بي سي فيرغال كين إنه كان من الصعب على الصحفيين عند كتابتهم عن مانديلا «ممارسة أي شيء يلمح التجرد الحقيقي». واعترف جون كارلين من صحيفة الأندبندنت اللندنية «إننا مسحورون بمانديلا سحراً كاملاً وميؤساً منه».[10]

لكن المحررين والمالكين البيض الجنوب إفريقيين لم يتم إغراؤهم؛ فالصحيفة الصادرة باللغة الإنكليزية وهي مجموعة آرغوس (فيما عدا جوهانسبورغ ستار) وكذلك جوهانسبورغ صنداي تايمز، وبيزنس داي أيدت الحزب الديموقراطي الأبيض الصغير. وأيدت معظم الصحف الأفريقانية حزب دوكليرك وهو الحزب الوطني؛ وكانت الويكلي ميل ونيونيشن الوحيدتين اللتين أيدتا المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد ازدهرت الصحافة المحافظة؛ بسبب توكيدها على أخبار يوم الصدام المنتظر الذي ستراق فيه الدماء بين المؤتمر الوطني الإفريقي من جهة والزولو والأفريقانيين اليمينيين من جهة أخرى. تلك الأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام المحافظة في ما وراء البحار. في لندن تنافست الدايلي ميل والصنداي تايمز بقصص الرعب، وتشجعت من قبل لوبي الزولو بمن فيه جون أسبينال ولورينز ڤان دير بوست: «لا بد للدم أن يراق عندما يتحدث الزولو عن الحرب»، هذا ما أعلنته الصنداي تايمز في كانون الأول (ديسمبر)»، الفوضى تلوح في الأفق، قال «الزولو الأبيض» جاء ذلك في عنوان رئيسي في شباط (فبراير) فوق مقابلة مع أسبينال (كل شيء سينهار. «ثم تكون هناك كونفيدرالية حرة مثل سويسرة وستعمل جيداً جداً»).

ونقلت كلام ڤان دير بوست («وهو صديق حميم لرؤساء الوزراء والملكية»). حيث يقول: «العالم أصبح مُنوّماً مغناطيسياً بالشخصية الأسطورية لمانديلا، حتى في الوقت الذي تنحدر فيه جنوب إفريقية نحو الفوضى»[11]

جمع المؤتمر الوطني الإفريقي تقريره الخاص عن قصص الصنداي تايمز. لن ينسى مانديلا أبداً «رسل القدر الذين اعتقدوا أنه لن تكون هناك تغييرات بتاتاً في هذا البلد بدون إراقة الدماء».[12]

كان مانديلا ثميناً بشكل خاص بالنسبة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي كجامع للأموال، مظهراً مثابرة جشعة أدهشت زملاءه. لم يكن شديد الحساسية بخصوص اتصالاته مع رجال أعمال أمثال صول كيرزنير ملك القمار في صن سيتي، والذي كان يتوقع الاستفادة بالمقابل. بدا وهو يستمتع باستخلاص المال من المؤيدين القديمين للتمييز العنصري، مثل الرئيس الذي يتوقع الإجلال والتقدير، ولم يكن لديه وخز للضمير بخصوص رفض الهبات غير الكافية. وبعد أن أعطت إحدى الشركات الكبيرة التي لها سجل في مناصرة التمييز العنصري المؤتمر الوطني الإفريقي 250,000 رند، فإنها دعت مانديلا لتناول «الغداء». وفي أثناء الدعوة أخرج (الشيك) الذي قدمته وأبلغ داعيه أنه عبارة عن إهانة؛ إنه توقع سبعة حسابات.

كان يجمع الأموال للمؤتمر الوطني الإفريقي فيما وراء البحار منذ أولى رحلاته، إلا أنه زاد السرعة الآن. في تموز (يوليو) 1993 تجول في الولايات المتحدة مدة عشرة أيام، ناشداً تقديم المال في كل مدينة. نقل عنه قوله: أريد (شيكات) بسبعة حسابات وأريدها الآن.

في بريطانية أيده الحلفاء القدماء للمؤتمر الوطني الإفريقي مثل ريتشارد أتينبورو مدير «نادوا بالحرية»، وديڤيد بوكر مؤسس حواسيب زيون، لكنه وصل أيضاً إلى المحافظين المتشددين، وهذا ما كدّر الكثيرين من الناشطين ضد التمييز العنصري. وفي أيار (مايو) 1993 رحب بملوك المال في استقبال لجمع الأموال في فندق دورشتسر، بما فيهم المناوئون القدماء للمؤتمر الوطني الإفريقي مثل اللورد كينغ من الخطوط الجوية البريطانية واللورد وينستوك من جنرال إليكتريك الذي سارع الآن لمصافحته. شعر صديق مانديلا القديم تريفور

هادلستون الذي آمن بـ«الغضب المقدس» شعر بالخيبة وهو يراقبه متسامحاً مع الرجال الذين عارضوا العقوبات وتواطؤوا مع التمييز العنصري. جمع مانديلا مبالغ كبيرة من أوربة وأمريكة وآسية، حيث شرّف الرؤساء الذين التقاهم خلال أسفاره. كان دوكليرك الذي كان حزبه الوطني قد جمع الكثير من رجال الأعمال الإفريقيين في الماضي، كان مغتاظاً من «ميزانية الانتخابات الهائلة» للمؤتمر الوطني الإفريقي.[13]

بدأت الحملة رسمياً في 12 شباط (فبراير) 1994، لم يشك أحد في أن المؤتمر الوطني الإفريقي سيحرز أصواتاً أكثر من حزب دوكليرك الوطني. قال مانديلا: «إننا نتعامل مع فأر، نحن في المؤتمر الوطني الإفريقي مثل الفيل». لكن السؤال الجاد بدرجة أكبر كان ما إذا كانوا سيفوزون بأغلبية الثلثين مما يسمح لهم بإعادة النظر في الدستور. لكن هل ستتم الانتخابات أصلاً؟ هناك حزبان رئيسيان لم يسجلا: إنكاثا باثيليزي وحزب فولكسفرونت الأفريقاني. وكان بإمكانهما معاً أن يمزقا جنوب إفريقية. وبرهنت ملاطفة هاتين القوتين الخطيرتين على أنها أكثر المهمات دقة وخطورة بالنسبة إلى مانديلا وراء مشاهد حملة الانتخابات.

كان مانديلا ينظر دوماً إلى الأفريقانيين اليمينيين بوصفهم الأعداء المرعبين. وحتى لو لم يكن باستطاعتهم إثارة تمرد مسلح، فإن بمقدورهم نشر مؤيديهم الكثيرين في الجيش والخدمات المدنية لتجميد حكومة سوداء. جاءت المقاومة الأكثر علانية من الـ AWB بقيادة يوجين تير بلانش الذي أصبح في العناوين الرئيسية عندما غزوا مركز التجارة العالمي. وقد تظاهروا بخيولهم وصلبانهم المعقوفة المزيفة ومنطقهم المخيف أمام كاميرات التلفاز مذكّرين بحرب البوير. لكن جيشهم ـ المرحلي ـ من قطاع الطرق الكثيرين لم يعرض للخطر حياتهم بالذات، وكان لديهم القليل من الشجاعة أو الدهاء اللذين كانا لدى الفدائيين الشجعان النحيلين الذين تحدوا البريطانيين قبل تسعين عاماً.

جاء الخطر الأكثر جدية من (الفولكسفرونت)، وهي التحالف الواسع للمجموعات اليمينية في أيار (مايو) 1993، والذي ضم الـ AWB كما ضم الحزب المحافظ أيضاً بزعامة زعيمه الجديد فيردي هارتزينبرغ، وهو مزارع أفريقاني متصلب. وكان يرأس الفونكسفرونت الجنرال كونستاند فيلجوين وهو جندي أنيق ذو شعر أبيض، أحيل مؤخراً إلى التقاعد بعد أن كان قائداً للقوات الدفاعية. وهو ذو شعبية أكبر بكثير من هارتزينبرغ. لم يؤمن فيلجوين بديموقراطية متعددة العروق؛ فقد اعتقد أنها اختراع مصطنع، مثل القهوة السريعة، «قليل من القهوة، قليل من الحليب، قليل من السكر البني». [14] طالب بدولة أفريقانية منفصلة أو «فولكستات»، وكان مستعداً للدفاع عن شعبه بالذات ضد الشرطة. وأعلن مرتين أمام الجماهير أنه يجب على أي أفريقاني أن لا يقتل أفريقانياً آخر. اعتبره مانديلا خطراً حقيقياً على القانون والنظام، لأن «الأفريقانيين هم مثل الزولو؛ مخلصون جداً لزعمائهم». [15]

أقلقت فولكسفرونت التابعة لفيلجوين مانديلا بدرجة أكبر بعد تشرين الأول (أكتوبر) 1993، عندما تحالفت مع باثيليزي والوطنيين بوبهو ثاتسوانا والسيسكي، اللذين كانا يقاطعان الانتخابات أيضاً، وذلك في تحالف غريب COSAG. رأى مانديلا في هذا التجمع «خطراً شديداً» على عملية التفاوض، وأبلغ رجال الأعمال أن اليمين الأفريقاني يمكن أن يلحق ضرراً أكبر من الكفاح المسلح في عقد الثمانين، عن طريق مؤيديه في الخدمات المدنية والجيش والشرطة. فإذا طبقوا تهديدهم بالحرب الأهلية ـ كما حذر ـ «فإن الآلاف من البيض ربما يموتون» [16] اعتقد في سره أنه إذا كان فيلجوين جزءاً من مؤامرة، فسيصبح من الصعب على حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي الاستفادة من الجيش. [17]

لكن كان مانديلا يكن تقديراً لبعض المحافظين الأفريقانيين، الذين نظر إليهم بوصفهم أكثر استقامة وصراحة من دوكليرك. التقى أولاً الجنرال فيلجوين

في آب (أغسطس) 1993، عبر وساطة شقيقه التوأم برام. الذي كان ودوداً إزاء المؤتمر الوطني الإفريقي. قال مانديلا لفيلجوين: «أيها الجنرال، ربما يمكنك هزمنا، لكن إذا اتخذت طريق العنف، فإنك ستتدمر وشعبك في يوم من الأيام».[18] وميّز فيلجوين زعيماً حقيقياً للرجال: «كان رجلاً شعبياً جداً، لأنه كان بسيطاً، وحتى الأرض، وديّناً وشريفاً».[19] شرع تابومبيكي وجاكوب زوما بسلسلة من المحادثات الودية مع فيلجوين، الذي قال سريعاً وعلناً إنه يحقق المزيد من النجاح مع المؤتمر الوطني الإفريقي، الأكثر إخلاصاً من دوكليرك. تعرض مانديلا للهجوم من قِبل هيئته التنفيذية بالذات لتحدثه إلى اليمين الأفريقاني، لكنه أصر على الاستمرار في التحدث لمنع تدهور الأزمة. تألم دوكليرك لأن فيلجوين الذي عرفه جيداً فضل التعامل مع مانديلا؛ رأى في قاعدة قوة فيلجوين أنها عنصرية في الأساس، وتذكر كيف أن أتباعه عدّوا مانديلا إرهابياً شيوعياً.[20] لكن مانديلا أقام علاقة خاصة مع الجنرال أصبحت مفتاح الانتخابات السلمية. لكن قضية الدولة الشعبية «فولكستات» الحلم الأفريقاني القديم بقيت مثيرة للنزاع. ترك مانديلا الطريق مفتوحاً أمام استفتاء عام؛ مع أن ذلك لن يُلزمه رئيساً. اعتقد فيلجوين أن هذا بمثابة جواب مشرف يستطيع نقله إلى شعبه. لكن هارتزنبرغ من الحزب المحافظ لم يكن راضياً عن التزام مانديلا غير المؤكد، وأبلغه صراحة أنه سيعد العدة لوقف الانتخابات بالقوة.[21] في الحقيقة لم يعتقد المؤتمر الوطني الإفريقي أن (فولكستات) عملية قائمة في ظل ظروف ديموقراطية، لأن مؤيديها مبعثرون في أنحاء البلاد، حيث لا تتوافر أغلبيته في أي مكان؛ وصار من الصعب الآن تحديد الأفريقاني الذي له الحق في العيش هناك. قال أحد وزراء المستقبل: «إنها ليست دولة بل حالة ذهنية».

كان مانديلا يمد يده إلى زعماء أفريقانيين آخرين ليتجنب المكاشفة. التقى ثلاث مرات مع بيك بوثا، وزير الخارجية المحارب القديم الذي وجده أكثر رجل إيجابي في الحكومة تجاه المؤتمر الوطني الإفريقي.[22] كان بيك بوثا

متشككاً بخصوص المتمردين الأفريقانيين: اعتقد أنهم ربما يسيطرون على بضع بلدات، لكن مقاومتهم لن تستمر. إلا أنه كان حريصاً على أن يكون مساعداً: كان قد قال قبل ثماني سنوات إن بإمكانه العمل في ظل رئيس أسود. مما أثار غضب الرئيس بوثا؛ واعتاد الآن أن يدعو مانديلا باسم «السيد الرئيس».

كانت أجرأ خطوة قام بها مانديلا هي زيارة الرئيس السابق بوثا ذاته، «التمساح الكبير» الذي أبقاه في السجن لمدة طويلة جداً. في 12 شباط (فبراير)، عندما افتُتحت الحملة الانتخابية، ذهب مانديلا إلى ويلدرنس وهي منتجع هادىء على شط البحر في خليج الكاب حيث اعتزل بوثا. كان مانديلا يَكنُّ تقديراً عجيباً للرجل العجوز الذي كان يكبره بعامين وكان طويلاً مثله؛ وشك أنه ربما يمكنه التفاوض معه بفعالية أكثر مما مع دوكليرك بوصفه رجلاً يمكن الوثوق به. كان يبدو أنه يعتبر بوثا زعيماً أبيض: ففي إحدى المرات، عندما حطت طائرته في هبوط اضطراري قرب ويلدرنس، طلب من بيك بوثا رقم هاتف ب. دبليو بوثا، شارحاً بمزاح: «من عادة الإفريقيين أن يبلغ زعيم زعيماً آخر عندما يكون مسافراً في منطقته».[23] وهنا ظن أن بإمكان ب. دبليو بوثا ممارسة نفوذ كابح على اليمين الأفريقاني والعسكر.

استقبله ب. دبليو بوثا في مكتب كئيب يجاور منزله. ما زال ينظر إلى جنوب إفريقية ضمن مجال الحرب الباردة، وإلى مانديلا بوصفه شيوعياً؛ لكنه عَدَّه أيضاً رجلاً مهذباً وزعيماً، مثل ابن أخته ماتانزيما. تذكر مانديلا كيف التزما معاً بالسلام عند لقائهما في تيوزهيوز، وعبر عن قلقه بخصوص العنف: «إذا تأجل توقيت الانتخابات فإن الشعب سيذبحنا». كان مستعداً للتنازل حول تقرير المصير، وطلب من بوثا مساعدته لإقناع الزعماء الأفريقانيين.

أجاب بوثا بأن جنوب إفريقية كانت في وضع خطير، يقترب من الفوضى؛ يتعين على مانديلا (السير ببطء)؛ وإلا «فإن الأمور سيصبح من الصعب جداً التكهن بها». لكن يتوجب على العالم أن يترك الجنوب إفريقيين

وشأنهم لحل مشكلاتهم الخاصة بهم. أكد مانديلا: «إن الجوهر الحقيقي للمشكلة هو بين الفولكسفرونت والحكومة والمؤتمر الوطني الإفريقي؛ أود أن أُشرك هؤلاء الناس». اقترح بوثا أن يقنع مانديلا جميع الزعماء الأفريقانيين بالاجتماع معه، بمن فيهم دوكليرك (وليس تيري بلانش الذي كان يريد مانديلا إشراكه). افترقا بود، بعد أن قدم بوثا لمانديلا نسخة من كتاب يضم خطبه، «مقاتل ومصلح» كتب مانديلا في سجل الزوار: «أجريتُ مناقشة بناءة ومثمرة مع الرئيس السابق ب. دبليو بوثا. نيلسون مانديلا، 51 شارع بلين».[24]

لم يستطع مانديلا إقناع دوكليرك بالتعاون في اللقاء المقترح ـ «كان عاطفياً يعارض لتدخل ب. دبليو بوثا» ـ ولا في غيره مطلقاً. في الحقيقة لم يكن بوثا مفيداً جداً من ناحيته هو؛ إذ لم يحث فيلجوين الذي كان «شخصاً مستقلاً جداً». لكن مانديلا بقي ممتناً جداً لبوثا «لمحاولته تحقيق السلام في بلدنا».[25]

بقي الجنرالات الأفريقانيون هم مفتاح الانتخابات السلمية، والفترة الانتقالية بعد ذلك. بقي ولاؤهم المستقبلي موضع شك؛ فقد شنوا حرباً على المؤتمر الوطني الإفريقي مدة ثلاثين عاماً، وشعر الكثيرون منهم بأن دوكليرك قد خانهم بصنعه السلام. ألقى الجنرال ميرينغ، قائد القوات الدفاعية كلمة قاسية عام 1992 ندد فيها بكل من موديس، كاسريلز، وهاني. وخشي كاسريلز ـ الذي أصبح قريباً وزيراً للدفاع ـ خشي من أن المؤتمر الوطني الإفريقي ربما شعر أنه قد نصب له كمين «مثل بيت ريتيف في دينغانز كارل». ثم تم تطمينهم مجدداً من قبل بعض القادة العسكريين الكبار؛ وعد قائد القوى الجوية أن يستخدم طائراته لقصف القوات المتمردة إذا دعت الضرورة. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي رأى استمرار احتمال قيام انقلاب عسكري ضمن التقليد الإفريقي أو الأمريكي اللاتيني.[26]

استخدم مانديلا سلطته كلها إضافة إلى التملق لطمأنة زعماء الجيش وقوى الأمن. إذ زار قبل وقت يسير من الانتخابات مفوض الشرطة الجنرال

جوهان ڤان دير ميروي في مكتبه ليسأله إن كان بمقدوره أن يعمل تحت سلطته، قال ڤان دير ميروي إنه قد خدم أكثر من مدة عقده الأصلي. وزار مانديلا أيضاً الجنرال ميرينغ، الذي أجاب بالإيجاب بلا تلكؤ، ووعد أن يكون شديداً لا يرحم مع كل من يحاول التدخل بالانتخابات.[27]

اعتقد بعض الزملاء أنه كان واثقاً أكثر من اللزوم بميرينغ والآخرين. لكنه كان مصمماً على استرضاء الأعداء السابقين، مهما كانت إساءاتهم الماضية.

بحلول آذار (مارس)، كانت الحرب الأهلية تبدو أقرب، عندما قاطع الأفريقانيون اليمينيون وحزب باثيليزي الانتخابات، إضافة إلى الوطنيين الأصليين، سيسكي وبوبهو تاتسوانا أو «بوب». أصبح شعب بوب الآن في خط المواجهة. وكانوا قد منحوا المواطنية الجنوب إفريقية ليتمكنوا من الاقتراع، لكن ديكتاتورهم، لوكاس مانغوبي، ما زال رافضاً للانتخابات، في حين كان شعبه في حالة تمرد تام ضده. قرر مانغوبي دعوة فولكسفرونت الأفريقانية للدفاع عنه. وافق الجنرال فيلجوين بتسرع، وعبأ جيشه الخاص الصغير للتحرك إلى «بوب» لدعم قوات مانغوبي الخاصة. لكن جيش فيلجوين فاقته القوات الأكثر شراسة من الـ AWB ـ بقيادة تير بلانش ـ الذي اقتحم مماباتو العاصمة، شاهراً المدافع اليدوية والمسدسات والبنادق، ومطلقاً النار على السود في الشوارع. ثار غضب جيش بوب من هذا الغزو الأبيض، وتمرد فوراً على مانغوبي وأطلق النار على الغزاة. انسحب جيش فيلجوين بهدوء، واستمر الـ AWB في الاهتياج إلى أن اضطر للتراجع بطريقة التبعثر. التقطت كاميرات التلفزة الرعب بأكمله عندما كان ثلاثة أفريقانيين بسيارة مرسيدس زرقاء يطلقون النار من نافذة السيارة، تم إيقافهم بنيران البنادق ثم واجهتهم شرطة بوب، حيث قتلهم أحد رجال الشرطة بوحشية. كان صورة مدمرة؛ كتب أليستر سباركس: «وهم المغامرة والتشريع البطولي المتجدد لأساطير البوير التاريخي تحطما في يوم من الدم والإذلال».[28]

كان هناك المزيد من الحديث عن إراقة الدماء. كتبت الصنداي تايمز اللندنية: «جنوب إفريقية ورطت نفسها بحرب عرقية يوم أمس». وذلك تحت عنوان «البوير يصرخون الثأر من الكفير»[29]، لكن الإخفاق التام «لمعركة بوب» برهنت سريعاً على أنها هبة سياسية لمانديلا ـ والسلام. تمت الإطاحة بمانغوبي؛ وأصبح بإمكان المؤتمر الوطني الإفريقي العمل بحرية في البوب؛ في حين لحق الخزي بالمتمردين العسكريين الأفريقانيين. رُوّع الجنرال فيلجوين بالإخفاق التام، وقرر في اللحظة الأخيرة في 16 آذار (مارس)، أن يترك بقية الفولكسفرونت وينافس في الانتخابات من خلال حزبه بالذات، جبهة الحرية. كان مانديلا شاعراً دوماً بالامتنان للجنرال. قال فيما بعد: «عندما انسحب، عرفت أن قضية الجناح اليميني كانت للشرطة فقط».[30] لكنها كانت عملية إنقاذ سريعة. كان دوكليرك سيواجه وضعاً خطيراً، كما قال فيما بعد، لو أن فيلجوين تدخل بنجاح لاسترداد سلطة مانغوبي غير الشرعية في البوب. هل كان دوكليرك سيرسل الجيش الجنوب إفريقي للعمل ضد فيلجوين وهل كان سيطلق النار ضد قائده السابق؟ لقد ترك السؤال بلا جواب. ومما يدعو للسخرية أن قطاع الطرق في الـ AWB هم الذين أنقذوا الموقف، من خلال تشويه سمعة الحملة بأكملها ونظام حكم مانغوبي، مع النظام الذي أوجدها. كتب دوكليرك فيما بعد: «بإزاحته من السلطة، انسحقت انسحاقاً تاماً البقايا الأخيرة لصرح فيروورد المحكم للتمييز العنصري المهيب».[31]

بقي هناك الخطر الفعلي للمقاومة من جانب اليمين الأبيض، وبقيت العقبة الكبيرة الأخرى أمام الانتقال السلمي؛ باثيليزي، الذي بقي ثابتاً ضد الانتخابات والدستور الجديد، الذي رأى فيه تقليلاً من شأن مملكة الزولو، قال في مؤتمر للإنكاثا في كانون الثاني (يناير): «لن تدخلها قوات أجنبية لتحكمنا». كان يؤيده الملك غودويل، ملك الزولو الضعيف. الذي أراد الآن أن يحكم مملكة ذات سيادة أوسع تشمل الناتال بأكمله كما كان الحال عام 1830.

تضاءلت الآمال بالتسوية بجولة جديدة لأعمال القتل، وأرسلت الحكومة الانتقالية القوات إلى ناتال لمحاولة تقييد العنف. بدت المذابح مشؤومة أكثر فأكثر بعد أن أبلغ القاضي غولدستون في 18 آذار (مارس) عن: «شبكة رهيبة للنشاطات الإجرامية» تربط الإنكاثا بالشرطة الجنوب إفريقية. اعترف دوكليرك فيما بعد أنه «بدا في النهاية أنها تحقق الشكوك التي كانت منذ وقت طويل، فيما يتعلق بوجود قوة ثالثة شريرة ضمن قوى الأمن». [32]

حاول مانديلا الاسترضاء، قال أمام حشد: «إنني سأركع على ركبتيّ لأتوسل لأولئك الذين يريدون جر بلادنا إلى إراقة الدماء». ذهب إلى دوربان لمحاولة جذب باثيليزي، وناقش إمكانية مجيء وسطاء دوليين. إلا أن الأزمة استمرت وبقي الملك قريباً من باثيليزي، الذي ما زال يقاطع الانتخابات حتى اليوم الأخير، 11 آذار (مارس)، عندما قرر فيلجوين المشاركة في الحملة.

دبَّر باثيليزي آنذاك مظاهرة استفزازية في 28 آذار (مارس) وسط جوهانسبورغ. وفي اليوم السابق، كان مانديلا قد حذر دوكليرك، الذي حذر بدوره رؤساء الشرطة الذين لم يقوموا بأية إجراءات مسبقة مرئية. عندما وصل الزاحفون إلى شل هاوس، مقر قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي، أعطى مانديلا الأوامر لحراس الأمن: «يجب أن تحموا المقر حتى لو توجب عليكم قتل الناس». [33] أطلق بعض المتظاهرين النيران داخل المبنى؛ اختفت الشرطة، وخشي المؤتمر الوطني الإفريقي من أن يغزوه الزاحفون. استهدف حراس المؤتمر الوطني الإفريقي ـ بعد إطلاق النار في الهواء ـ استهدفوا الحشد بالضبط، فقتلوا ثمانية أشخاص بمن فيهم من أصيبوا في ظهورهم أثناء فرارهم. رأى أحد الصحفيين داخل البناء في ذلك «هجوماً دموياً معاكساً من أولئك الذين كانوا محاصرين في المبنى». [34] هاتف دوكليرك مانديلا ووافق على أن الشرطة يجب أن لا تفتش عن الأسلحة داخل شل هاوس؛ في اليوم التالي منع مانديلا شخصياً الشرطة من الدخول إلى المبنى. لكن تشكى دوكليرك آنذاك من أن

مانديلا تراجع عن وعد بالتعاون كلياً مع تحقيقات الشرطة.[35] استمر اللوم قيد النقاش بشدة. واعتقد مانديلا أن دوكليرك سمح عمداً بالزحف، مثلما سمح بالمذبحة في سيبوكينغ في تموز (يوليو) 1990. وبعد أربع سنوات وجد القاضي في محكمة عليا للتحقيق أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مخطئاً بادعائه أن الإنكاثا تآمرت للهجوم عليه؛ لكنه ألقى اللوم أيضاً على الشرطة والإنكاثا.[36]

تبع «مذبحة شل هاوس» المزيد من أعمال القتل وقصص عن الهلع. قالت الدايلي ميل اللندنية بتاريخ 3 نيسان (أبريل): «رسمت خطط الطوارىء لنقل حوالى 350,000 من البريطانيين بالطائرات إلى خارج جنوب إفريقية، هل تنحدر البلاد إلى الفوضى بعد الانتخابات في هذا الشهر». بدا باثيليزي عنيداً لا يعرف الصفح؛ وحذر قائلاً: «دخلنا الآن كفاحاً أخيراً حتى النهاية، بين المؤتمر الوطني الإفريقي وشعب الزولو».[37] في 8 نيسان (أبريل) التقى مانديلا ودوكليرك باثيليزي وملك الزولو في محمية حديقة كروغر الوطنية حيث (قال دوكليرك) إن مانديلا «تحدث بطريقة حذرة ومدروسة». وعد الملك «بسلطة أكثر من ملكة إنكلترة»، في حين أصر على أن الانتخابات لا يمكن تأجيلها. لكن باثيليزي والملك كانا متصلبيْن، وانتهت القمة من غير حدوث أي اختراق. قالت الصنداي تايمز اللندنية: «استعدت جنوب إفريقية لحرب أهلية يوم أمس».[38]

بدا حمام الدم المتوقع رهيباً أكثر فأكثر في ضوء المذابح في رواندا في ذلك الوقت؛ وكانت قوى الأمن تحذر سراً من أن جنوب إفريقية ربما تشهد مليوناً من الوفيات.[39] لكن كان هناك أمل أخير. ففي القمة وافق باثيليزي على دعوة وسطاء دوليين، وهذا ما وافق عليه مانديلا مع أن زعماء آخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا حذرين. وصل فريق من سبعة أشخاص وعلى رأسه هنري كيسينجر ووزير الخارجية البريطاني السابق اللورد كارينغتون وضم بروفسوراً كينياً ضخماً هو واشنطن أوكومو. بقوا ثلاثة أيام في فندق الكارلتون في جوهانسبورغ محاولين التوفيق بين الأطراف. اجتمع كيسينجر مع مانديلا

وسيريل رامافوزا، الذي أصر على أن يسمح الوسطاء الآن بالتأجيل. كان المؤتمر الوطني الإفريقي والإنكاثا يلعبان لعبة (بوكر) خطيرة، كما بدا بالنسبة إلى كولن كولمان أحد أفراد فريق الوسطاء»؛ إننا ننظر من خلال ألسنة اللهيب».[40] غادر كيسينجر وكارينغتون بعد عدم تحقيق أي نجاح. قال كيسينجر فيما بعد: «لو أننا بقينا لأصبحنا جزءاً من المشكلة. وفشلنا حقق نجاحاً بطريقة ما».[41]

صار باثيليزي الآن معزولاً بدرجة أكبر. فقد أرسل الحلفاء القدماء بمن فيهم الجنرال أوباسانجو والسيدة تاتشر، أرسلوا رسائل ينصحونه فيها بالمشاركة في الانتخابات.[42] استسلم الوطني الأخير ـ السيسكي. وكان ملك الزولو قد تم إبعاده عن عمه باثيليزي عن طريق مانديلا، في حين شعر موظفو الخدمات المدنية للزولو بالقلق بخصوص من سيدفع لهم رواتبهم في ظل حكومة منفصلة.

قبل أن يغادر باثيليزي جوهانسبورغ، التقاه البروفسور أوكومو في المطار ليقوم بمناشدة أخيرة، محذراً إياه من أن الانتخابات ستتركه خارجاً. وأن النتيجة ستكون دموية. عند ذلك اقترح باثيليزي احتمال مشاركته، ضمن ثلاثة شروط: إذا لم تتم معاملة الإنكاثا من خلال تمييز عنصري، وإذا تم إدخال مملكة الزولو ضمن الدستور، وإذا استؤنفت الوساطة الدولية بعد الانتخابات. أكد عرضه في اليوم التالي. صُنعت مسودة مذكرة تفاهم بسرعة ووافق عليها باثيليزي. ثم طار أوكومو بعد ذلك إلى كيبتاون ومعه كولمان واثنين تنفيذيين من الأنكلو ـ أمريكيين لتقديمها إلى مانديلا في فندق كيب صن. كان مانديلا قد عاد لتوه وهو مضطرب جداً بسبب حشد انهار فيه سياج وقتل شخصان، إلا أنه وافق بسرعة على الخطوط الرئيسية وهاتف دوكليرك الذي اتفق معه في الرأي مع بعض التحفظات.[43] في 19 نيسان (أبريل) التقى مانديلا ودوكليرك في بريتوريا مع أوكومو وباثيليزي، واتفقوا على البنود العامة، في حين أعد الخبراء نصاً منقحاً

لتهدئة مخاوف باثيليزي. كان ذلك قبل أسبوع فقط من الانتخابات. وكانت قد تمت طباعة أوراق الاقتراع مقدماً؛ لكن اللجنة الانتخابية كانت ما تزال قادرة ـ وبحالة مدهشة ـ على طباعة أوراق مصمغة تضاف إلى الصفحات تحمل اسم الإنكاثا؛ في حين وافق دوكليرك بكرم على أن حزبه الوطني سيخسر مكانه الخاص في أسفل ورقة الاقتراع.[44] شعر زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي براحة عميقة لكنهم ما زالوا غير عارفين ما الذي غير تفكير باثيليزي.[45]

تم النظر إلى الأسبوع النهائي للحملة الانتخابية على أنه نوع من التنافس بين مانديلا ودوكليرك، حيث كان كلاهما يتمتعان بشعبية عالمية براقة. كان دوكليرك قد أساء إساءة خطيرة في فهم مهارات المؤتمر الوطني الإفريقي في التقديم. كان بإمكانه ضمان حفنة من الناطقين المقنعين بالإنكليزية على شاشة التلفاز، في حين عرض المؤتمر الوطني الإفريقي اختياراً واسعاً. وأظهر مانديلا جميع براعاته مصلحاً يستطيع تكييف صورته حسب المشاهدين والسائلين. قال أحد أفراد فريق دوكليرك: «كانت هناك مغالاة في تقديره رجل دولة، وتقليل في اعتباره سياسياً». كان يغيّر ثيابه أحياناً ثلاث أو أربع مرات في اليوم، من لباس يصلح لفطور عمل، إلى قميص مفتوح من أجل حشد في قرية، إلى سترة صوفية لزيارة الأشخاص المسنين. لقد ظهر حتى في لباس ميدان مموّه جنباً إلى جنب مع جوي موديس، ليروق للناخبين من الفدائيين. «لكن دوكليرك كان يرتدي معطف الغولف ذاته» كما تشكى أحد المساعدين.[46] وكان لدى دوكليرك عائق محتوم من محاولة أن يروق للسود. اعتقد المستشار السياسي الأمريكي ستانلي غرينبيرغ أن رصيد مانديلا كان يرتفع في كل مرة يحاول دوكليرك إضعافه؛ قال غرينبيرغ «عندما يهاجم حزب المضطهِدين فإنك تحصل من المضطهَدين على رد فعل يحميك».[47] توجب على دوكليرك أن يكبح نفسه عن الهجمات الصريحة على المؤتمر الوطني الإفريقي حزباً لا يليق به أن يحكم، لأنه يتعين عليه العمل إلى جانب مانديلا في ائتلاف بعد الانتخابات ـ

على الرغم من أنه لم يدرك هذه الفكرة.[48] كانت الانتخابات في النهاية انتخابات صامتة، حيث لم يقل فيها أي من الطرفين ما يفكر به.

كان المؤتمر الوطني الإفريقي هو المنتصر بوضوح في معظم المقاطعات التسع، إلا أنه تم تحديه جدِّيّاً في الكاب الغربي، معقل الناخبين الملونين. كان زعيمهم المحلي ألان بويساك ـ الواعظ الذي ساعد في تأسيس الجبهة الديموقراطية الموحدة ـ قد فقد الكثير من أتباعه بعد طلاقه زوجته ليتزوج امرأة بيضاء، وتركه كنيسة الإصلاح الهولندية، ووجد الكثيرون من ناشطي المؤتمر الوطني الإفريقي أنه مزهو جداً ومغرم بالحياة الأرستقراطية. بقي مانديلا مخلصاً بعناد لبويساك، وأصر على أن يبقى زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي، إلا أن الكثيرين من الناخبين الملونين كانوا منزعجين من احتمال قيام حكومة سوداء، وفضلوا الاقتراع لدوكليرك ولزعيم الحزب الوطني المحلي هيرنوس كريل. قال مراقب أمريكي واسع الاطلاع هو ويليام فينيغان: «لم أعد أذكر عدد الذين أبلغوني أنهم لن يصوتوا لكفيري، أو يدعوا رجلاً أسود باسم Baas».[49] كانت نكسات المؤتمر الوطني الإفريقي في الكاب الغربي صفعة قوية لمفهومه عن التعددية العرقية.

قبل عشرة أيام من الانتخابات، ناقش مانديلا مع دوكليرك، على التلفاز، الأسلوب الأمريكي. كان مانديلا قد دربه مستشار سابق آخر لكلينتون هو فرانك غرير، حيث كان أول تعليماته: «كن رئاسياً». علَّمه غرير أن يتحدث أسرع وأن لا يلوح بأصبعه، مما يذكر المشاهدين بـ ب. دبليو. بوثا ـ وأن يستمر في الابتسام.[50] تمرن مانديلا في اليوم السابق مع دوكليرك الذي قام بدوره الصحفي أليستر سباركس الذي كان قلقاً من أن يتخطى مانديلا حصته لدقيقتين في الكلام: «إنه سيستمر لثلاثين دقيقة إذا ترك وشأنه».[51]

في النقاش الفصلي، بدأ مانديلا بحديث طويل لثلاث دقائق بوجه جامد دون ابتسام وهذا ما اختصره المُرسل، وشعر دوكليرك سريعاً أنه كان يكسب في

النقاط. إلا أن مانديلا فاجأ دوكليرك في النهاية عندما مد له يده بعفوية صريحة، لكنه كان قد تمرن عليها بعناية لإرباك دوكليرك. قال أحد مستشاري مانديلا: «عرفنا أن لغته الجسدية لم تبد جيدة».[52] واعترف دوكليرك فيما بعد: «ما كان يُعَدّ بعض نقاط النصر تحول فجأة إلى تراجع، كانت ضربة بارعة».[53] اختتم مانديلا حديثه بأسلوب استرضائي امتاز به. قال لدوكليرك: «أظن أننا مثال وضاء للعالم بأكمله، على أشخاص من مجموعات عرقية مختلفة لديهم ولاء مشترك، وحب مشترك، لبلدهما المشترك». قال غرير فيما بعد: «كان له كل التفوق، كان قاسياً بما يكفي لتنشيط قاعدته، لكنه كان قادراً أيضاً آنذاك على الوصول والمناشدة بالمصالحة».[54]

معظم الأسبوع الأخير قبل يوم الاستفتاء، بدا المناخ سلمياً معجِباً. عندما عقد مانديلا لقاءه الأخير الحاشد في جوهانسبورغ، في المدرج خارج سوويتو، كان الجو العام يسوده الاحتفال، فقد تجمع ستون ألفاً من مؤيدي المؤتمر الوطني الإفريقي ضمن فرق، وهم يلوحون بالأعلام والشعارات، لينصتوا إلى المغنين الذين كانوا يصرخون عبر المكبرات التي تصم الآذان، وليشاهدوا الراقصين وضاربي الطبول والبهلوانيين. ثم حلقت طائرة مروحية فوق الرؤوس وهبطت خارجاً، في حين استمر قرع الطبول، وقادت الفتيات بالقلبق الفرو استعراضاً حول المدرج، وكان في نهايته القامة الفارعة التي لا يمكن لأحد أن يخطئها؛ إنها قامة مانديلا المشرق في قميص أحمر، يصافح الأيدي، ثم يجلس بين الأطفال الصغار، وهو يبتسم ويصفق معهم. حمّس تابو مبيكي الجمهور وقدّم مانديلا أمام تصفيق هادر. مد مانديلا يده لجميع أنواع المؤيدين ـ من جميع الأديان والأعمار ـ وتم نقل كلماته إلى الكزوسا من قبل كوكيو سيكسويل مضيفاً مشاعره ومرحه بصوته الجميل. اختفى المرح فجأة عندما أطلقت عيارات نارية من مكان ما في المدرج: وبخ مانديلا الجمهور بعنف ـ «يجب أن لا يأتي أحد إلى اجتماع وهو مسلح» ـ. وأصر على إلقاء القبض على

الفاعلين وإبعادهم. إلا أن الأمر انتهى بتآلف وانسجام؛ وبدا وكأنه رئيس دولة فعلاً عندما أُقل بعيداً في سيارته، في حين أوقف حراس الأمن أي شخص يحاول الوصول من النافذة ليصافحه.

في 26 نيسان (أبريل)، اليوم السابق للانتخابات، عقد مانديلا المؤتمر الصحفي الأخير له في جوهانسبورغ. بقي متكتماً بخصوص مشاعره - «بعض الأمور لا يمكن التعبير عنها بالكلمات» وأصر على «أنه لا يمكن لفرد وحده أن يرتفع فوق الآخرين». لكنه اعترف أنها «لحظة مثيرة جداً»، وتمنى لو أنه يوقظ الأبطال الميتين مثل ثابو وهاني ليتمتعوا بثمار أعمالهم. بعد ذلك، تحدث بفخر عن توحيد المؤتمر الوطني الإفريقي: «كان هناك دوماً ستة وعشرون حزباً يعملون في اتجاهات مختلفة»، كما قال يوم الانتخابات «والآن ستكون لدينا حكومة وحدة». (55)

في الأيام القليلة الأخيرة انفجرت عدة قنابل في جوهانسبورغ وبالقرب منها، بما فيها سيارة مفخخة انفجرت خارج المكتب الإقليمي للمؤتمر الوطني الإفريقي. بلغ مجموع الضحايا بالأرواح عشرين شخصاً(56)! تبين أن جميع القنابل وضعتها خلية تابعة لد AWB تهدف إلى تخويف الناخبين وإبعادهم عن صناديق الاقتراع. لكن الناخبين السود لم يمنعهم ذلك، وصمموا على المشاركة لأول مرة في ديموقراطيتهم التي حصلوا عليها بصعوبة. وقبل فجر يوم 27 نيسان (أبريل) بدؤوا يقفون بالصف في مراكز الاستفتاء، وينتظرون أحياناً خمس ساعات قبل الاقتراع. قال أحدهم: «بعد حوالي 350 سنة فإن 350 دقيقة ليست شيئاً». أبدى الناخبون الصبورون والمترقبون من الثقة، في العملية الديمقراطية، أكثر مما أبداه الناخبون اللامبالون في أمريكة أو أوربة؛ وقد اختفى تقريباً العنف في ذلك الصباح الحار، وكأن العملية الديموقراطية قد صفّته. لكنهم أظهروا بعض علائم التوقعات غير الواقعية: عندما طلب من مراسل البي بي سي إحضار نماذج صوتية من الناخبين الذين كانوا يتوقعون

السيارات والبيوت بعد الانتخابات لم يجد أحداً يتفضل عليه بذلك. لم يكن المال بغيتهم بل الاقتراع الذي حرموا منه لمدة طويلة هو الذي كانوا ينتظرونه صفوفاً.

أمضى والتر سيسولو المعلم القديم لمانديلا، أمضى اليوم مع الناخبين في سوويتو؛ شعر أن حياته بأكملها تتجه نحو هذا النصر للسلام على الحرب الأهلية. «ما يجعل ثورتنا واحدة من أعظم الثورات» قال فيما بعد هو أن «الشعب كان مصمماً على شيء واحد فقط، أن يقوم بالعبور».[57] استمتع مانديلا خاصة برؤية المزارعين الأفريقانيين يقفون إلى جانب عمالهم الإفريقيين: «يمكنك أن ترى أن جنوب إفريقية جديدة قد بدأت». لقد نزل بنفسه إلى دوربان ليقترع في مدرسة أوهلانج الثانوية، قرب قبر جون ديوب ـ المؤسس الآخر للمؤتمر الوطني الإفريقي عام 1912 ـ حيث اختير المكان بعناية مميزة من أجل الرمزية، لتذكّر الأبطال الذين ماتوا والذين جعلوه قادراً الآن على الاقتراع لأول مرة: «كنا وكأننا شعب وُلد من جديد».[58]

راقب العالم الانتخابات بتوتر. لم تراقب أية انتخابات عن كثب مثل هذه؛ كان ما يقدر بـ 200,999 من الموظفين الرسميين والمتطوعين يراقبون الناخبين البالغ عددهم 23 مليوناً. أشرف المبعوث الخاص من الأمم المتحدة وهو الجزائري المهذب الأخضر الإبراهيمي، أشرف على جيش من المتطوعين من الأمم المتحدة بأربطة أيديهم أو قبعاتهم الزرقاء وهم مبعثرون حول المناطق. مع ذلك كانت هناك فوضى في العديد من حجيرات الاقتراع. لم تصل الأوراق، والحبر، والاستمارات. تدفقت التقارير ولا سيما من كوازولو التي لم يكن لديها سوى أسبوع للاستعداد ـ تدفقت عن ارتباكات، أو لغط وبطاقات انتخابية مضاعفة أو مفقودة. كان مانديلا سريعاً في رؤية مؤامرة: «من الواضح لي أنه حدث هناك تخريب كبير غير مقبول بتاتاً». قال على شاشة التلفاز يوم الانتخابات. خشي المنظمون من أن يحتاجوا إلى يوم ثالث من

الاقتراع. وارتعد دوكليرك خشية أن تبدو جنوب إفريقية مثل «أي بلد إفريقي آخر».[59]

لكن الرأي الواسع كان واضحاً. قال الإبراهيمي: «كل حزب ألزم نفسه بالتغيير، والنتيجة ستكون مجرد ما يمكنهم توقعه».[60] صنعت الأحزاب السياسية في النهاية نتيجة جاهزة وغير مصقولة وفرت تسوية مقبولة. قال دوكليرك: «كانت انتخابات انطباعية». أحرز حزب دوكليرك الوطني أغلبيته 53٪ من الكاب الغربي ـ حيث اقترع له 69٪ من الملونين هناك. وكان لدى إنكاثا باثيليزي أغلبية 51٪ من كوازولو ـ ناتال. وفي المقاطعات السبع الأخرى كان لدى المؤتمر الوطني الإفريقي أغلبية، وعبر البلاد بأكملها كان لديه 62٪ من الأصوات الانتخابية، مما أعطاه 252 مقعداً من بين أربعمائة في البرلمان الجديد. وحصل الـ PAC الذي كان منافساً هائلاً في وقت من الأوقات، حصل على 1,25٪. وصل المؤتمر الوطني الإفريقي إلى أقل بقليل من أغلبية الثلثين مما يسمح له بتغيير الدستور: لكن بدا مانديلا مرتاحاً فعلاً لأنه «لا يستطيع أن يفعل ما يريد». قال فيما بعد: إن نصراً ساحقاً كهذا «سيخلق مشكلات هائلة: سيلجأ دوكليرك إلى المحكمة لإعلان أن النتيجة باطلة». وقد شعر بالقلق من ردود الأفعال بعد الانتخابات. قال للغارديان: «يجب أن نكون حذرين جداً خوفاً من أن الأغلبية ستُستخدم بهدف إكراه الأقليات».[61] أذعن دوكليرك بشهامة أمام الهزيمة في بريتوريا، مادحاً مانديلا بوصفه رجل القَدَر الذي عرف أن وراء هذه التلة تكمن تلة أخرى وأخرى: «المرحلة لا تنتهي أبداً. فبينما نتطلع إلى التلة الأخرى، فإنني أمد يدي إلى السيد مانديلا بصداقة وتعاون». بعد ثلاث ساعات في جوهانسبورغ فيما بعد حضر مانديلا المرهق بالانفلونزا إلى احتفال انتصار المؤتمر الوطني الإفريقي الذي أقيم في فندق الكارلتون، ورد التحية. هنأ دوكليرك على «المعركة الجيدة»، ووصف كيف أنه ما يزال بإمكانهما حتى بعد الكلمات القاسية «المصافحة بالأيدي والجلوس معاً لتناول

القهوة». واختتم قائلاً: لقد حان الوقت لشرب نخب «المعجزة الصغيرة». ما زال العالم يردد«المعجزة الجنوب إفريقية»، لكن الجملة كانت مضللة. وكما قال ألبي ساكس فيما بعد، في الحقيقة كانت «الحدث الأكثر توقعاً والذي تم العمل بشأنه بضمير وعقلانية، أكثر مما توقع أي شخص، وهو بالتأكيد أبعد شيء عن المعجزة».[62]

واجه مانديلا اختيارات فورية وصعبة. فبوصفه رئيساً سيكون له نائبان، وضمن بنود الدستور سيكون دوكليرك أحدهما، بوصفه زعيم الحزب الثاني الأكبر. لكن توجب على مانديلا أن يختار الأكبر من ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي. الاختيار كان حاسماً، لأن مانديلا كان ينوي أن يخدم لفترة واحدة مدتها خمس سنوات، إلى أن يصبح في الثمانين. وسيكون نائبه في المكان الجيد ليخلفه، على الرغم من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يوافق عليه. توجب على مانديلا أن يقرر بين منافسيْن قادرين من خلفيتين شبه متعارضتين. كان ثابو مبيكي في الواحدة والخمسين الوريث الأوضح بين «أرستقراطيي المنفى» المتمتعين بحماية أوليفر تامبو. ولقد أظهر نفسه كمفاوض ومسوّ بارع للنزاعات، مع التدريب في الاقتصاد والديبلوماسية الذي كان يفتقده مانديلا، ومع المرونة الفكرية للتحول من ثوري إلى إداري. وبما أنه ابن غوفان فقد كانت له روابطه مع الترانسكي والسياسات الراديكالية، إلا أنه لم يكن مقرباً من والده ـ الذي ترك تربيته للآخرين ـ وكان قد تخلى عن معتقداته الماركسية. وكان مثله الأعلى السياسي هو تامبو.

كان سيرسل رامافوزا أصغر بعشر سنوات، وهو ابن رجل شرطة من سوويتو؛ لكنه مر بمحن اختبارية ـ محامياً ـ وزعيماً لعمال المناجم، وأمين سر عاماً للمؤتمر الوطني الإفريقي، ومفاوضاً رئيسياً جلب المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة. كان يتمتع بالجاذبية والقسوة التي لا ترحم في آن واحد ليتغلب على مناوئيه المحنكين. لكنه كان خارج التيار الرئيسي للمؤتمر الوطني

الإفريقي: لقد بدأ مع حركة الوعي الأسود، وأتى من قبيلة فيندا الصغيرة نسبياً. كان منفصلاً عن الشبكات في الترانسكي، وعن المنفيين من لوساكا وفدائيي الـ MK.

كان اختياراً صعباً جداً، بدا مانديلا في معظم الأحيان وهو يفضل رامافوزا، ورأى الفائدة في وجود شخص من غير الكزوسا كنائب له، حيث يمكن أن يكون حيادياً بين قبائل ومجموعات المؤتمر الوطني الإفريقي. لكنه تشاور عن كثب مع كبار الزعماء في المؤتمر الوطني الإفريقي، ونقابات العمال عن طريق الـ COSATU ومع الحزب الشيوعي «من غير أن يعبر عن مشاعره». كان إجماعهم بوضوح على ثابو مبيكي.[63] وخرج رامافوزا ورفض منصباً في الوزارة، لكن بدا أنه ما يزال في مجال العمل ليأخذ في النهاية مكان مانديلا زعيماً. ولم يوضّح مانديلا لزملائه أن مبيكي كان خلفه الذي اختاره إلا بعد عامين.

في 10 أيار (مايو) تولى مانديلا الرئاسة في احتفال متألق خارج مباني الاتحاد في بريتوريا، نظمته الحكومة السابقة. تم تقديمه من قبل باربارة ماسيكيلا، وشاهده مايقدر بمليار مشاهد حول العالم. كانت مناسبة دولية احتفالاً بالنصر، على العكس من تولي دوكليرك الرئاسة قبل خمس سنوات. حيث حضر الاحتفال أربعة وفود «أجنبية» فقط ـ واحد من كل وطن جنوب إفريقي. في هذه المرة كان هناك أربعة آلاف من الضيوف، بعضهم متنافر مثل هيلاري كلينتون وفيدل كاسترو وياسر عرفات ورئيس إسرائيل هاييم هيرزوغ، والأمير فيليب وجوليو من نايريري وبعضهم أصدقاء قدماء أيضاً بمن فيهم الأسقف هادلستون وثلاثة من سجاني مانديلا. أكد مانديلا في كلمته الرئاسية على التجدد والتسوية: «من خلال تجربة لكارثة إنسانية استثنائية استمرت زمناً طويلاً، يجب أن يولد مجتمع ستفخر به الإنسانية بأكملها». وتابع ليعد: «لن

يعاني هذا البلد الجميل أبداً أبداً ظلم الواحد للآخر، أو يعاني المعاملة المهينة بوصفه الشخص البغيض من العالم».

حيَّا الجنرالات ورؤساء الشرطة فأعلنوا الموالاة: تذكر مانديلا أنه قبل بضع سنوات «لم يكونوا يحيونني بل يعتقلونني».[64] المقاتلات النفاثة التي كانت أحضرت للدفاع عن البلاد ضد المتمردين السود هدرت فوق الرؤوس إجلالاً للرئيس الأسود على الرغم من أن بعض ضيوف المؤتمر الوطني الإفريقي بدوا وهم يجفلون وكأنهم توقعوا أن تطلق عليهم النار. لكن الأربعة آلاف من الشرطة المسلحة كانوا منشغلين بحماية مانديلا من الاغتيال (في الحقيقة اقترب رجل مسلح من الـ AWB لقتله إلا أنه تراجع) أنشد الجمهور النشيديْن الوطنييْن؛ «ولم تعرف أي من المجموعتين لحن النشيد الذي احتقرته في وقت من الأوقات» كما قال مانديلا مضيفاً «إنهم سيعرفون قريباً الكلمات عن ظهر قلب»[65](*). لكن بقي هناك شعور قوي بالشعب الجديد الذي يقف وراء الرئيس الجديد.

كان ذلك في الأساس إجلالاً لرجل واحد. قال ثابو مبيكي: «سنرى أنفسنا منعكسين في مجده، المجد الذي نشأ في تواضعه، وشعوره بالتسامح».[66] وكان مجداً وحيداً. رافقت مانديلا ابنته زيني، وهي تضع قبعة سوداء ضخمة، لكن ويني ـ التي كانت تضع قبعة خضراء أكبر ـ وُضعت بين الضيوف الأقل أهمية إلى أن اعترضت. وزوجة مانديلا الأولى إيفلين (التي لم تدل بصوتها) لم تكن مدعوة. وابنه الوحيد ماكغاثو كان غائباً، وهو يستعد لفحص المحاماة في دوربان. كان مانديلا مدركاً بألم أن التزامه السياسي «كان

(*) كان على مانديلا أن ينتظر. فبعد أربع سنوات، وخلال احتفال تأبيني لـ تريفور هدلستون Trevor Huddleston في كاتدرائية جوهانسبورغ، انتقد مانديلا الحضور في الكاتدرائية لأنهم لم يرتلوا كلمات «دي ستيرن» Die Stern وأصر على ترتيل النص الكامل.

على حساب الناس الذين عرفتهم جيداً وأحببتهم أكثر من أي شيء آخر».[67]

نقل العالم الخارجي التنصيب ببهجة رومانسية ـ بوصفه نصراً للديموقراطية ـ وكان كل بلد متأثراً بذكرياته الخاصة عن التحرير في الماضي. قالت النيويورك تايمز: «كان مثل كونك حياً في زمن لنكولن». وكان لذلك أهمية أعمق بكثير بالنسبة إلى إفريقية. فكما كتب دوكليرك: «كانت التظاهرة الأخيرة للحكم الأبيض ـ ليس فقط في جنوب إفريقية ـ بل في القارة بأكملها».[68] وعملية الاستعمار التي بدأت في الكاب عام 1652 انتهت أخيراً في إفريقية. كانت هناك تحذيرات قليلة متشككة عن الديموقراطية الإفريقية، متذكرة كيف أن العديد من الدول السوداء ذهبت أول مرة إلى الاقتراع بحماسة مماثلة وذلك خلال السنوات الأربعين الماضية. كتب بيريغرين وورثورن المحافظ في الصنداي تلغراف: «فجر الحرية، My Foot! إن حكم الأغلبية السوداء في جنوب إفريقية يجب أن يرسل رِعدة حول العالم».[69] لكن الشكوك غرقت في الارتياح السائد. والتكهنات بحرب أهلية وحمام دم برهنت على خطئها. وكان من الصعب عدم إعطاء مانديلا فضل تجنب الكارثة.

مانديلا وديكليرك في مؤتمر السلم الوطني في جوهانسبورغ في أيلول (سبتمبر) سنة 1991، پيتسمان... ويحملقان.

زعيم الزولو بوثيليزي يرفض مصافحة مانديلا وديكليرك في نهاية المؤتمر.

مانديلا وأرملة هيندريك فيروورد في الرابعة والتسعين من عمرها.

مانديلا يزور تمثال فيروورد.

مانديلا وبيرسي يوتار، الذي ساعد كمدَّع عام في سجنه لمدة سبع وعشرين سنة.

مانديلا وبي. دبليو. بوثا.

مانديلا يقدم كأس العالم للركبي لسنة 1995 لفرانسوا بينار كابتن فريق سبرينغبول

مانديلا ووينى مع المحاميين إسماعيل أيوب وجورج بيزوس أثناء محاكمة ويني سنة 1991 لاختطاف ستومبي سيبي.

مانديلا يصطحب الرئيس كلينتون ليريه زنزانته القديمة في جزيرة روبين.

مانديلا والملكة أثناء زيارته الرسمية لبريطانية سنة 1996.

مانديلا مع ديانا أميرة ويلز.

مانديلا مع مجموعة من أحفاده.

مانديلا مع غراكا ماتشيل.

تابومبيكي يخلف مانديلا في رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول.

حفل عيد ميلاد مانديلا الثمانين في تموز (يوليو) سنة 1998 أصبح أيضاً حفل زواجه من غراسا.

34

الحكم

ولئ عهد الفروسية. وخلفه عهد السفسطائيين
والاقتصاديين والآلات الحاسبة.

إدموند بيرك، 1790

عندما أصبح مانديلا رئيساً لجنوب إفريقية، بعد أربع سنوات من مغادرة لسجن، رأى العالم في ذلك نهاية القصة الخرافية. متطلباً منه أن يكون سعيداً على الدوام. في الحقيقة كان ذلك بداية قصة مختلفة تماماً، بوجود لبيروقراطيين ومعدلات الصرف بدلاً من الأبطال والخونة، ومقابل خلفية كانت جديدة بالنسبة إلى مانديلا. كان قد أخبر النواب البريطانيين «ليست لدينا تجربة نتخابات، وممارسة نيابية، وإدارة دولة».[1] لقد أخذت مفاجأة السلطة معظم لمؤتمر الوطني الإفريقي على حين غرة، قال مانديلا بعد أربع سنوات: «لقد جيء بنا من الغابات، أو من العمل السري خارج البلاد ـ أو من السجون، لنتولى الأمور. لقد أُلقينا فجأة وسط تلك المسؤولية الهائلة في حكم بلاد نامية جداً».[2]

لم يكن هناك جديد في إفريقية بخصوص وصول السجناء فجأة إلى السلطة: فمن نكروما في غانا وكينياتا في كينيا إلى موغابي في زيمبابوي، كلهم واجهوا مشكلات غير مألوفة. وما زال مانديلا يرى نفسه ضمن التقليد الإفريقي، فخوراً لأن شعبه قد حقق تحرير نفسه بنفسه، وهو مصمم على أن

يتطابق مع هذا الشعب. شرح فيما بعد: «لقد نضجت سياسياً ضمن صفوف حركة وزعامة كانتا حاسمتين في تشكيل وجهات نظري، أنا نتاج المستنقع الذي كان مجتمعنا طافياً فوقه. ولقد أخطأت أحياناً كحال الزعماء الآخرين؛ ولا يمكنني ادعاء التألق لوحدي على كرسي السلطة المبجل». كان مصمماً على إظهار أن الإفريقيين يمكنهم أن يحكموا بفعالية: «نعم، الإفريقيون مع فسادهم وعدم كفاءتهم المفترضيْن قد حققوا هذا العمل الفذ». وقد رفض التلميحات «بأنني لا أنتمي إلى تلك الجماهير الإفريقية وأنني لا أشاركها تطلعاتها».[3]

لكنه عرف أيضاً أنه يتولى شعباً متقدماً صناعياً أكثر من أي شعب آخر في إفريقية، وأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يستطيع الجنوب إفريقيون السود أن يحكموا بلا دعم من المديرين، والتقنيين والمهنيين البيض. لقد رأى دولاً إفريقية أخرى دهمها الخروج المفاجيء للبيض ـ ولا سيما موزامبيق التي نصح رئيسها سامورا ميتشل رفاقه الإفريقيين بوجوب تجنب المصير ذاته. وكانت جنوب إفريقية معتمدة إلى حد كبير على خبرة البيض ـ واجه مانديلا منذ البداية عملية التوازن في تهدئة النخبة البيضاء بلا إغضاب الجماهير السوداء.

شغل مانديلا سريعاً منصب الرئاسة وكأنه ولد لذلك. انتقل إلى القصور والمكاتب الفخمة ـ «وهي الأماكن التي صنعت فيها السياسات الأكثر وحشية» ـ حيث شعر في البداية بعدم التأكد من كيفية استقبال البيروقراطيين البيض له. ولا بد له من أن يتذكر كيف وصل إلى مكتب الرئيس في بريتوريا. وأخذ يتشمم رائحة القهوة، التي استمتع بها عندما زار دوكليرك؛ أما الآن فهو لا يشم أية رائحة قهوة، ولا يجد أي موظفين حوله! في وقت متأخر من بعد الظهر استدعى موظفاً كبيراً وطلب منه أن يجمع الموظفين في الصباح التالي. صافحهم يداً بيد، وذكّرهم أن حكومة جديدة قد استلمت مقاليد الأمور، وطمأنهم أن أحداً منهم لن يُلقى في الشارع.[4] وأقام بسرعة علاقات ممتازة مع الموظفين البيض الذين أبقاهم. وأصبح كل أمين سر وموظف أفريقاني موالياً

تماماً للرجل المسن اللطيف الذي تذكر أسماءهم وأسماء عائلاتهم. قال مانديلا لأحد الزوار: «انظروا إلى السيدة التي أحضرت الشاي. شيء لا يصدق حقاً لقد تأقلموا مع وضعهم الجديد».[5] عندما اتهم دوكليرك لاحقاً المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه طرد العشرات من الأفريقانيين من وظائفهم الحكومية، رد مانديلا بغضب أن لديه اثنتين من أمينات السر البيض من النظام السابق واللتين هما «Boeremeisies تماماً». وأنه احتفظ بضابط أفريقاني برتبة ميجور بين موظفيه على الرغم من أن جهاز الأمن حذره بأنه ساعد في قصف مبنى المؤتمر الوطني الإفريقي. أجاب: «ماذا إذاً؟ أنا أعمل في حكومة مع أشخاص فعلوا أشياء أسوأ من ذلك بكثير».[6]

في كيبتاون نزل مانديلا مكتب الرئيس في التيونهيوز القديم الأنيق، حيث صب له ب. دبليو. بوثا الشاي بوصفه سجيناً مزمناً عام 1989. قام بتغييرات طفيفة فيه، فوضع صور قرية أمه وصوره ملاكماً في عقد الخمسين. وانتقل إلى عزبة غروت شور المنعزلة، أسطورة سيسيل رودس ـ حيث عاش الوزراء الأفريقانيون لفترة طويلة في امتياز خاص؛ لكنه سمح لدوكليرك بالبقاء في المقر الرئاسي الرسمي، قصر غروت شور التاريخي، وشغل هو ذاته ويستبروك وهو قصر هولندي أنيق لكنه كئيب. سمي سريعاً باللغة الإفريقية «جينادينداك» (وادي الرحمة) وهو اسم بعثة مسيحية في الكاب. عمل في الغرفة الصغيرة والمبهجة «غرفة الفيل» مقابل غرفة نومه في نهاية ممر طويل إلى الأعلى، وكانت غرفة الماكياج للزائرات من النساء؛ كان بإمكانه الاسترخاء هناك رافعاً قدميه. وما زال يصحو في معظم الأحيان في الرابعة والنصف، ويرتب سريره ويتمشى قبل تناول فطوره.

في بريتوريا سبب مانديلا بعض الاستياء عندما قرر نزول ليبيرتاز، وهو القصر الرسمي حيث كان يعيش آل دوكليرك، في حين استخدم المؤتمر الوطني الإفريقي البريزيدينسي وهو المقر التقليدي الآخر للمناسبات الرسمية والمسلية.

كان دوكليرك مهتماً بمراقبة الرجل المسن الذي أمضى ثلاثة عقود في زنزانة صغيرة وهو «يُرشد عبر قاعات القصر المترامي الأطراف، التي تتردد فيها الأصداء». توجب على دوكليرك ذاته أن ينتقل إلى منزل رسمي ثالث، أوڤرڤال، حيث وجده مُبهجاً، لكن زوجته ماريك كانت مغتاظة من التحول والتغيير اللذين رأت فيهما «مسعى محسوباً من مانديلا لإذلالنا». اعتقد دوكليرك أن استياءها كان «عاملاً حقيقياً جداً سبَّبه التوتر المتعاظم بيني وبين مانديلا».

أدهش مانديلا الموظفين والخدم بمصافحته لهم والتحدث إليهم، بما في ذلك الجنائنيون. لاحظ دوكليرك: «لديه قدرة استثنائية على جعل كل من له صلة معه يشعر وكأنه المفضل لديه».[7] أصبح على علاقة ودية مع الحراس الشخصيين الأفريقانيين الذين يمكن رؤية ولائهم في وجوههم القلقة عند مراقبتهم تحركاته. قال أحدهم: «اعتدت أن أفعل ذلك من أجل المال، والآن أفعله من أجله. إنني أقبل بتلقي رصاصة من أجله». وعلى الطائرة أو المروحية الرئاسية كان يتجاذب أطراف الحديث مع الطاقم والطيار، ويهتم بوجباتهم وكل ما يؤمن الراحة لهم. وفي بريتوريا أظهر مودة جديدة للبيبرتاز، الذي أعيدت تسميته «ماهلاميا ندلوبفو» ويعني «تنظيف الفيل»، أو فجر عهد جديد، بلغة الشانغان. لكنه بقي يعيش في المنزل في هوتون حيث بإمكانه أن يكون وحده.

أدهشت بنية جسمه وقدرته على الاحتمال أطباءه، بمن فيهم طبيب العائلة القديم نثاتو موتلانا، الذي كان يحثه دوماً على المزيد من الهدوء. كانت لديه مشكلة في عينيه، لم تُشف برغم عملية جراحية لها عام 1994، ومُنع المصورون من استخدام الإضاءة عند تصويره. وشعر بالمزيد من الألم في ركبته، التي لم تشف من سقطة في روبن آيلاند، والتي لا يمكن إجراء عملية مأمونة فيها؛ لذلك لم يعد بإمكانه ارتقاء الدرج بلا مساعدة. وكان أحياناً يعاني من الإرهاق، وأصر أطباؤه على الراحة التامة. لكنه كان يتعافى بسرعة، وكان

يَعُدّ رحلاته الطويلة بالطائرة الرئاسية نوعاً من الراحة، وبدا أنه لا يتأثر بتلكؤ الطائرة. واتفق الأطباء على أنه في السادسة والسبعين مثل رجل يصغره بعشرين عاماً من حيث طاقته وحيويته.[8]

أظهر مانديلا خلال ممارسة مهامه المودة والسلطة والاقتراب والابتعاد في آن واحد. كان يحيي الزوار بالقفز من كرسيه أو من وراء مكتبه، وينظر إلى عيونهم، متذكراً من أين أتوا، ومتذكراً معهم الأصدقاء المشتركين. كان أسلوبه دوماً طبيعياً وغير مصقول في آن واحد، مثل رجل الأرياف، مع ابتسامة عريضة. تقول أمينة سره: «يريد أن يراك لأنه يحبك»، لكن بدا أنه يسعده أيضاً رؤية الوجوه الجديدة. كان يقوم بحركات (دراماتيكية)، إذ كان يرحب بالضيف وهو يسير إلى داخل الغرفة، مقيماً صلة فورية. ذات مرة كان فريق تلفازي بريطاني يقوم بتصويره، وقد خرّب المسافة بسيره مباشرة نحو المصور ليصافحه! وعندما وصل إلى 10 داوننغ ستريت فُتح الباب ـ كما هي الحال دوماً ـ من قبل شرطي في الداخل، صافحه على الفور، وتذكره عند عودته، سائلاً عن أسرته.

لم يفقد مانديلا أبداً كياسته أو ضبط الذات. «الرجل والقناع كانا شيئاً واحداً» كما قال ريتشارد ستينجل، الصحفي الأمريكي الذي شارك في كتابة سيرة حياته. كان الديبلوماسيون ينتظرون سقوط القناع، لكن ذلك لم يحدث أبداً، وبدت مشاعره الشخصية وهي مصنفة من خلال حياته السياسية؛ حيث كانت تولد الدفء والطاقة؛ ومثله مثل القسيس العازب بدا أنه يقيم علاقة أوثق مع الناس، نظراً لفقدانه دفء البيت. كان يفضل دوماً التعامل مع السياسة والديبلوماسية من خلال اتصالات مباشرة، متجاوزاً البيروقراطيات؛ وما زال يحب الهاتف البعيد المدى كدمية اكتشفت حديثاً، مستخدماً إياه لمفاجأة الأصدقاء على الجانب الآخر من العالم ـ كان أحياناً يوقظهم باكراً في الصباح. حاولت أمينة سره ماري مكسادانا وهي امرأة طويلة قوية كانت تقود جوقة

المنشدين في سوويتو، حاولت منعه من القيام بعمله كله شخصياً. قالت لأحد الزوار: «حاولت فقط وقفه عن النزول إلى الطابق السفلي ليبلغ شخصاً مطلوباً على الهاتف».

لكن أمينات سره كن يعلمن أن وراء الكياسة كان مانديلا متقلب المزاج كثيباً. وكما قالت إحداهن: «لم يكن سعيداً دوماً لرؤية الناس كما يقول». وقالت ماري مكسادانا إن أسلوبه الجسدي وتعبير وجهه يدلان على مزاجه المختلف. وهناك كلمات كانت تنتشر أحياناً في مكاتبه: «ماديبا اليوم في مزاج سيِّء». ومتى أصبح وحيداً فإنه يعكس فجأة وجهاً أكثر حزناً. وقد أمضى أحد النحاتين الذي صنع تماثيل عديدة لزعماء في العالم، أمضى ساعات وهو يراقب تعبير وجهه. ووجده جذاباً بشكل فذ، لكن من الصعب أيضاً عكس تعابيره؛ فهو يشع برفقة كل زائر، في حين يبدو مرهقاً عندما يكون وحده، حيث تتحول ابتسامته الترحيبية إلى علامة اكتئاب. فأي شكل يتوجب على الفنان إظهاره؟[9]

كان مانديلا بصفته رئيساً بعيداً أكثر من أي وقت مضى عن صداقاته القديمة؛ فكلما ازدادت شهرته كلما ازدادت عزلته. قالت ابنته زندزي: «الشيء المحزن هو أن أي شخص لا يدرك أن أبي يشعر بالوحشة الشديدة».[10] كان يبدو مسناً أكثر من معظم زملائه. تامبو كان قد توفي، وسيسولو خارج الوزارة. «من الموجع رؤيته وهو يجلس وحيداً إلى طاولته في البيت»، كما قال أحد زملائه المقربين، الذي تذكر كيف أن مانديلا أخبره ذات مرة قائلاً: «ليس لديّ أصدقاء». ومضى مراقبه يقول: «إنه يبتعد عن الصداقات العاطفية، فإذا أثرت سؤالاً بلهجة عاطفية فإنه يبدو جامداً كالحجر؛ وتعلم أنك لن تستطيع الوصول إلى أي شيء. لقد جعل من كيانه كياناً سياسياً كلياً. إنه ثمن لا أريد دفعه، لكن ذلك منحه وقاراً رائعاً في الحياة السياسية».[11]

كان ذلك ـ في جزء منه ـ عبارة عن أسطورة السجن. فمعظم من كانوا في روبن آيلاند أصبحوا معتادين على التواصل مع أنفسهم. قال إريك مولوبي:

«وجدنا جميعاً فيما بعد أننا بحاجة إلى مسافة بين أنفسنا والآخرين، وذلك لنستعيد ونعكس أنفسنا، مما جعل الحياة صعبة بالنسبة إلى عائلاتنا».[12] لقد بقي مانديلا منفصلاً عن أسرته ما يزيد عن ربع قرن، وقد وجدوه الآن أقل وصولاً إلى نفوسهم بصفته رئيساً. كان مدركاً تماماً لخسارته، لكن لم يكن لديه الكثير ليفعله إزاء ذلك.

لم تلعب ويني أي دور في حياة مانديلا الاجتماعية لأنهما كانا منفصلين. قالت ابنتهما زندزي: «بدا وكأنهما لم يخلق أحدهما للآخر»[13] لكنها ما زالت تسبب مشكلات سياسية. فبعد حملتها القوية والناجحة مرشحةً عن المؤتمر الوطني الإفريقي في الانتخابات أصبحت عضواً بارزاً في المجلس النيابي. وقد عينها مانديلا ـ دون حكمة ـ كنائب لوزير الفنون، لكنها سرعان ما تورطت في فضائح مالية: صفقات مجوهرات مشبوهة، مشروع سياحي مريب للأمريكيين السود، وبرنامج لمكافحة الفقر، مما سمح لها بمصاريف ضخمة. لم يقم مانديلا بأية حركة إلى أن أصبحت خائنة خيانة صريحة، حيث اتهمت المؤتمر الوطني الإفريقي بأنه منشغل باسترضاء البيض، وتحدته بأن يُظهر أنه في السلطة.

وعندما أصر مانديلا على وجوب الاعتذار، وقعت ويني بغضب على اعتذار رسمي، لكنها تشكت بعد ذلك من أنها قامت بذلك تحت الإكراه، وأن المؤتمر الوطني الإفريقي كان يقيّد التحدث بحرية. ثم في آذار (مارس) 1995، بينما كانت في زيارة لغرب إفريقية ضد تعليمات مانديلا، تمت الإغارة على منزلها في سوويتو من قبل شرذمة احتيال، تدعمها الشرطة المسلحة التي استولت على الوثائق. وعند عودتها في اليوم التالي، انفجرت ويني ضدّ الثأر الوحشي من قبل «الدجالين والجبناء» وهاجمت الحكومة سريعاً أيضاً لتجاهلها الفقراء. قالت أمام جمهور إفريقي: «يبدو أن كفاحكم هو أسوأ مما كان قبلاً». في النهاية طردها مانديلا من الحكومة، مع أنه توجب إعادتها نتيجة خطأ قانوني

غير مقصود وذلك قبل أن يتم صرفها من الخدمة على نحو لائق. ما زالت ويني تدعي أنها كانت على حق، وأن أعضاء آخرين في المجلس النيابي كانوا في أية حال أكثر فساداً منها. قال مانديلا بحزن: «يجب أن نتوقع الرد من الرفيقة ويني، لكن الوضع لدينا هو تحت السيطرة».[14]

كانت نهاية الزواج، وكانا قد افترقا شكلياً قبل ثلاث سنوات، وفي آب (أغسطس) 1995 بدأ مانديلا بإجراءات الطلاق، آملاً في تسوية ودية لتجنب الاتهامات العائلية المضادة. لكن ويني ألقت اللوم على أعدائها، بمن فيهم رامافوزا، بإيجاد الصدع، وأصرت أن من الممكن مصالحتهما من خلال العادات القبلية؛ حتى إنها طلبت التوسط من ابن أخت مانديلا ك. دي. ماتانزيما الذي ما زال الزعيم الأعظم لتيمبدلاند الغربية.

في آذار (مارس) 1996، ظهر الرئيس مانديلا في محكمة راند العليا، بعيداً بضعة أقدام فقط عن زوجته، ليطلب الطلاق؛ وهذا عرض علني فذ لحياته الخاصة المؤلمة. قال شارحاً إنه قد أخر الطلب لأنه لم يرغب في أن يرتبط طلبه بجريمة قتل ستومبي سيبي. ورفض أية وساطة من قبل ماتانزيما، الذي كان قد طلب يد ويني في وقت من الأوقات الأمر الذي عدَّه مانديلا «خيانة بالمعنى الحقيقي للكلمة». قال للقاضي: «هل أستطيع طرح الأمر ببساطة يا سيدي؟ إذا حاول الكون بأكمله إقناعي بالتصالح مع المدعى عليها فإنني لن أفعل ذلك، وآخر ما أقبل به هو من ماتانزيما... أنا مصمم على التخلص من هذا الزواج». وصف بؤسه بحزن عندما كانت ويني لا تشاركه غرفة نومه عندما يكون مستيقظاً: «كنت أكثر الرجال توحداً...».

من خلال محاميها، وصفت ويني معاناتها الماضية بالذات. قبل مانديلا بذلك، لكنه أصر على أن هناك آخرين، مثل ألبيرتينا سيسولو، ممن عانوا أكثر، وطلب من المحامي عدم إجباره على كشف «الأسباب الأكثر جدية التي جعلته يترك البيت». وعندما رفض القاضي طلباً من محامي ويني بالتأجيل لبضعة أيام

لجمع الشهود، صرفت ويني محاميها بطريقة (دراماتيكية). وانتظر مانديلا بعبوس عودة القاضي إلى غرفة المحكمة ليمنحه الطلاق، منهياً بذلك الزواج الذي بدا في وقت من الأوقات حاسماً جداً بالنسبة إلى معنوياته السياسية. لكن ويني ظلت تعتبر نفسها زوجته: «إن سماعه يقول في محكمة رجل أبيض إنني كنت أتظاهر بحبه كان أكبر خيانة شهدها القرن».[15]

بقي مانديلا وحيداً في «عليائه الرائعة» وكان يسعى وراء الاسترضاء مع أشخاص لا يمتون للسياسة بصلة وذلك خلال عطلة الأسبوع. قال أحد وزرائه «إن عطلته لا علاقة لنا بها، ومثله مثل السياسيين الكبار الآخرين ـ مثل جاك كينيدي وهارولد ويلسون ـ أدرك الرفقة المريحة لمن يعملون في حقل الفن أو الأغنياء». وبعد عزلته الكئيبة في السجن بدا مبهوراً بشخصيات هوليود مثل ووبي غولدبيرغ أو غريغوري بيك، غير مدرك أنه مشهور أكثر من أي من هذه الشخصيات. ومهما كان مشغولاً مع الحكومة، كان يصدم زملاءه الأكثر صرامة بتخصيصه وقتاً لزيارة نجوم البوب مثل مايكل جاكسون أو فتيات التوابل، حيث كان يأخذ الصور معهم ويحييهم بإطراء. قال عن ويتني هيوستون: «أنا هنا لتلميع حذائها». «ولن أغسل هذه اليد لفترة طويلة». هذا ما قاله بعد أن صافح بيتر أوستينوف الذي كان قد شاهده في فيلم عندما كان في السجن.

أقلق مانديلا اليسار من خلال استمتاعه برفقة الأغنياء جداً. كان هاري أوينهايمر رأسمالياً غنياً من أصل إنكليزي ـ أمريكي، وكان قد قابل مانديلا مرة قبل دخوله السجن، وصار الآن مسروراً لاستضافته في قصره المترف في برينتثيرست، قرب منزل مانديلا في هوتون (مع إنه تم تذكير مانديلا بوجوب وضع ربطة عنق). وأصبح مانديلا مقرباً خاصة من كلايف مينيل، نائب رئيس مجموعة التعدين المنافسة «أنكلو ـ فال» الذي كان نصيراً للدراما السوداء بما فيها كينغ كونغ الموسيقية في عقد الخمسين. وقد أمضى أول عيد ميلاد بوصفه رئيساً في قصر كاب مينيل المنعزل في غليندريك في أسفل جبل تيبل. وعندما

كان مينيل يموت بسبب السرطان عام 1996، جلس مانديلا معه بصمت، ممسكاً بيده؛ وأثناء طقوس الجنازة قرأ تقدمة تعبيراً عن إجلاله لكرم الرجل الذي «ولد ضمن امتياز من نوع لا يعرفه إلا القليل من الناس». لكن مانديلا حافظ على نظامه الصارم؛ عندما جاء مينيل إلى غرفة نومه صباح أحد الأيام، وجد أن الرئيس قد رتب سريره وأنه كان يطوي بيجامته.[16]

لم يكن مانديلا شديد الحساسية في صداقاته. بعد أن أصبح منفصلاً عن ويني بقي لبعض الوقت في العزبة الرائعة لديوستين، المتهور وأحد ملوك التأمين الذي صنع نفسه بنفسه؛ وقد تم تمويل شهر عسل ابنته زندزي جزئياً من قبل ملك الكازينوهات صول كيرزنر، الذي اتهم سريعاً بالرشوة. لكن مانديلا بقي بعيداً عن قيم الأغنياء. عندما كان مقيماً في مقاطعة مترفة في الباهاما حيث يحيط به المنفيون السابقون، ألقى كلمة في تلاميذ مدرسة سوداء مجاورة، مما أذهل جيرانه البيض بلهجتها النضالية. وفي بعض الأحيان كان يَعُدّ رجال الأعمال الناجحين رفاقاً له في الزعامة. وفي جوهانسبورغ فاجأ مجموعة منهم بقوله: «أنتم الزعماء القبليون التقليديون في هذه المنطقة».[17]

كان جزء منه ما يزال زعيماً إفريقياً؛ وكان يشعر أنه في بيته في منزله المبني حديثاً في كونو في الترانسكي، كان المنزل يوصف دوماً بأنه على نسق سجن ـ منزل حيث أمضى عامه الأخير في السجن ـ وكان كذلك فعلاً. لكنه لم يوح بأنه سجن. إنه منزل طويل مبهج من القرميد الأحمر ـ ليس له درجات تزعج ركبة مانديلا ـ وله أقواس مستديرة وسقف عريض منخفض، وبعيد عن الطريق الرئيسي من أومتاتا وتحيط به حديقة معتنى بها وأشجار لتوفير العزلة. كان يطل على المنظر الطبيعي الجميل للترانسكي مع القليل من الأكواخ الطينية التي يغطيها العشب، حيث كانت مألوفة جداً من أيام طفولته. الترانسكي أفقر من ذلك، وفيه كثافة سكانية أكبر الآن مما كان في عقد العشرين مع القليل جداً من الأشجار أو الطيور، وقد عانت البلدات من فساد أعوام البانتوستات. لكن

المناظر الطبيعية المفتوحة ما زالت تحتفظ بروعتها التي لا يبليها الزمن. يقول مانديلا: «هذا هو وطني الحقيقي حيث جذوري. وقد أصبح أكثر أهمية؛ فكلما أصبحت مسناً أكثر شعرت بالحنين إلى الأماكن التي لك فيها ذكريات جميلة». (18)

في كونو كان مانديلا يمشي أحياناً خمس ساعات في الصباح، مستعيداً ذكريات طفولته حول المكان الرائع في مكيكيزويني، حيث يحييه الأطفال في الطريق. كانت تؤلمه رؤية فقرهم وأسمالهم البالية وأجسادهم النحيلة، لكنه يتشجع بمرحهم. وكان يستمتع في منزله بكرم ضيافته للعائلات في الجوار. فقد أشرف في إحدى المرات على احتفال استمر يومين لستمائة من الضيوف. أعده صديقه بانتو هولوميزا، حيث كان هناك عشرة مراجل، وستة عشر خروفاً وثور بكامله ذبح من أجل المناسبة وبعد ذلك تم تقديم البراندي للكبار.

شعر الكثيرون من الزملاء بأنه يجب أن لا يترك وحده أبداً، وقد لاحظ سيسولو أنه يشعر بالارتياح أكثر عندما يكون محاطاً بالناس.

أحب مانديلا الانغماس بالسياسات القبلية في وطنه الأصلي، حيث كان يسوي النزاعات المحلية بخصوص الدجاج أو البقر. واهتم اهتماماً وثيقاً بشق الطرق، حل قضية النساء العاملات في شق الطرق، وأكب على ضرورة تحويل أحد الطرق إلى المنزل السابق للزعيم الأعظم، ساباتا. كان يرى أحياناً ابن أخته ماتانزيما ـ الذي تقاعد الآن بهدوء في «قصره العظيم» قرب كوينزتاون ـ دارة واسعة حديثة. ما زال مانديلا يرى أن ماتانزيما خائف، وتحدث ماتانزيما عن مانديلا بتعال بوصفه أليف السجون الذي خرق القانون مع أنه يشرح أن «نيلسون حر في المجيء إلى هنا في أي وقت». (19)

كان لمانديلا علاقة أكثر ارتياحاً مع بانتو هولوزيما، الجنرال الشاب الذي أطاح بماتانزيما، وهو ينحدر من أسرة زعيمة أخرى من الجوار، وقد ساعد في تنظيم منزل مانديلا في كونو. بدا أنه يرى هولوزيما تذكيراً بشبابه النابض

بالذات، قال له: «عندما كنت في عمرك، كنت فاقد الصبر مع الرجال المسنين».[20] إلا أن مشاعر مانديلا القبلية لم يبد أنها قد أثرت على رعايته للناس: إذ تشكى سكان أومتاتا، العاصمة السابقة للترانسكي على بعد أميال قليلة من منزله، تشكوا من أنه لم يفعل إلا القليل لمساعدتهم.[21] كان ولاؤه المهيمن ليس لجيرانه المتشامخين بل للمؤتمر الوطني الإفريقي، وتعلم هولوزيما من خلال تجربته أنه لا يمكنه تحدي المؤتمر الوطني الإفريقي من غير خسران ثقة مانديلا.

في تلك العوالم المختلفة بقي مانديلا مؤدياً لامعاً يمكنه أن يلعب كل الأدوار: الزعيم الإفريقي، الرئيس الغربي، الرياضي، الفيلسوف، المازح بـ «Madila Shuffle». ما زال يحب تغيير الملابس كما كان في عقد الخمسين، وهو يتحول الآن (دارماتيكياً) من بزة سوداء إلى قميص مشجَّر واسع، ثم إلى قميص صوفي للركبة إلى قميص قطني وقبعة بيسبول. كان يمكن تحويله بسرعة من رئيس الدولة العنيد إلى المفضل عند الشعب. وكان يغير أحياناً مواقفه على غير توقع؛ عندما تظاهرت نقابات العمال بغضب خارج مكتب الرئيس في كيبتاون، ظهر فجأة بينهم، مما أزعج زملاءه في الوزارة. قال أحدهم: «لكنني تعلمت أن لا أقلل من قدر مهاراته السياسية، ربما يعني هذا أنه سيوجه لهم قريباً ضربة أكثر قسوة».

بدا مانديلا وهو قادر على الانسجام مع أي جمهور للناخبين. كان يرد بقسوة معظم كلماته التي كتبها فريق متعدد العروق برئاسة جوويل نيتشيتينزه، وينظر من خلال نظارته من غير أن يحاول إقامة تواصل عيناً بعين مع مستمعيه لكنه ينزع نظارته في النهاية ويقول: «هذا ما قاله رؤسائي». الصحفيون ينظرون إلى الأعلى، والمستشارون يقطبون. وهو يأتي بأفكار بسيطة أو ذكريات. وهو يحب ترديد قصصه المفضلة، إما عن أنه انتُقد من قبل طفل، أو عن الناس الذين أخطؤوا وظنوا أنه نيلسون مانديلا، وذلك ليذكر مستمعيه أنه مجرد رجل

مسن وعرضة للخطأ، وأنه سجين سابق وجد نفسه بالصدفة في هذا المركز الغريب. كان بإمكانه التعامل مع جاذبيته من غير أن ينخدع.

في شهوره الأولى رئيساً، استمتع بشهر عسل رائع. لا سيما مع الجنوب أفريين البيض الذين شعروا مع هذا الرجل المسن المتسامح براحة مدهشة. لم يكن في عجلة من أمره ليعيد تسمية الشوارع والضواحي والمطارات التي كانت تخلد ذكرى أبطال أفريقانيين مثل بوثا، وستريجدوم أومالان، من الشخصيات القديمة المكروهة من الأغلبية السوداء، أو ليعيد تسمية بناء فيروورد، الذي كان يضم دوائر الحكومة في كيبتاون. لقد ولّد جواً من الاستقرار والحالة السوية بددت جميع الجاثومات (الكوابيس) البيضاء الماضية عن ثورة سوداء. في نهاية الأيام المئة الأولى في مركزه، لم يكن بمقدور الفانينشال تايمز إيجاد بيض يتكلمون عنه بالسوء.[22] كانت حالة سوية لها مخاطرها بالذات، لأن الناشطين رأوا أن الثورة قد تمت خيانتها؛ وعرف الزعماء الأصغر سناً في المؤتمر الوطني الإفريقي بمن فيهم ثابو مبيكي أن عليهم القيام سريعاً بإصلاحات من شأنها أن تزعج البيض. وتذكروا كيف أن روبيرت موغابي كان له شهر عسل مماثل بعد أن استلم السلطة في زيمبابوي عام 1980، ليكسب فقط عداء البيض عندما شرع بتغييرات جذرية بعد ذلك بخمسة عشر عاماً.

لكن مانديلا بدا الآن فوق السياسات. زعيم الحزب الذي يقوم بحملة، الرجل القاسي خلال المفاوضات، كل ذلك تحول إلى شخصية الأب الذي يمكنه التعاطف مع مشكلات كل شخص. في حفلات الكوكتيل التي كان يقيمها البيض كان يحرك الغرفة بأكملها. حيث يجعل كل شخص يشعر أنه مفضّل ولا سيما النساء. «الآن أعرف سر نجاح زوجك». كان يقول ذلك لزوجة شخصية بارزة ـ كانت تشعر أحياناً بالخيبة لسماعه يقول الشيء ذاته لامرأة أخرى بعد ذلك بعدة دقائق؛ قالت زوجة أحد المحررين: «لكنني ما زلت أشعر بالانجذاب حتى لو قال إن هناك قطعاً من السبانخ على أسناني».

كان معظم البيض يرفضون انتقاده، مهما كانت شكواهم بخصوص الحكومة السوداء، كانوا يستثنون مانديلا ويلقون اللوم على مرؤوسيه. ومثله مثل رونالد ريغان بدا أنه رجل «تيفلون»، حيث لا تستمر أية تهمة ضده؛ أو مثل ملك تقليدي حيث يُلقى اللوم في أخطائه على رجال بلاطه.

بدا مانديلا في معظم الأحيان كأنه ملك وليس سياسياً؛ وخاصة عندما استقبل ملكة بريطانية في زيارة رسمية في آذار (مارس) 1995، وأقام صداقة فاجأت حاشيتهما. وعندما كان طالباً قبل ثمانية وأربعين عاماً كان يراقبها عندما كان والدها الملك يقوم بزيارة رسمية. والآن رأى كلاهما التمييز العنصري وهو يأتي ويروح، في حين كانت الملكة متعاطفة مع الجنوب إفريقيين السود خلال سنوات تاتشر.[23] انسجم مانديلا انسجاماً طبيعياً، مع الاحتفالات الملكية الفخمة، وانتهز الفرصة لاسترضاء الزعامة الإفريقية بدعوته ثلاثة عشر ملكاً جنوب إفريقي إلى مأدبته الرسمية. منحته الملكة وسام الاستحقاق، وهو أكبر وسام بريطاني يُشتهى، ودعته إلى القيام بزيارة رسمية رداً على زيارتها؛ قالت: «أنت ضليع جداً بصنع التاريخ. لكنني آمل أن يكون مصلِّحاً حتى بالنسبة إليك». بدا مانديلا أحياناً وكأنه يخطف البريق، لكن الملكة بدت مرتاحة على غير المألوف؛ وكانت تتذكر كثيراً فيما بعد استمتاعها بصحبة مانديلا. وقد قدّرت بخاصة حقيقة أنه أخّر طلاقه المحتوم لتفادي أن يلقي بظلاله على المناسبة.[24]

كان مانديلا يظهر أحياناً مثل الملك ـ الفيلسوف، وكأن جزءاً منه لم يغادر السجن بتاتاً، وما يزال ينظر إلى بلاده من زنزانته المنعزلة. قال زميله كاثرادا «يمكنهم أن يُخرجونا من روبن آيلاند، لكن لا يمكنهم أن يُخرجوا روبن آيلاند منا».[25] يحب مانديلا التحدث عن المبادىء الأولى ـ عن التسوية والكرامة الإنسانية والحب ـ وتجد أمينات سره أحياناً أنه ساذج فيما يتعلق بالشؤون الدولية، فهو يميل إلى رؤية الديبلوماسية في مجال الاتصال بين الأفراد، من

كلينتون إلى الملكة، وكأنه ما يزال في القرن التاسع عشر. لكن وجهة نظره البسيطة منحته نفاذ بصيرة. قال أحد الزملاء في الوزارة: «مثله مثل الرجال العظام الآخرين، فإنه لا يخشى من البساطة. وهو مستعد لأن يكون بسيطاً بدون التظاهر بذلك، ليرى ما وراء المستقبل الحالي».

أحب مانديلا أن يقول ـ للملكة من بين الآخرين ـ: «أنا مجرد فتى أرياف» وهناك بعض الحقيقة في ذلك. قال أحد مستشاريه المقربين: «لقد اكتشفت أنه ريفي جداً». وقد قارنه ديفيد بيريسفورد من الغارديان بدور الجنائني البسيط الذي لعبه بيتر سيلرز في فيلم «كَوْني هناك» الذي يَعُدّه السياسيون حكيماً مطلقاً والذي دعوه ليصبح مرشحاً رئاسياً. قال بيريسفورد: إن عظمة مانديلا لا تكمن في مهاراته السياسية أو العسكرية بل في تطابقه البسيط مع بلاده: «إبداع الخيال الجماعي، تعبير عن التطابق الوطني المرغوب فيه بعمق في بلاد ممزقة بمرارة». وبدا بالنسبة إلى البيض والسود كأنه برز بوصفه رجل القدر، لإنقاذ شعبه من الكارثة: «جاءت الساعة، جاء الرجل».[26]

35

عرش القيادة

تمتع الرئيس مانديلا نظرياً بسلطات قوية في ظل الدستور الجنوب إفريقي؛ فبوصفه رئيساً للدولة ورئيساً للحكومة في آن واحد، كان مثل رئيس فرنسي، لكن بلا رئيس الوزراء الذي يختار بذاته أعضاء وزارته. وكان نائبه الأول ثابو مبيكي يتمتع بالسلطات التي اختار مانديلا منحها له، والتي يمكن أن تُسحب منه بسرعة. ويمكن للرئيس أن يكون متحفظاً في لحظة ثم يغرق بالتفاصيل في اللحظة التالية. كان يميل إلى التصرف الشخصي فهو لم يعمل أبداً بسهولة مع البيرقراطيات، وكره العمل الورقي. لقد ميز قدرته الشخصية، حيث منح الأصدقاء القدامى وظائف كبيرة مثل مناصب السفراء وراقب دهشتهم. وقد استغل إلى أبعد حد إمكانيته في الوصول إلى وسائل الإعلام، معبراً عن آرائه بقوة، وناسياً أحياناً أنه جزء من وزارة جماعية. وأصبح بعض المعلقين منزعجين، وقد اتهم بأنه «مقامر متهور» وأنه «Shooting from the hip»[1].

ما زال مانديلا يظهر بعض الميول السلطوية التي كانت تتناقض مع الضوابط الديمقراطية، وخشي بعض الناس من أنه ربما يظهر وكأنه إفريقي أوتوقراطي آخر، مثل نكروما أو موغابي، مستغلاً تقاليد الزعيم القبلي. انتظر أصدقاؤه القدامى ظهور علامات الأوتوقراطية. وبقي ولتر سيسولو يراقبه مثل المدرب الذي يراقب بطله. لكنه اطمأن سريعاً: «ليست لدي مخاوف من أن

يبرز منه ديكتاتور» هذا ما قاله عام 1993.[2] كان لدى مانديلا احترام كبير ـ ربما كبير جداً ـ للديموقراطية الإفريقية.

أدرك بسرعة ـ كما حذره دوكليرك ـ أن الرئيس لديه سلطة أقل مما يبدو. وبإمكانه أن يحكم بفعالية عن طريق زملائه وموظفيه فقط، الذين يجب أن يتم إقناعهم بصبر؛ ولا يمكنه فرض سياسته عبر الوزارة. لقد حذر أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي قبل أن يصبح رئيساً بعام قائلاً: «من السهل نسبياً... الفوز في الانتخابات. لكن عندما تنالون ذلك فإنكم تستلمون مكتباً سياسياً، وليس لديكم سلطة سياسية».[3] وما زال يتعين عليه أن يحمل معه المؤتمر الوطني الإفريقي عبر الانتقال من التمرد إلى الحكومة المسؤولة، وذلك في وجه الاتهامات بأنه كان يخون الثورة.

نهاية عام 1994 افتُتح المؤتمر التاسع والأربعون للمؤتمر الوطني الإفريقي في بلومغونتين. واعترف بمشكلات التسوية التاريخية لـ Sunset clauses التي رسخت البيروقراطيين الأفريقانيين من نظام الحكم السابق؛ وما زال قيد النقاش «ما إذا كنا نحصد اليوم زوبعة الخطأ الرهيب في التقدير». لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان فاقداً للتنظيم ـ كما شرح ـ بحيث «يحتمل أن يعرض الثورة للخطر». وقد سرّعت الزعامة من عملية الانتقال بقرار الاستيلاء أولاً على رؤوس الجسور الساحلية، ثم تعزيز القوات الخاصة بها. ويجب على المؤتمر الوطني الإفريقي أن لا يَعُدّ نفسه «ضعيفاً مقيداً من كل الجوانب ببعض الاتفاقيات الرهيبة».[4]

في كلمة الختام تشكى مجدداً من عدم كفاءة المؤتمر الوطني الإفريقي، كما كان قد فعل قبل أربعين عاماً؛ الأمر الآن أكثر جدية منذ أن وصل المؤتمر إلى السلطة. قال: «مما يدعو إلى السخرية أنه يجب على المؤتمر الوطني الإفريقي التحدث كحكومة عن النظام المالي، والهدر واللافعالية «في الوقت الذي ليس فيه نظام مالي للمؤتمر الوطني الإفريقي، وهناك هدر، توجد

اللافعالية». ناشد المندوبين على إنفاق المزيد من الوقت في التفكير، كما كان يفعل في السجن؛ مرحباً بالمعارضة، وتذكر أن السلطة تفسد وأن السلطة المطلقة تفسد مطلقاً». إلا أنه هنأ أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي لكونهم متحدين أكثر من أي وقت مضى، في حين أن المندوبين ولأول مرة في تاريخهم «ناقشوا إعادة البناء والتطوير وليس المقاومة».[5] انتخبوا هيئة تنفيذية وطنية من ستين شخصاً، وكانوا ناشطين نشاطاً واضحاً أكثر من سابقيهم، كان خمسة في القمة هم: بانتو هولوميزا، بالو جوردان، بيتر موكابا، ماك ماهاراج وويني مانديلا. لكن مركز مانديلا بالذات بقي قوياً كما هو.

كان مانديلا باختياره حكومته بالذات، يأمل أولاً بإنشاء أوسع إئتلاف ممكن. وإدخال الحزب الديموقراطي، وجبهة الحرية والـ PAC: ناشد رئيس الـ PAC كلارينس ماكويتو أربع مرات بلا نجاح.[6] وبموجب بنود حكومة الوحدة الوطنية توجب عليه إدخال دوكليرك وحزبه الوطني. كان هناك اختلاف مرير إلى حد ما بخصوص المراكز الحكومية، واشتكى دوكليرك من أن مانديلا لم يتشاور معه بخصوص الوزراء من المؤتمر الوطني الإفريقي.[7] أراد دوكليرك أن يسيطر حزبه إما على الشرطة أو على الدفاع؛ لكن مانديلا أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي يجب أن يسيطر على الإثنين، لأنه وحده يمكنه معالجة مسألة القوة الثالثة.[8] يتوجب على الحزب الوطني أن يرضى بمراكز أقل؛ رويلوف ميير كوزير للشؤون الريفية والتطوير الدستوري؛ كراي فان نيكيرك للزراعة، داوي دوفيلييرز للبيئة، وبيك بوثا وزير الخارجية القديم، وزيراً للمعادن والطاقة.

ضم وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي أصدقاء قدماء لمانديلا من كل مرحلة من مراحل حياته تقريباً. جوي موديس، وزير الدفاع كان زميلاً في جوهانسبورغ في عقد الأربعين، ألفريد نزو وزير الخارجية كان زعيماً لمقاطعة الحافلات عام 1958؛ جوي سلوفو وزير الإسكان، كان إلى جانب مانديلا منذ

محاكمات الخيانة، ماك ماهاراج وزير النقل كان صديقه المخلص في روبن آيلاند، دولا عمر وزير العدل كان يزوره كثيراً في ولسيمور مستشاراً قانونياً له. وقد أتى اثنان من خلفية ذات زعامة: باثيليزي وزير شؤون الوطن الآن، وستيلا سيغكو ابنة ملك بوندولاند في الترانسكي، التي أصبحت وزيرة المشاريع العامة. لكن مانديلا التقى مؤخراً بالعديد من الوزراء الأصغر سناً، الذين جاؤوا من كل فرع من فروع الكفاح بما فيهم المنفيون مثل تيتو مبو ويني وزير العمل، وجيف راديبي وزير الأشغال العامة. كانت هناك شكاوى من أن المنفيين تم تفضيلهم على الزعماء الداخليين، لكن سيريل رامافوزا المؤهل أكثر من غيره للانتخاب رفض منصباً وزارياً، وكان العديد من الوزراء الجدد ناشطين داخليين بارزين في عقد الثمانين، من بينهم جاي نيدو، سيدني موفامادي، وتريفور مانيوويل. كان أكبر مظهر ملفت لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي هو مدى الخلفية والعرق، بما فيهم البيض والهنود، والملونون والمسلمون والمسيحيون والشيوعيون حيث جُمع بعضهم مع بعض نتيجة كفاح أربعين عاماً. ومديراً لمكتبه بالذات وأمين سر لمجلس الوزراء اختار مانديلا جيكس جيرويل الأكاديمي الملون البارز والفيلسوف والخبير بالأدب الأفريقاني الذي أيد «الوعي الأسود» قبل أن يصبح نائب مستشار لجامعة الكاب الغربي.

اعتمد مانديلا بقوة منذ البداية على نائبه الأول رئيساً وهو ثابو مبيكي، الذي كان أصغر منه بخمسة وعشرين عاماً، وهو المنفي الرئيسي. كانت لدى مبيكي مهمة صعبة؛ كان معتمداً على رئيسه مثل نائب الرئيس الأمريكي، لكن مع مسؤوليات أضخم بكثير. كان مانديلا يحصد مديح الانتصارات في حين كان مبيكي يُلام على الأخطاء. وقد طور أسلوباً شبه مناقض لأسلوب مانديلا، حيث كان يعمل من وراء ستار، وقد تعلم درسه من مصلحة تامبو، في حين قاد مانديلا من الواجهة. كان مبيكي ينفث دخان غليونه بغموض، ويثبت ويساوم من وراء الستار عبر مجموعة صغيرة من الموثوقين. حتى إن عاداتهما اليومية

كانت بلا انتظام. كان مانديلا يستيقظ باكراً ويذهب للنوم باكراً، وكان دقيقاً بصرامة. في حين كان مبيكي غير مبال بالمواعيد، ويحب السمر في الليل. لكن مهاراتهما كانت متكاملة؛ كان مبيكي حلاّل العقد؛ حيث يلتقط القطع المبعثرة ويملأ الثغرات. وكان يعاني دوماً من السؤال العالمي المتكرر: «بعد مانديلا»؟ لكن مثله مثل أي نائب زعيم قوي ـ مثل ترومان في عهد روزفلت أو بومبيدو في عهد ديغول ـ كان من المستحيل تقييمه في حين ما يزال تحت ظل الدوحة العظيمة.

أمضى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي وقتاً قبل أن يعتادوا الجلوس في الوزارة جنباً إلى جنب مع أعدائهم السابقين: «ما زال من الواجب عليّ أن أضغط على نفسي لأتذكر أين أنا». قال قادر أسمل وزير المياه بعد ذلك بعام.[9] لكن بعض الثوريين السابقين برهنوا على أنهم من أكفأ الإداريين. جوي سلوفو أمين السر العام السابق للحزب الشيوعي ورئيس أركان الـ MK، أعاد تنظيم وزارته ـ الإسكان ـ حيث جلب المدير العام السابق لديه وناقش البنوك لتقديم قروض بشروط أسهل. تلقى مانديلا ضربة كبيرة عندما مات سلوفو بالسرطان في كانون الثاني (يناير) 1995، بعد ثمانية أشهر فقط في المنصب. أظهرت جنازته التناقضات الظاهرية للثورة السلمية: ندب الآلاف من السود الزعيم الأبيض؛ أعتى أعداء الأفريقانيين الذي اقترح منذ البداية ائتلافاً معهم، والمثالي الثوري الذي أصبح أكثر السياسيين مرونة وعملية. قال مانديلا أمام قبره إن سلوفو كان رجلاً «عرف متى يقاتل ومتى يفاوض».[10]

عندما أشرق مانديلا على وزارته المختلطة من سود وأفريقانيين، دهش لأنه وجد معظم المناقشات كانت غير مشايعة، والتزم الأفريقانيون بحق لجعل الائتلاف يعمل: «ستعتقد أنهم كانوا أعضاء في الحركة الديموقراطية».[11] «الجو لم يكن دافئاً لكنه لم يكن بارداً» قال بالوجوردان: «معظم السياسة كانت تتماشى مع ما أراد المؤتمر الوطني الإفريقي».[12] قال قادر أسمل عن الحزب

الوطني: «كانت لديه عين ضاربة بخصوص التفصيلات ربما برهنت على أنها مفيدة في مشاورات مجلس الوزراء، على الرغم من أن أداءه الشامل حول العديد من القضايا ذات الأهمية لم يكن مفيداً جداً».[13] وفوجيء الإفريقانيون من جهتم لسماع وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي وهم يتناقشون علناً بعضهم مع بعض، بلا وجود إشارة إلى أن مؤتمراً حزبياً قد وافق على سياستهم مسبقاً. شعر دوكليرك بالرضا حين وجد نفسه أحياناً وهو يحكم في النزاعات بينهم.[14] قال أحد المشاركين: «كانت هناك صداقة حميمة كمدرسة داخلية صبيانية، كانت جنوب إفريقية بالذات. 99٪ من النقاش لم يكن أيديولوجياً بل مملاً في معظم الأحيان إلى حد كبير؛ لا يمكنك القول إنهم أتوا من أحزاب مختلفة، وكانت الخلافات تعود في معظمها إلى أعمارهم، أكثر من أن تعود إلى أيديولوجيتهم».[15] وبقي الوصول إلى السلطة مبهجاً بالنسبة إلى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد ذكّر قادر أسمل بأبيات سيموس هينيز:

ولكن مرة واحدة في العمر
يمكن أن ترتفع موجة مد العدالة
التي طال انتظارها
ويتناغم الأمل والتاريخ[16]

لم تكن العقيدة الماركسية تسير وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي كما تكهن مناوئوهم اليمينيون في معظم الأحيان، وأظهر الكثيرون من الأعضاء الماضين في الحزب الشيوعي لجنوب إفريقية مثل ثابو مبيكي وماك ماهاراج أظهروا القليل من الاهتمام بالماركسية. ظهرت الآن القصص المرعبة عن استيلاء شيوعي، لا صلة لها بالموضوع، عندما جلس الوزراء من جميع الانتماءات السياسية معاً لحل المشكلات يوماً بعد يوم.

هيمن مانديلا على الوزارة بأكملها، ليس بصفته رئيساً فقط بل بصفته الأكبر سناً، حيث كان عمره يعادل ضعف عمر الكثيرين من الآخرين، ومع

خبرة وسمعة فريدتين. تحدثوا عنه بوصفه «الرجل المسن». وكانوا ينادونه باسم «ماديبا» صراحة أكثر من «السيد الرئيس». ولكن دوماً مع الاحترام. كان في نفس عمر تشرشل عندما عاد رئيساً للوزراء عام 1951 وهو في السادسة والسبعين، ليستقيل في الثمانين. ومثله مثل تشرشل فقد جسّد روحاً وطنية سيطرت على السياسات اليومية. كان يدير اجتماعات الحكومة إدارة متقطعة حيث كانت تنعقد كل أسبوعين، ولم يكن يقوم بتدخل استراتيجي إلا لماماً. قال ماك ماهاراج: «كان ينصت بهدوء، ويستوعب كل شيء ثم يتدخل».[17]

طلب مانديلا من جورج بيزوس أن يتحرى كيف استطاع رؤساء حكومات معالجة وزارات مختلطة. وجاء بيزوس بمثال كليمانصو في فرنسا من عام 1917 حتى 1920 ـ الذي كان يعطي رأيه بعد الاستماع لكل وجهات النظر ثم يسأل: «أية استقالات؟» كان مانديلا يتبنى أحياناً «حل كليمانصو» ولم يقدم أحد استقالته.[18] وكان فخوراً لأن أية قضية لم تصل إلى مستوى الاقتراع. أبعد نفسه عن معظم التفصيلات لكنه انغمس بعمق في لجان الوزارة حول الأمن والاستخبارات. قال أحد المشاركين: «كان يتابع ذلك باستحواذ، إذ ما زال العامل القديم في السر، المقاتل الفدائي». وفي الاجتماعات الأصغر كان يتدخل تدخلاً طفيفاً لكن بحزم. قال أحد الزملاء: «إن حزمه هو أكثر ما أحببته فيه، كانت المذكرات تستغرق عشرة دقائق فقط ثم يتخذ قراره».[19]

كان يعاني بعض الصعوبة مع عدوين قديمين، دوكليرك وباثيليزي. وبوصف دوكليرك النائب الثاني للرئيس، فقد كان يتناوب مع مبيكي في الإشراف على الوزارة عندما يكون مانديلا غائباً، أو عندما يقرر الانسحاب. كان النائبان يلتقيان كثيراً لتسوية المشكلات؛ حيث يُسمعان مصادفة وهما يضعان جداول الأعمال بطريقة حبية. كان من الصعب تذكر أنهما كانا عدوين لدودين. كان دوكليرك متأثراً بنفاذ بصيرة مبيكي وإدراكه «للحقائق الأساسية للحكومة الحديثة».[20] إلا أن وضعه كان أصعب مع مانديلا؛ فقد أدرك أن

مانديلا لا يثق به. وسأل الأصدقاء المشتركين لماذا كان الأمر كذلك؟ السبب كان واضحاً: ما زال مانديلا يشعر بالخيانة من تستر دوكليرك على القوة الثالثة. قالت إحدى أمينات السر «هناك شيء واحد لا يستطيع مانديلا أن يصفح عنه، وهو الطعن في الظهر». وما زال مانديلا ينظر إلى دوكليرك بوصفه يحاول بث الانقسام في المؤتمر الوطني الإفريقي: «(تكتيكه) هو في مدح الرئيس، ثم مهاجمة وإضعاف المؤتمر الوطني الإفريقي».[21] وقد رفض مانديلا على الدوام أن يعامله أحد وكأنه يتفضل عليه، قال أحد المستشارين: «إنه يغضب إلى أشد الدرجات عندما يشعر أن كرامته قد أسيء إليها».

انفجر التوتر كاملاً في كانون الثاني (يناير) 1995، خلال اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة مبيكي. كان مانديلا قد اكتشف أنه قبل الانتخابات مباشرة منح الأمان لـ 3500 من رجال الشرطة من المقاضاة لجرائم ارتكبت خلال سنوات التمييز العنصري، وشن حملة تقريع مطولة بشأن عفو دوكليرك بمكر، وعدم إخلاصه للحكومة الإئتلافية. امتدح وزراء أفريقانيين آخرين بمن فيهم رويلوف مير وبيك بوثا. مركزاً قوارصه على دوكليرك. قال أحد المراقبين: «كان هجوماً خشناً، لكن مع فقرات وجمل انتقيت بعناية». بدأ دوكليرك يتخلى عن أوراقه وقال إن عليه إعادة النظر بمنصبه. لكن زملاءه حثوه على البقاء في الحكومة. وفي صباح اليوم التالي التقى مانديلا «بنفسيته القديمة الساحرة». وبعد الظهر عقدا مؤتمراً صحفياً مشتركاً، وافقا فيه على توضيح موضوع الشرطة.[22]

كان دوكليرك كارهاً لتمزيق الائتلاف. قال لي بعد ذلك بخمسة أشهر: «إننا لن نقلب عربة التفاح، مع أن بعض التفاحات سوف تسقط».[23] اندفع مانديلا بعنف ضد دوكليرك عندما طلب العفو عن الجرائم السابقة للأفريقانيين. وعندما دافع دوكليرك في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995 عن وزير دفاعه السابق ماغنوس مالان الذي اتهم بجريمة، قال مانديلا إن دوكليرك أصبح نكتة: «أنا رئيس هذه البلاد، وأنا سأقرر من يستحق العفو وليس هو»[24] كان دوكليرك

بدوره قد سئم من مانديلا: «إنه يعتقد أن بإمكانه التحليق دون تحري الحقائق، وحل المشكلات بالجاذبية والوعود». كتب فيما بعد: «إن زواجنا لم يكن أبداً زواجاً ناتجاً عن حب، والآن انتهى شهر العسل».[25]

كان باثيليزي ـ المشكلة القديمة الأخرى لمانديلا ـ قد عين وزيراً لشؤون الوطن، لكن ولاءه ما زال قيد التساؤل، وقد انتقد مانديلا لتراجعه عن وعده قبل الانتخابات بالسماح للوسطاء الدوليين بتسوية موضوع الاستقلال الذاتي لكوازولو ناتال؛ قال لاحقاً: «لقد أهان التزاماً مقدساً، إنه مثل قولك لزوجتك: «إلى أن يفرقنا الموت» ثم تسبب لك الخيبة».[26] أصبح باثيليزي تمزيقياً خطراً؛ فقد قاطع المحادثات الدستورية الأولى، ثم دعا الزولو لمقاومة الحكومة المركزية: «إن مسيرتنا إلى الحرية قد بدأت». رد مانديلا بمبالغة مهدداً بوقف الأموال عن كوازولو وفرض حالة الطوارىء؛ اعتقد دوكليرك أنه يريد سحق الإنكاثا بالقوة.[27] قام مانديلا وباثيليزي بمصالحة أخرى لكن صداماتهما الشخصية استمرت. وتُرك الأمر إلى ثابو مبيكي وجاكوب زوما لصنع السلام في النهاية مع الإنكاثا بأسلوبهما اللطيف.

كان مانديلا مهتماً اهتماماً بالغاً بالمشكلات الأوسع في نقل الدولة من حكم الأقلية البيضاء إلى الديموقراطية المتعددة العروق. وفر المجلس النيابي الأبهة المرئية «لدولة قوس قزح» حيث كان هناك أربعمئة عضو في المجلس النيابي من جميع الألوان يملأون القاعة، وقد تحول الثوريون إلى مشرّعين. شرح الأسقف توتو قائلاً: «إنني أحب هذا الحلم، أنت تجلس في الشرفة وتنظر إلى الأسفل وتعد جميع الإرهابيين. إنهم يجلسون هناك جميعاً ويصدرون القوانين. هذا لا يُصدّق».[28] إن أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي البالغ عددهم 252 شخصاً ـ حيث ارتدى العديد منهم الأثواب الملونة أو البراقة ـ، فاقوا بكثير أعضاء الحزب الوطني بملابسهم الوقورة. تم تغيير شكل الافتتاح السنوي للمجلس النيابي في شباط (فبراير) 1995. فالقوات ما زالت

تقوم باستعراض خارج المبنى، وقد وصل الرئيس مع حراس مسلحين، وأطلقت المدافع تحية له؛ وقامت جوقة سوداء بالغناء في المدخل، كما عُزفت «موسيقى سوويتو، في الشارع». وفي الداخل؛ كان الجنرالات قد خُفضت مراتبهم إلى الوراء في حين تقدم القضاة إلى الأمام. سار مانديلا عبر القاعة، وهو يصافح البيض والسود، وألقى كلمته رسمياً من نص مكتوب، مضيفاً بين الحين والآخر فقرة مرتجلة. وعندما توقف ليشرب بعض الماء انتظر الأعضاء بصمت كامل إلى أن رفع كأسه وقال «نخبكم».

أراد مانديلا أن يستخدم المجلس النيابي لتوحيد ديموقراطية غير عرقية، وكان يهمه أن «لا تهبط حكومة الوحدة الوطنية إلى الجذور»[29] وكانت تؤيده في ذلك الناطقة الجديدة، فرين جينوالا المحامية البارسية القوية التي خدمت في المؤتمر الوطني الإفريقي لثلاثين عاماً في تنزانيا ولوساكا ولندن. والتي أرادت الآن أن تعلم المؤتمر الوطني الإفريقي استخدام المجلس النيابي الذي اعتبره المؤتمر عدواً له منذ زمن بعيد.[30] رأت في الديموقراطية النيابية نبتة ضعيفة، محاطة بالتقاليد الاستبدادية، وحاولت العودة إلى المبادىء الأولى في التعلم من النماذج الأوروبية والأمريكية. كانت لمانديلا معاركه الودية الخاصة مع جينوالا؛ فقد قاومت الاستسلام للهيئة التنفيذية، وكانت ملتزمة بفصل السلطات. وعندما قبّلها على خديها قالت له: «أنا لست واثقة من أنه يسمح لك بتقبيل الناطق».[31]

كانت المهمة الأهم بالنسبة إلى المجلس النيابي هي المصادقة على دستور جيد ـ كان من الواجب تأكيده وتعزيزه من قبل محكمة دستورية ـ وعلى رأسه آرثر تشاسكالسون، المحامي الذي ساعد في الدفاع عن مانديلا في محاكمة ريفونية قبل ثلاثين عاماً. كان ذلك نقضاً حاداً للأدوار؛ عندما افتتح مانديلا المحكمة رسمياً في شباط (فبراير) 1995، ذكّر المحامين أن آخر مرة كان فيها في المحكمة كان يترقب فيما إذا كان سيحكم عليه بالموت. وكانت عقوبة

الموت هي التي وفرت أول جدال داخل المحكمة الدستورية. أراد مانديلا من المجلس النيابي أن يَبُتَّ فيما يتعلق بموضوع العقوبة القصوى؛ اعتقد أنها قضية أخلاقية، وآمن شخصياً أن أي بلاد متحضرة يجب أن لا تسمح بها. لكن مجلس الوزراء قرر إرسال المسألة إلى المحكمة التي أعطت حكمها بالذات، وهو أن عقوبة الموت ليست دستورية. كانت المحكمة ستؤكد بسرعة على استقلالها عن الرئيس؛ فعندما أصدر مانديلا بيانين يؤثران على الانتخابات في الكاب الغربي، لجأ رئيس الوزراء هيرنوس كريل إلى المحكمة التي وجدت أن الرئيس قد تجاوز سلطاته. وخلال ساعة قبل مانديلا بالحكم، كما يتذكر في كثير من الأحيان.[32]

الدستور الجديد الذي من شأنه أن يحل محل الاتفاقية المؤقتة تم تعديله ببطء من قبل رامافوزا وفريقه، وصولاً إلى تسويات تطمئن جميع الأحزاب، وتضمن ما يحمي لغة وثقافة الأفريقانيين. وبعد بعض الجدل طُرح أمام المجلس النيابي في تشرين الأول (أكتوبر) 1996، مع نسخ موزعة حرفياً وفورياً من قبل الصحافة. تشكى السياسيون من جميع الأحزاب؛ من الـ PAC حتى جبهة الحرية؛ حول مواطن الضعف فيه، لكنهم صادقوا عليه في النهاية. قال دوكليرك إنه يظهر أن الحكومة لا يمكنها أن تفعل ما يريدونه بكل بساطة. أما رامافوزا الذي كان يودع المجلس النيابي فقد هنأ الأحزاب على الارتقاء فوق مبادئها.[33] لكن المصادقة على الدستور لم تضع حداً للنقاشات، ولا سيما حول عقوبة الموت، التي نادى اليمينيون السود والبيض على حد سواء وبسرعة بوجوب إعادتها إلى الدستور.

وبينما كان المجلس النيابي يضم مختلف الأعراق والألوان، فإن المعارك الحقيقية لتحويل البلاد كانت تُشن داخل دوائر الحكومة. وأدرك المؤتمر الوطني الإفريقي سريعاً القيود الكاملة لـ «Sunset clauses». إنها تشكل رسماً

ساخراً لمشكلة أية حكومة راديكالية جديدة تحاول دفع الإصلاحات عن طريق الرسميين المحافظين. راقب وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي أشرطة ڤيديو للسلسلة البريطانية الساخرة، نعم أيها الوزير، حيث أعاق الموظفون الماكرون الإصلاحات التي كان يقوم بها أسيادهم السياسيون؛ لكن أساس طبقة الموظفين في جنوب إفريقية كانت زحزحته أصعب بكثير من وايت هول. ارتاب بعض الوزراء السود بأن موظفيهم الأفريقانيين يخوضون معارك الحرب العنصرية القديمة من جديد ولكن عن طريق القيام بأعمال القنص والكمائن داخل غرف تصنيف الوثائق وآلات الإتلاف. كان مانديلا مدركاً لوجود جيوب من المقاومة الأفريقانية اليمينيّة ـ في الشرطة والجيش والاستخبارات ـ تقف في وجه أية إصلاحات؛ لكنه اعتقد أن معظم الموظفين كانوا متعاونين.[34]

كانت هناك صدامات مقلقة بين الوزراء المصلحين الأكثر تصلباً ومديريهم العامين، حول ممارسة الإدارة أكثر من أن تكون حول الأيديولوجية في معظم الأحيان. فمدير وزارة الإسكان بيلي كوبيت استقال بعد أن تشكى من عقود غير نظامية قام بها وزيره سانكي مثيمو ـ نكوندو، الذي خلف جوي سلوفو. وكانت هناك مبالغة أحياناً بالعقبات السياسية من قبل الوزراء الذين لم يكونوا واثقين مما يريدون تحقيقه أو كيف يتم ذلك. قال موظف كبير أسود: «لدى الموظفين نضجهم وطريقتهم الخاصة، لكنهم مطيعون في الأساس، ينتظرون من يرشدهم كيف يعملون».[35] كان بإمكان الوزراء الأدهى من المؤتمر الوطني الإفريقي، مثل جوي سلوفو، كان بإمكانهم فرض سياساتهم بسرعة! دفع قادر أسمل قدماً الخطط لإيصال المياه النظيفة إلى المناطق الريفية. وكانت الاستراتيجية الأساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي هي اقتلاع وتحييد كبار الموظفين الذين كانوا يعيقون بفعالية سير الأمور، لكن زحزحتهم تطلبت وقتاً، وهناك حاجة لوقت أطول لتدريب إداريين سود أكفاء ليحلوا محلهم. كان عدم وجود مديرين من

مرتبة متوسطة ذوي خبرة ولا سيما في الحكومات المؤقتة، هو العقبة الكبرى لتحوّل الحكومة؛ وهناك بالذات ظهر الثمن الكامل لسياسات التمييز العنصري ولا سيما في تعليم البانتو.

واجه المؤتمر الوطني الإفريقي أخطاراً في كل وزارة، حيث مهدت الأحلام الثورية الطريق أمام الميزانيات القاسية، لكن أرض المعركة المركزية كانت وزارة المالية. فالتدفق الكبير لرأس المال خلال الشهور الثمانية عشر السابقة ترك الاحتياطي منخفضاً انخفاضاً خطيراً، وتوجب على الحكومة تطمين المستثمرين الدوليين بسرعة، لم تكن لدى مانديلا تجربة في الاقتصاد، لكنه قبل حاجات عالم التجارة الدولي. تأثر دوكليرك لرؤية المؤتمر الوطني الإفريقي «يقبل إطاراً واسعاً من السياسات الاقتصادية المسؤولية».[36] أعاد مانديلا تعيين وزير مالية دوكليرك وهو ديريك كيز، وهو رجل أعمال هادىء أصبح من أكثر الرجال المحبوبين في مجلس الوزراء إلى أن استقال بعد ذلك ببضعة شهور، لأسباب عائلية. توجب على مانديلا أن يقنع مصرفياً تقليدياً، كريس ليبينبرغ ليحل محله، في حين كان يعدّ تريفور مانيوويل وزير التجارة من المؤتمر الوطني الإفريقي خليفةً له. ومانيوويل بماضيه النضالي كناشط في الجبهة الديموقراطية الموحدة، أفزع في البداية المصرفيين بالتحدث دون احترام عن عالم التجارة الدولي. لكنه برز سريعاً كأحد أعمدة الاستقامة وصحة الرأي في الأمور المالية.

في المصرف المركزي أعاد مانديلا تعيين كريس ستال المحافظ جداً ـ وهو عضو، سابق في الـ Broeder bond ـ حيث التزم بوضع حد للتضخم عن طريق معدلات عالية للفائدة. أصبح ستال ومانيوويل مطية لليسار، لكن وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي تعلموا التعايش مع القيود الحازمة التي فرضوها. استهلكت دفعات الفائدة على الديون التي جلبتها أنظمة التمييز العنصري السابقة، استهلكت خمس الميزانية الوطنية بأكملها. وكان مانديلا يأمل لبعض

الوقت بنوع ما من خطة مارشال، مثل المساعدة التي تلقتها أوربة من أمريكة بعد الحرب العالمية الثانية. قال لمجلة تايم في حزيران (يونيو) 1993: «ما نتوقعه هو أن يضمن العالم الغربي بقيادة الولايات المتحدة القيام بإجراءات كبرى لتقديم المساعدات إلى شعب جنوب إفريقية»[37] لكن المؤتمر الوطني الإفريقي أدرك سريعاً أن عليه توفير ما يلزمه من أموال. قال فرانك تشيكين، رجل الكنيسة لذي استلم فيما بعد قسم نائب الرئيس: «كان المؤتمر الوطني الإفريقي في كل لد في إفريقية، مما أطلعنا عليه جوانب كثيرة غير مجدية. وعندما لم تأت لمساعدة الدولية أدركنا أنه يجب علينا القيام بالعمل بأنفسنا».[38]

كان التراجع موجعاً. فخطة إعادة البناء والتطوير، التي علق عليها مانديلا الكثير من الأمل، برهنت سريعاً على أنها طموحة أكثر من اللازم. فهدف بناء مليون منزل في خمس سنوات لا يمكن التوصل إليه، والوعود بمزيد من الوظائف برهنت على أنها فارغة، لأن التكنولوجيات الجديدة تتطلب موظفين قل، كما أنها وضعت مكافآت على المهارات التي كان معظم السود ما زالوا فاقدين لها. ولم يعد ينظر إلى التأميم كاختيار لإيجاد فرص عمل، كانت حبة دوار مُرة لوزراء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين نشأوا على الإيمان بفوائد لملكية العامة ـ ليس من قبل الشيوعيين فحسب بل الحكومات الأفريقانية التي وفرت الآلاف من فرص العمل للأفريقانيين في الصناعات المؤممة التي فيها أعداد من العمال أكثر مما يلزم، مطورة نسختها الخاصة من العمل الإيجابي ـ والآن أبلغ العالم المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب خصخصة الصناعات، وفرز فرص العمل، ورفض العمل Affomatiqe والتخفيض السريع للعجز الذي مولت حكومات التمييز العنصري من خلاله تبذيرها واضطهادها.

واجه مانديلا نوعاً من التحرر من الوهم. فقد شهد كم كدس رجال الأعمال الأجانب من أموال أيام ازدهار التمييز العنصري في عقد الستين عندما كان في السجن، إذ كانت اليد العاملة رخيصة وكان سعر الذهب آخذاً

بالارتفاع. والآن أصبح سعر الذهب يهبط وأصبحت اليد العاملة غالية أكثر، كما أن إفريقية نأى عنها المستثمرون، الذين صاروا يتسابقون إلى الاقتصاديات المعجزة لجنوب شرق آسية. حاول جذب المستثمرين عن طريق تخفيض القيود على الصرف، والاستعداد للخصخصة ومواجهة الاتحادات؛ لكنهم وضعوا أموالهم في النهاية في أمكنة أخرى. شعر مانديلا بالسلطة الكاملة للدولة ـ الشعب ـ التي سجنته نصف سني سن الرشد من حياته؛ والآن تم إبلاغه أن الدول تفقد قدرتها على تحسين حياة الناس أو تصحيح الأخطاء الماضية.

كان قلق مانديلا الأكبر يتركز على وزارة الدفاع، باعتبارها الحد الفاصل للسلطة السياسية. واختار وزيراً لها جوي موديس ـ القائد السابق في الـ MK، مع روني كاسريلز ـ الذي عاداه الإفريقيون: «الرجل الأبيض ذو القلب الأسود» بوصفه نائباً له. سبب مانديلا مفاجأة بتعيينه قائد القوى الدفاعية في عهد دوكليرك وهو الجنرال ميرينغ ـ الذي هاجم بضراوة المؤتمر الوطني الإفريقي ـ ليستمر في منصبه لخمس سنوات أخرى؛ لكن ميرينغ بدا مفيداً لمانديلا قبل الانتخابات، والآن وعد بالولاء له (تباهى أمام أقرانه من ضباط الدفاع أن الرئيس تكلم معه على الهاتف لأربعين دقيقة).[39] وأعطى موديس وكاسريلز مزيداً من السلطة لأمين سر الدفاع الجديد المدني بيير ستين، وهو الجنرال السابق في القوى الجوية الذي كشف بفعالية نشاطات القوة الثالثة.

بقي الدفاع أكثر المجالات تضليلاً، فهو القاعدة الكامنة لأي انقلاب أو تمرد. وكان الكثير من الجنرالات الأفريقانيين ما يزالون يسيطرون على شبكات عسكرية قوية يمكنها حجب الحقائق الحاسمة عن العمليات السرية، وعن مبيعات الأسلحة أو قوائم المخبرين. في حين أن الفدائيين السابقين في المؤتمر الوطني الإفريقي بالذات كان من الصعب دمجهم مع الجيش الأفريقاني، وكانوا مقاومين لقبول نظام أكثر شدة. وتوجب على مانديلا أن يتدخل شخصياً عندما رفض ثلاثة آلاف جندي من الـ MK العودة من إجازاتهم في تشرين الأول

(أكتوبر) 1994، محذراً إياهم بأنهم سيحاكمون إذا لم يعودوا خلال أسبوع. أرسلت الحكومة البريطانية فريقاً عسكرياً صغيراً للاستشارة حول دمج القوات البيضاء والسوداء، حيث حذر فيما بعد من الإعاقة التي يقوم بها الأفريقانيون. رغب بعض السياسيين في المؤتمر الوطني الإفريقي لو أنهم ورطوا البريطانيين توريطاً، مثلما فعلت حكومة ناميبيا. أبقى مانديلا عينه مفتوحة على تقارير الاستخبارات، التي كانت هي نفسها عرضة للولاءات المتنافسة، بدا أنه ما زال واثقاً ـ ربما واثقاً جداً ـ من ولاء الجنرال ميرينغ.

كانت حكومة مانديلا مراقبة عن كثب من قبل رجال الأعمال والديبلوماسيين في العالم، وذلك لاكتشاف علائم فساد قبل كل شيء. لقد خافوا من أن تنحدر جنوب إفريقية في المستنقع الاقتصادي الذي أغرق العديد من الدول الإفريقية التي كانت مزدهرة ضمنياً مثل نيجيريا وكينيا. ورث مانديلا نظاماً فاسداً أكثر بكثير من أولئك الذين في الشمال، والذين استلموا السلطة من إداريين استعماريين شرفاء تقريباً. كانت الحكومات الأفريقانية رديئة السمعة لتلقيها الرشاوى منذ جمهورية كروغر في القرن التاسع عشر، وقال مانديلا بحق إن إدارات التمييز العنصري كانت «وطيدة بالفساد». احتاج المؤتمر الوطني الإفريقي تنظيف شبكات الرشاوى والمحاباة في بريتوريا، والحكومات البانتوستانية المسمومة التي عززها الديكتاتوريون السود؛ في حين كان المقاولون البيض يلوحون الآن بالرشاوى أمام السياسيين للحصول على مواطىء أقدام في مجالات الأعمال، ولا سيما الكازينوهات. في آب (أغسطس) 1997 اعتبرت جنوب إفريقية من قبل مسح دولي للفساد الدولة الثالثة والثلاثين من بين اثنتين وخمسين دولة تم مسحها، حيث كانت الدانمارك في القمة ونيجيريا في الوهد.[40]

كان مانديلا ناكراً لذاته بوضوح، فقد عاش ببساطة وقدم ثلث راتبه الرئاسي إلى صندوق الأطفال، الذي كان مشروعه الخيري الخاص. ووعد

خلال الانتخابات بوضع حد للكسب غير المشروع السياسي: «نحن لن نعيش مثل القطاط السمان»؛ لكن أعضاء المجلس النيابي تعرضوا للانتقاد سريعاً لقبولهم زيادات كبيرة في الرواتب. كان من بين المنتقدين الأسقف توتو، الذي أبدى أقسى ملاحظة: «أوقفت الحكومة قطار الكسب غير المشروع بما يكفي لتركبه». رد مانديلا علناً ضد «تصرف توتو اللامسؤول»، وأبلغه أنه كان من الواجب إثارة القضية في السر. أجاب توتو إنه فعل ذلك وأن مانديلا طعن في استقامته. لكن الرجلين سرعان ما سويا خصامهما. هاتف مانديلا توتو متشكياً لماذا صرخت بي أمام الناس؟ لكنه كان يضحك سريعاً. بعد بضعة شهور أعلن مانديلا عن تخفيض في رواتب أعضاء المجلس النيابي والرئيس. استمر إعجاب توتو العميق بزعامة مانديلا. «لو أن هذا الرجل لم يكن هناك، فإن البلاد بأكملها كانت ستشتعل ناراً».[41]

الأشياء الأخطر كانت الاتهامات بتمجيد شخص معين والاختلاس. لقد تدمر المؤتمر الوطني الإفريقي خاصة بالتهم ضد ألان بويساك زعيمه السابق في الكاب الغربي والذي كان المؤسس الآخر البطولي للجبهة الديموقراطية الموحدة. بعد فضيحة بويساك الزوجية وقف مانديلا إلى جانبه خلال الانتخابات، وذلك بعكس نصيحة عدة زملاء، وعينه بعد ذلك سفيراً إلى الأمم المتحدة في جنيف. ثم اشتكت وكالة مساعدة دانماركية من أن المبالغ التي أرسلت عن طريق بويساك لم تصل إلى مكانها وطلبت من شركة قانونية في جوهانسبورغ إجراء تحقيق. وجدت الشركة أن بويساك «قد أثرى نفسه بقوة»، بشراء منزل ودفع تكاليف زفافه الثاني. وجد تقرير حكومي أن الاتهامات غير ثابتة، وأصر مانديلا على أن بويساك كان بريئاً. لكن القانون أخذ مجراه رغم ذلك، واتهم بويساك ـ وهو في أمريكة ـ بالاختلاس.

عندما عاد، رحب به في المطار بكلمة تأييد وزير العدل دولا عمر ـ الذي كان أيضاً رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي في الكاب الغربي. اشتكت المعارضة

من أن مانديلا كان يضع الولاء للحزب فوق الاستقامة العامة، لكن المحاكمة ظلت مستمرة، وفي آذار (مارس) 1999 وُجد أن بويساك مذنب بأربعة اتهامات بالاحتيال والسرقة، وحكم عليه بالسجن ست سنوات.[42]

بحلول نهاية السنة الأولى لمانديلا رئيساً، كان شهر العسل قد انتهى. كان الجنوب إفريقيون البيض يشتكون بمرارة من موجة الجريمة، والرند يتابع انخفاض قيمته، وفضائح الفساد، والجيشانات في المستشفيات والمدارس. وكان الليبراليون قد تحرروا من وهم أن الحكومة السوداء تتجاهل نصائحهم. في حين عدَّ آخرون من البيض أن ذلك لم يكن ليفيد في أية حال. كانت جنوب إفريقية البيضاء مجتمعاً مميزاً تميزاً فذّاً في ظل أنظمة الحكم السابقة، محمية من المنافسة السوداء وعالم التجارة في آن واحد وقد وجدت صعوبة في التأقلم مع ديموقراطية مفتوحة. قال قادر أسمل في شباط (فبراير) 1997: هناك تشاؤم غريب في الضواحي المورقة لما كان في السابق جنوب إفريقية البيضاء تحديداً، وهو تشاؤم فشل كلياً في تقدير قيمة الإجراءات المفيدة التي اتخذت من أجل البيض.[43]

كان لمعظم السود رأي أقل تشاؤماً بكثير، مع نظرة أبعد. فقد شهد الفقراء الريفيون توسيع العناية الصحية الأساسية ووصول حنفيات الماء؛ وفي المدن شهدت الطبقة الوسطى السوداء المزدهرة فرصاً متنامية في الصناعة والتجارة. لكن رأيهم أصبح يبدو أقل أملاً عندما ازدادت البطالة ولم تتحقق فرص العمل الجديدة. وشعر المستثمرون فيما وراء البحار بالإحباط، وكما كتبت الفايننشال تايمز في أيار (مايو) 1996: «الجريمة المتصاعدة والنمو البطيء للتوظيف والفشل في تحقيق الوعود بتخفيض أعمال الإسكان المتراكمة والهجرة غير المشروعة من الجيران الفقراء ساعدت كلها في تراجع الثقة بمجالات العمل».[44] بحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 توجب على المؤتمر الوطني الإفريقي الاعتراف بأخطاء خطيرة، «في مراجعة الأداء خلال نصف المدة

المحددة»: «لقد دخل المؤتمر الوطني الإفريقي الحكومة لأول مرة، ولدينا منعطف حاد في تعلّم شؤون الحكم. وعندما دخلنا الحكومة توقعنا مشكلات لكن ليس بالحجم الهائل الذي لدينا الآن».

كان مانديلا يتعلم منعطفه الخاص في التعلم. قال في كانون الثاني (يناير) 1996: «كان من الأصعب الدفاع عن الحرية التي كسبناها، بالمقاومة مع النضال أو القتال من أجل كسبها».[45] بحلول كانون الثاني (يناير) 1997 كان يعترف أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد ارتكب «بعض الأخطاء الأساسية والخطيرة بما في ذلك تجاوبه مع التمويل من صول كيرزنر والعاقبة المكلفة للسارافينا الموسيقية التي تهدف إلى التعريف بمرض الأيدز، والتي لم تثمر أبداً». وأضاف إنه من الضروري جداً الاعتراف بالأخطاء والتعلم منها. لكنه بقي موالياً موالاة تامة للزملاء القدامى في المؤتمر الوطني الإفريقي، فيما عدا الذين انتقدوا الزعامة علناً مثل زوجته السابقة أو بانتو هولوميزا، وقد ألقى جانباً بالدعوات لإعادة تنظيم الحكومة. قال عندما افتتح المجلس النيابي في شباط (فبراير) 1997: «اعتقدت أنني قد وجدت سبباً لتعديل وزارتي، رأيت بعض أعضاء الوزارة يغلبهم النعاس بينما كنت أتحدث.. لكن نظرت بعد ذلك إلى الرؤساء أمامي هنا بالضبط بالإضافة إلى الأعضاء في المعارضة، ورأيت الشيء ذاته يحدث هنا! اعتقدت أنني يجب أن أكون عادلاً وغير متحيز، لذلك لن يكون هناك تعديل».[46]

أغضبت ولاءات مانديلا العنيدة بعض الزملاء إضافة إلى المعارضة. وبدا وهو يتحمل عدم الكفاءة وإساءات استعمال السلطة. كان يشعر شخصياً بالصدمة والخيبة بالمزاج الجديد للطموح المالي والاعتداد بالشخصية من قبل الجيل السياسي الأكثر شباباً.[47] لكنه حافظ علنياً على قدرة مهيبة في التحمل. كانت أولويته هي بناء شعب جديد ـ والتسوية بين العدوَّين السابقين ـ اللذين رأى فيهما دوره التاريخي الأساسي.

36

الصفح

أصبح مانديلا مشهوراً فوق الجميع بوصفه الرجل الذي صفح عن الأعداء الذين سجنوه. وهذا دور غير واضح بالنسبة إليه ليلعبه. في سنوات ما قبل السجن كان عدوانياً تماماً، سواء في كونه ملاكماً أم في كلماته النضالية استمتع مانديلا الشاب بمجابهة الأعداء، سواء كانوا الرؤساء الأفريقانيين أو الامبرياليين الغربيين أو الخونة الإفريقيين؛ زميله تامبو هو الذي كان آنذاك الاسترضائي الواضح؛ قال تامبو لزميل له: «كنت عندما أريد المواجهة أطلب مانديلا».[1] تعلم مانديلا كيف يسترضي ولكن بالطريق الصعب، وذلك في سنوات سجنه: وعبر ذهنه ـ كما أوضح ـ وليس عبر دمه. غير موقفه من الأفريقانيين بمساعدة عدد قليل من السجّانين، وأدرك أن السلام المستقبلي لجنوب إفريقية سيعتمد على الصفح. كانت سيطرته على عدوانيته هي التي أعطت سياساته قوة خاصة؛ ومثله مثل جورج واشنطن (كما كتب أنتوني لويس)، كان «رجلاً ذا عواطف قوية أخمدها في سبيل إيجاد دولة».[2]

كان مانديلا مؤسس دولة جديدة، مثل واشنطن وغاريبالدي أو بوليڤار، لكنه لم يؤسسها عن طريق الإخضاع العسكري أو القوة الوحشية؛ وكان واعياً جداً للنتيجة؛ فكما قال: «في بناء الدول تحتاج أحياناً إلى «بلدوزر» وأحياناً إلى نفاضة ريش».[3] وكانت دولة جنوب إفريقية السابقة، التي هي أكبر من مانديلا بثماني سنوات، كانت نتيجة مصالحة أعلن عنها كثيراً بين الأعداء السابقين ـ

الأفريقانيين والبريطانيين الذين اجتمعوا معاً بعد حرب مريرة. لكن ثمن تلك التسوية كان إبعاد الإفريقيين عن الحكومة؛ وكانت فكرة جنوب إفريقية المتعددة العروق ما تزال ناشئة حديثاً وهشة.

ظل مانديلا يواجه نقاشات حول ماذا شكلت التعددية العرقية في الواقع. قبل فكرة «الدولة القوس قزح» حيث تضم جميع الألوان، والتي بسّطها توتو وآخرون؛ لكنه لم يؤمن أبداً «بلا عرقية وبلا ألوان»، كما نادى بها العديد من المنظرين اليساريين. وما زال يتذكر مناقشاته الطويلة في روبن آيلاند عن «المسألة الوطنية»، مع نيفيل ألكسندر الذي أصبح منذ ذلك الوقت بروفيسوراً في جامعة كيبتاون. وقد انتقل ألكسندر الآن بعيداً عن نموذج «المتمثل» المتطرف ـ الذي يفترض أن الاختلافات العرقية مصيرها الذوبان؛ وهو يفضل الآن مجاز النهر العظيم، الذي يستوعب الروافد من شتى أنحاء البلاد. لكنه مازال يقاوم التركيز على التعريفات العرقية.[4] ورأى مانديلا في توحيد جنوب إفريقية عملية تدريجية بدرجة أكبر مما فعله ألكسندر، في تقليد المؤتمر الوطني الإفريقي. وكما شرح ألبيرت لوثولي: «كان تاريخنا منذ البداية تاريخ توحيد متصاعد، أي كسر الحواجز القبلية والعرقية والـ Credal».[5] بقي مانديلا حساساً تجاه ثقافات العروق والقبائل المختلفة، ونصح المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب عدم نسيان الأقليات. قال في آذار (مارس) 1993: «خلال الفترة الانتقالية فإن الأقليات في كل مكان ستقول: إذا حدث التغيير، ماذا سيحدث لي، ولقريني ولأولادي وللمجموعة الوطنية التي أنتمي إليها، وللقيم التي أؤمن بها، ولممتلكاتي؟» كان يأمل بحكومة وحدة وطنية يمكن لكل شخص في ظلها أن يقول: «أنا لي تمثيل في تلك الحكومة».[6]

كان مهتماً خاصة بالتصالح مع الأقلية الأكبر خطراً، وهي الأفريقانيين الذين كان يتقاسم الحكومة معهم. وكما قال فإنه لم يستطع نسيان «كل أنواع الناس الذين كانت أيديهم مغموسة بالدماء». لكن توجب عليه إقامة سلام

معهم، وجعلهم يشعرون أنهم جزء من الدولة الجديدة: «يجب أن نكون واعين لحساسية المجموعة الأخرى التي فقدت السلطة الآن». ومن التناقض بمكان أن سنوات سجنه تركت لديه تسامحاً خاصاً تجاه الأفريقانيين، وإيماناً بأن في مقدورهم عكس ولاءاتهم، قال: «متى تغيروا فإنهم سيتحركون 180 درجة». كان الكثيرون من أصدقائه محتارين ومرتابين. قال أحدهم: «بدا فقط أنه مقتنع أن الإفريقيين هم شيء جيد».

لكن كانت لدى مانديلا أيضاً أسباب سياسية جيدة لمد يده إلى الأفريقانيين وليتعامل تعاملاً منفصلاً مع مجموعاتهم المتنوعة. وقد استطاع تخفيف حماسة بعض السياسيين اليمينيين بمن فيهم زعيم الحزب المحافظ، فريدي هارتزنبرغ. قال مانديلا عشية الانتخابات: «إنه سيدرك سريعاً أنه إما أن يتحدث إلينا أو يختفي في البراري».[7] بعد الانتخابات كانت لدى هارتزنبرغ محادثات ودية مع مانديلا، وقد اختفى تقريباً فيما بعد. أما الأكثر تطرفاً وهو يوجين تيربلانش من الـ AWB فقد تُرك وحيداً، وقد ساءت سمعته، وندد بهارتزنبرغ بوصفه خائناً.

بذل مانديلا جهداً خاصاً لاسترضاء أعدائه السابقين في سلسلة من الزيارات الرمزية التي تحمل شعوراً كبيراً بالدراما. ذهب لرؤية الرئيس السابق بوثا من جديد في ويلورنس في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995. بدا بوثا كأنه ما يزال يقاتل في حرب باردة؛ أخبر مانديلا أنه بعد كونه سجيناً في السجن، فإنه أصبح الآن أسيراً في وزارته بالذات. محاطاً بعصبة من الهنود والشيوعيين: «إنهم سيدمرونك». وحذره من أنه إذا تمت إدانة جنرالات أفريقانيين لأعمال نفذوها في ظل نظام التمييز العنصري فإن ذلك ربما يؤدي إلى كارثة. تذكر بوثا قائلاً: «لم يقل مانديلا شيئاً ونظر إليَّ في عينيّ تماماً وكأنه ماتانزيما»[8] لوّح بوثا بأصبعه أمام الكاميرات التي سجلت لقاءهما، في حين راقب مانديلا بتسامح مضحك؛ عرف أن التسامح القديم قد أصبح الآن بلا أسنان.

رحب مانديلا بالعديد من المناوئين السابقين منذ سنوات سجنه. فعندما تقاعد نيل بارنارد بصفته رئيساً للاستخبارات، أقام له مانديلا مأدبة غداء في بريتوريا، وكان بين الضيوف الجنرال ويلمز الآمر السابق لروبن آيلاند. قال ويلمز بعد ذلك وقد تأثر كثيراً: «هذا لا يحدث في حياة كل شخص، إنها تجربة رائعة يعيش المرء خلالها».[9] وحقق مانديلا السلام مع الكنائس الأفريقانية، ففي يوم الأحد شارك جماعة من المصلين في كنيسة إصلاح هولندية في بريتوريا، حيث شعر بالسرور لاستقباله: «جميع الرجال أرادوا لمسي، وجميع النساء أردن تقبيلي، وجميع الأطفال أرادوا التعلق بساقيّ». قبل ذلك ببضع سنوات، كما تذكر، كان بحاجة إلى حراس لحمايته من أن يتم الاعتداء عليه: «هذه المرة، كانوا هناك لحمايتي من القتل بسبب الحب».[10]

وبمساعدة أمينة كشاليا، التقى أرامل وزوجات الزعماء السود والبيض على حد سواء، ليس فقط المحنكين في الكفاح مثل ألبيرتينا سيسولو وألبانيا موتوبينغ، بل أيضاً زوجات الزعماء الأفريقانيين «لجعلهن يشعرن بالراحة في النظام الجديد»[11] وفي آب (أغسطس) 1995 طارت معه أمنية إلى الجيب الأفريقاني الكئيب في أورانية في الكاب الشمالي ـ مما ذكرها بالمنطقة الهندية في ليناسيا، التي بناها المخططون في التمييز العنصري خارج جوهانسبورغ ـ وذلك لزيارة الأرملة البالغة من العمر الرابعة والتسعين أرملة الدكتور هيندريك فيروورد الذي كان قد اضطهده. قدمت الشاي لمانديلا وألقت حكمة قصيرة مناشدة بالحلم الأفريقاني القديم، وكانت تقرأ بفرج دون نظارات إلى أن لقنها مانديلا بالأفريقانية. وضعت أمامه تمثالاً غير مهيب لفيروورد: قال مانديلا «لقد جعلته صغيراً جداً». وتجادلت أمينة مع مانديلا أثناء عودتهما بأن الأفريقانيين لن يقبلوا أبداً بجنوب إفريقية جديدة؛ لكن مانديلا أصر: «سيقبلون، سيتجهون إلى الطريق الصحيح في النهاية».[12]

بعد ثلاثة شهور أقام مأدبة غداء في بريتورية لبيرسي بوتار البالغ من العمر

الرابعة والثمانين، وهو النائب العام في محاكمة ريفونية الذي أغضب المتهم بتقريعه الطويل الانتقامي والمتغطرس. أطرى مانديلا المحامي الصغير الضعيف ـ «ما تزال تبدو شاباً ونشطاً» ـ في حين تعجب بوتار من شهامته: «إنها تظهر التواضع العظيم لهذا الرجل الذي يشبه القديسين».[13] بدا مانديلا في سعيه وراء مضطهديه مثل المحكوم السابق الأسطوري الذي يصطاد جميع الناس الذين خانوه، لكن بدلاً من قتلهم فإنه يصفح عنهم.

غضب الكثيرون ممن كانوا في روبن آيلاند من تصرفاته المتطرفة جداً في الصفح، منها مثلاً تعيين الجنرال جاني روكس ـ رئيس السجن الذي كان قاسياً جداً في روبن آيلاند ـ سفيراً إلى النمسا. وشعروا بالحيرة بسبب تساهله تجاه سجانه السابق جيمس غريغوري عندما نشر كتابه: (الوداع، بافانا) والذي تعزز بمساعدة مانديلا برسالة يشكره فيها على «الساعات الرائعة التي قضيناها معاً». قال مانديلا في السر إن غريغوري قد «أصيب بالهلوسة» في العديد من رواياته، واعترف غريغوري ذاته أنه استخدم «ترخيص مؤلف»، والأكثر خطراً أنه أساء لدوره عن طريق كشف تفصيلات شخصية سرية. ثم حث مانديلا على مقاضاته، لكنه كان راضياً عندما أبعد قسم السجون نفسه عن الكتاب.[14]

بقي مانديلا صلباً عنيداً بشأن ضرورة استرضاء الأفريقانيين، الذي رأى فيه عملاً شجاعاً وليس نتيجة ضعف. قال لي عندما جادلته حول هذه النقطة: «لا حاجة بنا إلى تذكير أنفسنا بالشرور الماضية، الشجعان لا يخشون الصفح، من أجل السلام».[15] كانت المصالحة حاسمة بالتأكيد بالنسبة إلى استراتيجيته السياسية. فكلما أمكنه أن يمد يده إلى الأفريقانيين الأفراد، كلما استطاع بث الانقسام بينهم وتجريدهم من السلاح. كان الصفح مظهراً من مظاهر القوة، حيث يؤسس تفوقاً أخلاقياً يذكّر كل شخص أن ميزان القوة قد تحول. قال أحد زملاء مانديلا: «أنت لا تعرف تماماً أبداً ما إذا كان قديساً أم مكيافيلياً».

لكن مصالحته كانت أيضاً جزءاً من التفاؤل الأساسي حول الطبيعة

الإنسانية التي حملها مانديلا معه منذ شبابه، والتي تعززت في السجن بدلاً من أن تضعف. كان مستشاروه المقربون غاضبين في معظم الأحيان لاستعداده لدعم أصدقاء مشكوك بهم، ولرؤية الأفضل في المناوئين غير الجذابين، وللترحيب بالدجالين الواضحين. تعجب أحمد كاثرادا، الذي عمل في المكتب المجاور، إلى أي مدى رأى مانديلا من خلال مخادعات الأصدقاء المزيفين الذين جاءوا لرؤيته: «المعرفة الشخصية المصطنعة لعقود من الماضي وهي ترتقي فجأة إلى «صداقة حميمة»، والانتهازيين الذين يداهنونه من أجل تهريب جداول أعمالهم المريبة بل حتى الاحتيالية: والأصدقاء المخلصين في أيام الرخاء فقط الذين لم يظهروا في أي مكان عندما كانت هناك حاجة ماسة لصداقتهم؛ ارتاب كاثرادا بأن مانديلا كان منشغلاً جداً بكل بساطة بأولويات أخرى بحيث لم يلاحظ مكائدهم.[16]

كل هذه العلائم الدراماتيكية للصفح رحب بها البيض بمفاجأة وارتياح، في حين أثارت غضب وشكوك بعض النضاليين السود ممن رأوا رئيسهم في تحالف غير رسمي مع أعدائهم. أصر مانديلا دوماً على أن المصالحة يجب أن يرافقها التحول ـ وهي كلمة أساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي ـ ليتمكن السود من المشاركة في القوة الاقتصادية وفرص العمل مع البيض؛ وأصبح فاقداً للصبر بغياب التنازلات المتبادلة من الجانب الأبيض. قال عند افتتاح المجلس النيابي في شباط (فبراير) 1996: «لا يمكننا الشفاء أو البناء مع الصفح فقط من قبل ضحايا الظلم الماضي واكتفاء المستفيدين بالامتنان فقط» ـ تبع ذلك تصفيق حاد من قبل السود والقليل من التصفيق من جانب البيض. وحذر من أن رجال الأعمال لا يمكنهم الاستمرار ببساطة في العمل كعادتهم وهم يعيشون في جُزر من الامتيازات: يجب أن يفكروا بما يناسب بقية الشعب.[17]

رأى مانديلا في الرياضة مجالاً حاسماً للمصالحة والتحويل في آن واحد، ومد يده إلى الرياضيين البيض الذين أثارتهم الفرص الجديدة؛ كانوا قد أبعدوا

عن المنافسة الدولية بسبب المقاطعات ضد التمييز العنصري، ورأوا الآن عالمهم وهو ينفتح من جديد. كانت الروكبي مرتبطة بالتمييز العنصري أكثر من أية لعبة أخرى، ومع إجرام أفريقاني تجاه السود: تذكر أحد الذين كانوا في روبن آيلاند تعذيب الشرطة له حيث كان يتم رفسه حول الزنزانة، قائلاً: «أصبحنا الآن نلعب الروكبي».[18] كان اسم فريق جنوب إفريقية وهو سبرنيغبوكس يرمز إلى الغطرسة البيضاء، وأراد الكثيرون من السود تغييره؛ لكن مانديلا أصر على إبقائه، وبذل جهداً خاصاً للتطابق مع فريق سبرنيغبوكس، الذي كان بأكمله من الأفريقانيين فيما عدا واحد ملوّن. في حزيران (يونيو) 1995 احتفل السبرنيغبوكس بعودة دخولهم إلى الركبي الدولي بالمباراة الظافرة ضد نيوزيلندة في نهاية كأس العالم في جوهانسبورغ. راقب مانديلا اللعبة النهائية باستيعاب، إذ قال بعد ذلك: «لقد كادت تمزق أعصابي».[19] وعندما فاز السبرنيغبوكس سار مانديلا إلى الملعب مرتدياً قميص السبرنيغبوكس الأخضر ليقدم الكأس لكابتن الفريق المذهول فرانسوا بينار. ثارت حمية الجمهور الذي كان في المدرج ـ ومعظمه من الأفريقانيين ـ وبدأ ينشد «نيل ـ سون! نيل ـ سون!» وفي ذلك المساء كان الأفريقانيون الثملون يعانقون السود في الشوارع وفي الفنادق بترحيب عفوي. اعترف دوكليرك أن: «مانديلا فاز بقلوب الملايين من مشجعي الروكبي البيض».[20]

بدا ذلك وهو يعد بعهد جديد من الرياضة المتعددة العروق. حيث سيتم اختيار اللاعبين السود سريعاً للدخول في فريق السبرنيغبوكس. لكن البهجة كانت سابقة لأوانها. فرئيس اتحاد كرة قدم الروكبي لجنوب إفريقية لويس لوث ـ وهو رجل أعمال أفريقاني كان في واجهة المكائد القذرة للحكومة في عقد السبعين، وقف في وجه الضغط الأسود. وبعد ثلاث سنوات عندما سعى مجلس الرياضة الوطني لتسريع عملية الدمج، قاضاه لوث واستدعى القاضي مانديلا ذاته ليظهر في المحكمة. مانديلا نصحه محاموه بعدم الذهاب لكنه أصر

على الحضور ليظهر الاحترام لحكم القانون ـ وذلك ليسمع فقط القاضي وهو يقف إلى جانب لوث.[21] وعندما هدد مجلس الرياضة بإعادة المقاطعة الدولية لفرق جنوب إفريقية، ظل لوث على موقفه المتعنت إلى أن أجبره زملاؤه في النهاية على الاستقالة، في جو من القسوة العرقية التي ذكرت بعهد روكبي التمييز العنصري. إن بطء الهيئات الرياضية الأخرى في تشجيع اختيار اللاعبين السود في الفرق الوطنية استمر في إغضاب المؤتمر الوطني الإفريقي: تشكى لولو كزينغوانا رئيس اللجنة النيابية الرياضية، تشكى في كانون الأول (ديسمبر) 1998 من أن الحكومة كانت «متعبة من الاعتذار دولياً عن كل الفرق البيضاء التي من المفترض أن تمثل جنوب إفريقية».[22]

كانت هناك ثغرة واسعة وما تزال تتسع بين الإشارات الرمزية للمصالحة والامتنان في القمة، والحقائق في الأسفل. بقي معظم رجال الأعمال البيض مقاومين لأية تغييرات حقيقية في التوازن العرقي في مكاتبهم أو في التجديد أو الحياة اليومية، ورأوا في تعزيز السود انخفاضاً في المستوى ومخاطرة بالفساد.

كانت وسائل الإعلام أكثر حدود التحول انكشافاً ورؤية. إذ إن مانديلا رأى فيها نوافذ حاسمة يرى الجنوب إفريقيون من خلالها بعضهم بعضاً، وكانت كل وسائل الإعلام تقريباً قبل عام 1994 يسيطر عليها البيض. كان التلفاز يدار بإحكام من قبل الحكومات الأفريقانية منذ أن سمحت به في البلاد عام 1976. عين المؤتمر الوطني الإفريقي زواليخي سيسولو، ابن وولتر رئيساً لهيئة الإذاعة والتلفزة الجنوب إفريقية ولديه مهمة لتخفيضها وتحويلها، باعت الهيئة العديد من محطات الإذاعة وجلبت وجوهاً وآراء سوداء إلى الشاشة.

لكن معظم الصحف بقيت متملكة من قبل البيض، وقد راقب مانديلا الصحافة عن كثب أكثر من التلفاز. كان قد عرف في عقد الخمسين مدى اعتماد المؤتمر الوطني الإفريقي على الصحف للتعبير عن احتجاجاته، وحاول التأثير على المراسلين والمحررين آنذاك. عندما أطلق سراحه عام 1990 شكر بحرارة

الصحفيين الليبراليين الذين أبقوا قضية المؤتمر الوطني الإفريقي حية. «كانت الصحافة هي التي لم تنسنا أبداً»[23] كان مانديلا قد سعى لمصادقة الصحفيين وفتنهم خلال المفاوضات مع الحكومة الأفريقانية والحملة الانتخابية التي تبعت، حيث ساعد هؤلاء في تقديم صورة براقة كان معظم زعماء العالم الآخرين يحسدون مانديلا عليها. لكنه عندما أصبح في المنصب، ومثله مثل معظم السياسيين أصبح مانديلا حساساً إزاء انتقاد حكومته، وألقى اللوم سريعاً على الصحافة لرفضها تحويل نفسها، آراؤها ذات الأساس الأبيض، وتقاريرها التي لا تنتهي عن الفضائح والنكسات، ولا سيما تقاريرها حول الجريمة. فكر المؤتمر الوطني الإفريقي لبعض الوقت بالشروع بصحيفة يومية خاصة له لضمان تغطية نشاطاته، وناقش مانديلا موضوع التعاون مع ملك المال البريطاني «تيني» رولاند. لكن تم تحذيره من أن صحيفة كهذه ستتلقى ضربات من قبل المتنافسين والخصوم.[24]

كان مانديلا بليغاً في تفضيل صحافة حرة، في وقت كانت مهددة فيه في إفريقية بأكملها. قبل الانتخابات كان قد أبلغ مؤسسة الصحافة الدولية في كيبتاون أن صحافة نقدية ومستقلة واستقصائية هي شريان الديموقراطية لكنه أشار أيضاً إلى النفوذ الساحق للمالكين والمحررين البيض: «فيما عدا السويتان فإن موظفي التحرير الكبار في جيمع صحف جنوب إفريقية اليومية ينحدرون من نفس المنبع العنصري إنهم، بيض، وذكور، ومن خلفية من الطبقة الوسطى، ويشاركون غالباً في تجربة واحدة في الحياة». أو كما قال ثابو مبيكي للمحررين «أنتم جميعاً أبناء أم واحدة».[25]

ظل مانديلا ينادي بحرية الصحافة بعد وصوله إلى السلطة. قال عام 1996: «لا أريد ناطقاً بلسان المؤتمر الوطني الإفريقي أو الحكومة، فالصحافة ستكون عديمة الفائدة آنذاك. أريد مرآة نستطيع من خلالها أن نرى أنفسنا». لكنه أصيب سريعاً بالإحباط بسبب انعدام التغيير، حذر المحررين في

تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 قائلاً: «هناك ملاحظة بين أفراد الشعب وهي أن وسائل الإعلام يسيطر عليها قسم أقلية من الشعب، من غير المقبول مطلقاً وضع كهذا من خلال رؤيتنا. . يبدو أنني أشعر أن الصحافة المحافظة تحاول الحفاظ على الوضع الراهن بشكل أو بآخر». [26]

كانت أكبر مجموعة صحفية ـ وهي مجموعة آرغوس بزعامة جوهانسبورغ ستار ـ قد تم شراؤها بعد الانتخابات من قبل ملك المال الإيرلندي طوني أوريلي، بمباركة من مانديلا. وأعيدت تسميتها باسم المجموعة المستقلة. بدأ أوريلي والمالكون الآخرون بإدخال بعض المحررين السود تدريجياً إضافة إلى المزيد من الصحفيين السود. لكن مانديلا كان يرتاب بخصوص مثل هذه التغيرات: «ما دامت الصحف تملكها أقلية بيضاء محافظة، فإن تلك التشجيعات تعتبر رمزية بلا سلطة» هذا ما قاله بواسطة التلفاز في كانون الأول (ديسمبر) 1997. [27] لقد بدا غالباً وهو فاقد الصبر مع المحررين السود أكثر من البيض، بما في ذلك أولئك الذين في السوويتان ـ التي كان رئيسها الآن صديقه القديم نتاتو موتلانا الذي اشتكى له في معظم الأحيان من تحيز الصحيفة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي[28]، ولم يكن راضياً أيضاً عندما سيطر موتلانا مع سيريل رامافوزا على مجموعة تي. إم. إل التي كانت تملك الصنداي تايمز ذات الشعبية. شرح عام 1997: «حتى لو كان رامافوزا وموتلانا لهما حصة في السيطرة فهناك العديد من المجالات التي ليس لهما سيطرة عليها». [29] ولقد ارتاب ـ وله بعض الحق في ذلك ـ بأن نسخة المراسلين السود ما زال تحريرها يتم إلى حد كبير من قبل المحررين الأصغر من البيض المحافظين. «كلنا يعرف ما يحدث في غرف الأخبار». [30] لكن كانت له أيضاً شكاوى عرضية ضد صحفيين سود فرديين. فمحرر العمود الخاص الشاب الصريح كايزر نياتسوبا اشتكى في صحيفة الستار في تشرين الأول (أكتوبر) 1996 من «غضب الرجل المسن»؛ الحقيقة أصبحت معروفة، وهي مخيفة، «إمبراطورنا القدسي ليس

عليه ثياب» انجرح مانديلا، واتهم رئيس اتصالاته جويل نيتشيتنزه نياتسومبا «بالانغماس بالذم والقدح». [31] واشتكى مانديلا عندما انتقده المحرر الأسود في سيتي برس وهو خولا سيبيا بغير حق لتدخله في تعيين رئيس المحكمة. اجتمع فيما بعد بعشرين محرراً من السود بمن فيهم سيبيا وساد السلام؛ أخبرهم أن المؤتمر الوطني الإفريقي لم يرغب في «صحافة الكلب الصغير الذي يوضع في الحضن»، لكن لا يمكنه توقع أن يعقد مانديلا يديه عندما يطعنون في استقامته. [32]

كان غاضباً عندما أذعن له محررون مثل برايان بوتينغر من الصنداي تايمز أو بيتر سوليفان من الستار، عندما أذعنوا له في السر ثم هاجموا المؤتمر الوطني الإفريقي بكتاباتهم كما تشكى: «يقولون إنهم متفقون معك ثم يقولون العكس فيما بعد، أنا رجل مسن، ولا أريد أن يهزأ بي الشباب». هذا ما قاله لسوليفان. «هل تذكر المقالة في الستار عندما قلت إن مانديلا لم يفعل شيئاً يستحق الذكر فيما عدا طرد زوجته؟» [33] (اعتذر مانديلا لاحقاً لسوليفان، بعد أن فشل في اقتفاء التعليق).

شعر الصحفيون بالقلق من أن مانديلا كان يسعى وراء كبت المعارضة، مثل الحكومات الإفريقية في أمكنة أخرى؛ لكنه حاول طمأنتهم: «من الخطأ أن بعض الدول المجاورة لنا سعت إلى سحق الأحزاب المعارضة. إذا فعلتم ذلك فإن عملية الانتقال بأكملها سوف تنزلق بعيداً». [34] لكنه رأى أنه مؤهل بذاته لحق الرد: «إذا شعرتم أنني على خطأ ـ فستقولون ذلك. . .» قال لجيم جونز محرر بيزنس داي «لكن أعطونا الحق بأن نقول ما نفتقده أيضاً» [35] اتهم وسائل الإعلام بالازدواجية في المقاييس ـ والدفاع عن حريتها الخاصة بالكلام في حين تَعُدّ أي هجوم مضاد من أية حكومة محاولة لقمعها. [36] في الحقيقة، بقي شخصياً كارهاً لإخضاع أي شيء للرقابة، بما في ذلك الكتابات أو الصور الداعرة. ولقد أربكت الطبعة غير الأخلاقية الجنوب إفريقية من مجلة هستلر،

أربكت موظفيه عام 1996 عندما أبرزت إحدى أمينات سره وهي تقف عارية؛ وأظهرتها مجدداً في عدد لاحق بوصفها «فتاة مانديلا، في السترة العسكرية. . . أمينة السر ذات القرون التي جعلت الرئاسة تتأرجح».[37] ثم في شباط (فبراير) 1998، صورت (هستلر) مانديلا تصويراً غير مهذب بأنه «Asshole of the Month». ندد ليندبوي سيسولو نائب وزير شؤون الوطن بالعدد بوصفه «خسيساً وشائناً وفاحشاً». وفكر بمنعه. إلا أن مانديلا تجنب إحراج هذه القضية بالضحك، وقال إنه يفضل أن تستخدم المجلة «شعورها الخاص بالقيم والأخلاق». وفاجأ أمين سره في مجلس الوزراء جيكس جيرويل بالسؤال: «هل رأيت عدد هستلر لهذا الشهر؟».[38]

استمر مانديلا في حذره حيال الصحافة الأكثر محافظة. ففي كانون الأول (ديسمبر) 1997 اتهمها بالتآمر مع القوى المضادة للثورة لتدمير الديموقراطية المتعددة العروق.[39] قال في المؤتمر الخمسين للمؤتمر الوطني الإفريقي في مافيكينغ: «إن معظم وسائل الإعلام في بلادنا قد جهزت نفسها كقوة مضادة للمؤتمر الوطني الإفريقي». قال هذا وصرخ الحاضرون «أخبرهم أنت أيها الرفيق» و«صحافة الفضائح Paprazzi!» «إن وسائل الإعلام تستخدم النظام الديموقراطي كأداة لحماية تراث العرقية». لكن اهتمامه الرئيسي كان في الدفاع عن مهمته في المصالحة. كان قاسياً بنفس الدرجة مع المحررين السود الذين اشتكوا من أنه كان يهمل الجماهير التي لا تتمتع بامتيازات وأنه كان منشغلاً جداً باسترضاء البيض. قال بعض المحررين في تشرين الثاني (نوفمبر) 1996: «يهاجمني كبار الصحفيين السود بشأن إعادة البناء والمصالحة، سيكون لدينا حمام دم ما لم نجعل ذلك ضمن السياسة الأساسية، إن هذه البلاد كانت ستحترق».[40]

لم تكن المصالحة عند مانديلا أبداً عبارة عن المسألة السهلة في الصفح، ولا يمكن أن يوافق عشرات الآلاف من ضحايا التعذيب وعائلات الرفاق الذين ماتوا، لا يمكن أن يوافقوا على إخفاء رعب الماضي تحت السجادة. اعتقد

مانديلا أنه فيما عدا إبادة هتلر الجماعية لليهود «ليس هناك شر ندد به العالم بأكمله مثل التمييز العنصري». [41] توجب على المؤتمر الوطني الإفريقي إيجاد طريقة للصفح من غير النسيان. وكانت نتيجة ذلك شروع مانديلا في شباط (فبراير) 1996 بأكثر ابتكار مثير للجدل لحكومته ألا وهو: لجنة الحقائق والمصالحة.

بدأت لجنة الحقائق ـ كما نسي معظم ناقديه ـ جزءاً من المساومة الصعبة حول «الثورة عن طريق التفاوض». كان الرئيس دوكليرك وقوى أمنه قد أصروا باستمرار على عفو عام، بمصلحة ذاتية أغضبت مانديلا؛ لا يمكن للمؤتمر الوطني الإفريقي أن يسمح لنظام التمييز العنصري «بأن يمنح العفو لنفسه». [42] وبعد مناقشات حادة وافق دوكليرك مع مانديلا في النهاية على صيغة: لجنة تمنح عفواً فردياً شريطة أن يكشف المجرمون عن الحقيقة، ويستطيعوا إثبات أن أعمالهم كانت ذات مضامين سياسية. اعتقد الكثيرون من الناشطين في المؤتمر الوطني الإفريقي أن الصفقة كانت كريمة جداً. «الآن أعرف أن قتلة زوجتي سينالون الحرية»، هذا ما قاله جوي سلوفو الذي قتلت زوجته روث فيرست برسالة مفخخة. [43] كانت ابنته جيليان مذهولة عندما سمعت رجال الشرطة يشهدون بقسوة عن كيفية قتلهم لأمها، من أجل أن يحصلوا على العفو. لكن كما أدركت: «فإن لجنة الحقائق والمصالحة لم يفترض بها أن تكون بخصوص العدالة، إنها بخصوص الحقيقة». [44] أراد المؤتمر الوطني الإفريقي تجنب محاكمة «مجرمي الحرب» مثل محاكمات النازيين في نورمبرغ، مما يحتمل ظهور شهداء. تطلع محامو المؤتمر الوطني الإفريقي إلى نماذج أخرى في أوربة الشرقية، وتشيلي والأرجنتين وتوصلوا في النهاية إلى الحل الخاص بهم: «بين العفو وفقد الذاكرة». ولجنة الحقائق، على العكس من التحقيقات الأمريكية اللاتينية، ستكون لها سلطات شبه قضائية في منح عفو فردي، مع سلطة الاستدعاء للمثول أمام المحكمة والاستماع في العلن. لكن الذين يطلبون العفو كان يتعين عليهم أن يقولوا الحقيقة كاملة. وبذلك أصبحت لجنة الحقائق قادرة

على عكس صورة تفصيلية وأكثر مدعاة للصدق بخصوص أعمال التعذيب، والقتل والضحايا من أية تحقيقات سابقة في أي مكان في العالم. وقد حصلت أيضاً على ميزة دينية أكثر عندما عيّن مانديلا الأسقف توتو رئيساً لها، إضافة إلى واعظ ميثودي هو أليكس بورين نائباً له. رأى دوكليرك في بورين «متعصباً وفضولياً»، وبوصفه أيد سابقاً لجنة الحقائق، فإنه تناقش مع مانديلا بغضب بخصوص عضويتها.[45] لقد حولت رئاسة توتو جلسات الاستماع التي تلت إلى مسرحية خليط من المحاكمة والاعتراف والأخلاقية، مع بُعد إفريقي. كُتبت الـ Ubuntu فصلاً في الدستور الجنوب إفريقي «الحاجة إلى التفهم لكن ليس إلى الانتقام، الحاجة إلى الترميم وليس إلى الرد، الحاجة إلى Ubuntu ولكن ليس إلى الاحتيال».[46]

تم تكريس اللجنة في شباط (فبراير) 1996 في الكاتدرائية الأنكليكانية في كيبتاون أمام جمهور مختلط وملون بمن فيه ويني مانديلا. جاء في الشعار الذي كتبه وزير العدل دولا عمر: «إنني أدعوكم لتشاركوا في البحث عن الحقائق التي لن تتوافر أية مصالحة من غيرها». القساوسة من عدة عقائد دينيّة بمن فيهم اليهود والبوذيون رددوا مباركتهم وألقى مانديلا خطاباً ملطفاً مكرراً: «بإمكاننا أن نصفح، لكننا لن نستطيع أن ننسى أبداً» وواعداً أن اللجنة ستكون متحررة من أي تدخل سياسي. تحدث توتو بإيجاز غير مألوف. قال: في هذه المرة ليس لدى الأسقف كلمات كثيرة يقولها، الحمد لله». وهو سيبقى بعيداً إلى حد ما عن مانديلا والمؤتمر الوطني الإفريقي؛ بحلول تشرين الثاني (نوفمبر) 1996 كان يهدد بالاستقالة عندما قاوم المؤتمر الوطني الإفريقي السعي وراء العفو على أساس أن كفاحهم كان «كفاحاً عادلاً».[47] لكن دوكليرك ومعظم الأفريقانيين سيَعُدّون أكثر فأكثر أن لجنة الحقائق والمصالحة إنما هي ذراع لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي.

خلال السنتين التاليتين عكست الجلسات التي أعلن عنها كثيراً للجنة

الحقائق قصصاً أكثر رعباً مما تخيله معظم السياسيين بمن فيهم مانديلا، عندما وصف المجرمون والضحايا التفصيلات الرهيبة عن التعذيب والاغتيالات، التي نقلت عبر التلفزة والإذاعة والصحافة. كان للمؤتمر الوطني الإفريقية تاريخه القائم الخاص بخصوص الجرائم السياسية، وفي النهاية قدم تقريراً معترفاً فيه أن اثنين وعشرين عضواً تم إعدامهم في معسكرات في الخارج لإساءات شملت العصيان، الخيانة، الاغتصاب والقتل.[48] لكن معظم الأدلة كان حتماً على الفظاعات التي ارتكبتها قوى التمييز العنصري.

كان الرسميون والسياسيون الذين لم يطلبوا العفو يمكن إدانتهم عبر عمليات قضائية عادية. فوزير الدفاع السابق ماغنوس مالان اتهم مع آخرين بالتآمر لإحداث المذابح في كوازولو، وذلك في محاكمة مثيرة. واجه المؤتمر الوطني الإفريقي نكسة عندما تمت تبرئة مالان، لكن مانديلا قبل الحكم فوراً. وحققت لجنة الحقائق اختراقاً فيما بعد وبسرعة عندما بدأ الضباط الكبار في قوى الأمن في التمييز العنصري بتوريط الآخرين، بمن فيهم يوجين دوكوك المعروف باسم «الشيطان الرئيسي» الذي كان يدير معسكر فلاكبلاس الرديء السمعة، حيث كان يتم تنظيم فرق الموت؛ وقد أشار إلى دوكليرك بوصفه رئيسه المطلق. بعد ذلك بوقت قصير وفي موجة من الاعترافات كشفت الشرطة وضباط الجيش عن التعذيب والقتل المنظميْن. كانت أجساد الضحايا تُقطّع أو تحرق حتى تصبح رماداً؛ وكانت الوثائق تدعو إلى «التخلص من»، و«التحييد» و«الإقصاء من المجتمع»، ووصف قتلة ستيف بيكو بتفصيلات رهيبة كيف قتلوه.[49]

حاول أعضاء اللجنة إرجاع المسؤولية إلى القمة، وإقناع السياسيين بالاعتراف بأخطائهم، قدم بعض الوزراء السابقين اعتذارات جزئية. اعترف بيك بوثا أن جميع الوزراء في المجلس ارتابوا على الأقل بأن الشرطة كانت تقتل أو

تعذب المناوئين، لكنهم فشلوا في اتخاذ خطوات ضد ذلك. «إنني آسف جداً لهذه اللامبالاة، ليسامحني الله». [50]

أما أدريان فلوك وزير الشرطة السابق، فقد اعترف في البداية فقط قائلاً: «نحن في القمة اتخذنا قرارات معينة واستخدمنا مصطلحات فنية من غير التفكير بها». [51] لكنه أوضح فيما بعد أن دوكليرك ذاته قد أصدر أوامر بذلك. بقي دوكليرك مراوغاً. قال: «إن الحزب الوطني على استعداد للاعتراف بأخطائه الكثيرة في الماضي وأنه نادم بصدق»؛ لكنه أصر على أن استراتيجيات الحكومة «غير العادية» «لم تشمل أبداً السماح بالاغتيال والقتل والتعذيب والاغتصاب والاعتداء وما شابه». [52] بعد المزيد من البوح ظل دوكليرك ينكر أن الحكومة قد أعطت قوى الأمن الرخصة بالقتل؛ أجاب توتو بتأثر أنه لا يمكنه تفهم نكرانه «في ضوء الكميات الهائلة من المعلومات». [53]

أُلقيت المسؤولية المطلقة في الكثير من الفظائع في عقد الثمانين على مجلس أمن الدولة الذي كان يرأسه ب. دبليو. بوثا؛ وأصرت اللجنة على وجوب الإدلاء بشهادته، لكن بوثا ندد بلجنة الحقائق والمصالحة بوصفها (سيركاً)، وهاجم أساسها الديني ورفض الظهور. نصح أصدقاء بوثا مانديلا بعدم ارتكاب الخطأ بتحويله إلى شهيد. مثلما كان قد حول مانديلا إلى شهيد في السجن. [54] حاول مانديلا وتوتو تجنب المواجهة؛ حتى إن مانديلا عرض مرافقة بوثا إلى الجلسات. ظل بوثا رافضاً بعد أن اتهم في المحكمة بتحدي الاستدعاءات. لكن اللجنة كشفت وثائق أظهرت كيف أن مجلس أمن الدولة بزعامة بوثا قد وجه التعليمات بأن المناوئين يجب «تحييدهم»، وأنه وضع قائمة بأولئك الذين ربما يتطلبون «وسائل غير السجن». [55] وجدت اللجنة في تقريرها النهائي بعد تعداد «الانتهاكات الفادحة» في ظل زعامته، وجدت أن «بوثا ساعد وسهل إيجاد الجو الذي يمكن لهذه الانتهاكات الفادحة لحقوق الإنسان أن تحدث من خلاله، ولذلك فهو مسؤول عن تلك الانتهاكات». [56]

أكملت لجنة الحقائق تقريرها في تشرين الأول (أكتوبر) 1998، مع خمسة مجلدات من التحقيقات الدقيقة والاكتشافات، والتي شملت اتهامات خطيرة ضد المؤتمر الوطني الإفريقي. أثار التقرير ردود فعل غاضبة من الجانبين. دوكليرك الذي اتهم بتغطية أعمال القصف، تقدم بنجاح إلى محكمة الكاب العليا لوقف أحكام اللجنة عليه، التي تم التعتيم عليها في المجلدات المطبوعة.[57] والأكثر مدعاة للقلق أن المؤتمر الوطني الإفريقي الذي رأى جزءاً فقط من التقرير، طالب بجلسة خاصة للاستماع؛ أعضاء اللجنة كانوا منقسمين، واستخدم توتو الصوت المرجح ضد المؤتمر الوطني الإفريقي.[58] ثم قرر المؤتمر المضي إلى المحكمة في محاولته وقف العلانية، وذلك ضد نصيحة مانديلا، الذي أمضى ساعة وهو يتناقش مع أمين السر العام للحزب على الهاتف. لكن طلب المؤتمر الوطني الإفريقي تم رفضه، على العكس من طلب دوكليرك.[59] كان توتو غاضباً من «إساءة استعمال السلطة» من قبل المؤتمر الوطني الإفريقي وحذر من أن «مضطهدي الأمس ربما يصبحون بسهولة ظُلاّم اليوم... رأينا ذلك يحدث في شتى أنحاء العالم، ويجب أن لا نفاجأ إذا ما حدث هنا».[60] ربما كان توتو قد بالغ، لكن من المؤكد أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد أخطأ خطأ فادحاً خطيراً؛ عندما نشرت المجلدات الخمسة للتقرير في حينه أعطت تقارير الأخبار القليل من الفضل للمؤتمر الوطني الإفريقي لكونه قد بدأ بالتحقيق، ووكدت بدلاً من ذلك على محاولاته إخفاء اكتشافاته. قالت الواشنطن بوست: «بوضع غطاء على عملية الحقيقة والمصالحة، فإن الحزب ربما أثار المزيد من التساؤل حول مصداقيته بالذات، أكثر من التساؤل حول لجنة الحقيقة».[61]

كان ثابو مبيكي بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي مسؤولاً مسؤولية مطلقة، وادعى مكتبه بجرأة أن أي عضو في المؤتمر الوطني الإفريقي لا يمكنه أن يتفق مع «المحاولات البذيئة لتجريم النضال من أجل التحرير».[62] لكن

مانديلا لم يخف عدم موافقته: وافق على أن المؤتمر الوطني الإفريقي قد ارتكب انتهاكات فادحة، واعتقد أن مبيكي كان متسرعاً جداً. قال: لو أنهم قرؤوا التقرير بأكمله «فإن استجابة المؤتمر الوطني الإفريقي ربما كانت مختلفة كلياً».[63] استمر مانديلا في تأييده التام للجنة الحقائق: «يجب أن نعتبر أن شفاء شعب جنوب إفريقية هو عملية وليس حدثاً». هذا ما قاله في الشهر التالي. قال عن لجنة الحقائق والمصالحة «ساعدتنا في التحرك بعيداً عن الماضي لنوكد على الحاضر والمستقبل».[64] وبوصفه رئيساً للدولة رأى أن لديه ولاءات تتجاوز المؤتمر الوطني الإفريقي، الذي لم يعد رئيسه الآن. قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999: «أنا رئيس البلاد، وأنا شكلت لجنة الحقائق والمصالحة. لقد قام أعضاؤها بعمل جدير بالإعجاب وإن لم يكن مثالياً، وأنا صادقت على كل ما فعلوه».[65]

في الفترة التي تلت ذلك كان هناك مزيد من النقاش حول منح عفو عام لإحباط المقاضاة المسببة للخلاف والشقاق، ولا سيما ضد أعضاء حزب الإنكاثا التابع لباثيليزي الذين صاروا الآن يتقربون أكثر من المؤتمر الوطني الإفريقي. لكن مانديلا عارض عفواً عاماً منذ أن عرض دوكليرك ذلك أولاً لشرطة الأمن عام 1994، وظل يصر على أن العفو يجب أن يُعطى فقط على أساس فردي: «ليس هناك قضية عفو عام حسب ما أرى، وأنا سأقاوم ذلك بكل قوة متوفرة لدي». هذا ما قاله في تشرين الثاني (نوفمبر) 1998.[66]

كان موقف مانديلا مذكراً بقدرته على تجاوز ضغوط الحزب قصيرة الأمد، وبإيمانه الراسخ بأن وحدة الشعب اعتمدت على الصفح ومواجهة الحقيقة على جميع الأطراف في آن واحد. وعلى الرغم من خطأ مبيكي الفادح، فإن موقف مانديلا شاركته فيه أعداد كبيرة من الإفريقيين، بمن فيهم العديد من أعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي الذين تشكوا بخصوص محاولة كتمان التقرير.

كم كان الصفح مميزاً بالنسبة إلى مانديلا، وكم كان انعكاساً للشعب الإفريقي؟ إن أرملة سامورا ميتشل وهي غراكا التي هي الآن أقرب إلى مانديلا من أي شخص آخر، كانت لها تجربتها الخاصة من الفظاعات والمصالحة في موزامبيق. رأت أن الصفح الجنوب إفريقي قد انتشر سريعاً، وأنه جزء من نموذج عبر إفريقية: «إنه هناك في ثقافتنا. عندما نواجه تحدياً كهذا فإننا نستمد من تلك الثقافة التي هي عميقة جداً في نفوسنا». لكنها اعتقدت أيضاً أن المواقف كان يمكن أن تكون مختلفة جداً من غير زعامة مانديلا.

> إنه يرمز إلى صفح وتفهم واستمالة أوسع بكثير. لو أنه غادر السجن وبعث برسالة مختلفة «فإن بإمكاني أن أخبركم أن هذا البلد ربما شبت فيه ألسنة اللهيب». لذلك يجب عدم الإقلال من قيمة دوره أيضاً. لقد عرف بالضبط الطريقة التي أراد الظهور بها، وكذلك الطريقة التي خاطب الناس بها منذ البداية، مرسلاً رسالة بما اعتقد أنها أفضل طريقة لإنقاذ الأرواح في هذا البلد، أي تحقيق المصالحة... بعض الناس انتقدوه بأنه ذهب شوطاً بعيداً، ليس هناك شيء اسمه شوط بعيد إذا كنت تحاول إنقاذ هذا البلد من هذا النوع من المأساة.[67]

37

الانسحاب

كان التعاون بين مانديلا ودوكليرك في الحكومة ذاتها إنجازاً تاريخياً، وكانت حكومة الوحدة الوطنية تعمل بأفضل مما توقعه معظم الأعضاء. لكن الزعيمين لم يكونا مرتاحيْن أبداً مع بعضهما. إذ وجد دوكليرك من الصعب قبول أنه لم يعد رئيساً، وهذا ليس بالأمر المفاجىء، وشعر أن مانديلا قد ألحق به الذل عمداً. في حين وجد مانديلا دوكليرك استفزازياً في الوزارة بلا ضرورة، وكذلك كان بيك بوثا وروبلوف مبير. كان غضب مانديلا يثور بحدة أحياناً، لكنه يحاول تسوية المسائل بود فيما بعد، كما يصر، وقدّر دور دوكليرك.[1]

انكشف التوتر بصورة علنية جداً في أيلول (سبتمبر) 1995، بعد أن ألقى مانديلا كلمة في جوهانسبورغ انتقد فيها الحزب الوطني. كان دوكليرك غاضباً، وحاول تجنب مانديلا، لكن مانديلا طلب رؤيته، ووجدا نفسيهما في النهاية وهما يتجادلان بعنف في الشارع، حيث كان كل منهما يلوح بأصبعه في وجه الآخر أمام الكاميرات. وذلك قبل أن يمضي مانديلا. كان مانديلا آسفاً لجدالهما في الشارع، كما قال لدوكليرك فيما بعد، لكنه لم يعتذر. شعر دوكليرك أن مانديلا أصبح أكثر قسوة وأكثر فزعاً ـ بسبب سني سجنه ـ مما أظهره علناً.[2]

عانى دوكليرك مشكلات مع مؤتمر حزبه بالذات، فقد اتُهم بإهمال الحزب وهو يشكل جزءاً من الحكومة؛ ووصلت الشكاوى إلى الذروة في أيار

(مايو) 1996، عندما وافق المؤتمر الوطني الإفريقي وأحزاب أخرى على دستور جديد، لم ينص على مشاركة الحزب الوطني في السلطة على المستوى التنفيذي حتى عام 2004، كما كان يريد.[3] اعترض العديد من أعضاء اللجنة التنفيذية في الحزب، ولا سيما من الكاب الغربي، اعترضوا بقوة: وفي 9 أيار (مايو) أعلن دوكليرك أن الحزب الوطني سينسحب من حكومة الوحدة الوطنية. صُدم معظم زملائه الأفريقانيين الستة: إذ وجد بيك بوثا نفسه فجأة بدون منزل ومكتب وعمل وزاري بعد أن كان في الوزارة لتسعة عشر عاماً. وليون ويسلز، وهو وزير أكثر حداثة، اعتقد أن دوكليرك لم يبذل جهداً كافياً لجعل حكومة الوحدة الوطنية تعمل: «لقد تفاوض من أجلها، لكنه لم يعمل من أجلها»[4]، شعر رويلوف مير الذي أصبح أمين سر عاماً للحزب في شباط (فبراير)، شعر بأنه قد تمت خيانته.[5]

وعد دوكليرك بمعارضة قوية جداً للحكومة. وأخبرني أنه أراد ضمان «ديمقراطية لائقة متعددة الأحزاب»، حيث إنه في حال عدم توفرها، «سيكون هناك خطر أن تنزلق جنوب إفريقية في النموذج الإفريقي لدول الحزب الواحد».[6] لكن خلال بضعة شهور كان الحزب الوطني في حالة فوضى متعاظمة: استقال رويلوف مير ليؤلف حزبه الخاص، وتقاعد دوكليرك ذاته من السياسة سريعاً. وتبين فيما بعد أنه كان على علاقة عاطفية مع إليتا جورجيادس، زوجة صديق كبير! قال: «لأول مرة في حياتي، تسلّم قلبي زمام السيطرة». وبعد وقت قصير من مغادرته الحكومة، طلّق زوجته ماريك وتزوج إليتا.[7]

أسف بعض وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي لتمزق الائتلاف. قال أحد أعضاء الوزارة: «كانت هناك رفقة تتطور، وتمزيقها كان من أكبر الأمور التي لم يخدم فيها دوكليرك البلاد». قال مانديلا في ذلك الوقت إنه كان يأمل في أن تستمر الشراكة وقتاً أطول. لكنه اعتقد أن نفوذ دوكليرك في الوزارة كان

يتضاءل، ورأى في التغيير «بلوغ سن الرشد».[8] من المؤكد أنه لم يفتقد وجود دوكليرك، لكنه يحيي مكان دوكليرك في التاريخ، و«عمله الرائع» في المساعدة على تحويل البلاد؛ قال عام 1999: «نحن ممتنون له وللآخرين لعملهم معاً إلى جانبنا لتجنب حرب أهلية دموية».[9]

بدا مانديلا واثقاً من أن المؤتمر الوطني الإفريقي يستطيع أن يحكم من غير الحزب الوطني. أبقى وزراء المؤتمر الوطني الإفريقي في مناصبهم القائمة، وملأ الفراغات بمزيد من الرجال من المؤتمر الوطني الإفريقي. أصبح ثابو مبيكي الآن النائب الوحيد للرئيس، وكان يدير البلاد بتصميم أكثر منذ أن أصبح مانديلا يزداد بعداً عن الحكومة يوماً بعد يوم. كان مبيكي قلقاً من أن يفقد المؤتمر الوطني الإفريقي (ديناميكيته) في الائتلاف، ورأى في الخلاف مع الأفريقانيين شيئاً محتوماً ومفيداً. لم يشعر بالحاجة إلى الوزراء الأفريقانيين لضمان دعم الموظفين المدنيين! اعتقد أنهم سيكونون موالين لمن يدفع لهم.[10] وصار المؤتمر الوطني الإفريقي الآن أقل قلقاً بشأن التمرد الأفريقاني؛ قال وولتر سيسولو: «مضى الوقت الذي كان يشكل فيه الجناح اليميني خطراً، لقد لعبنا أوراقنا بدرجة ممتازة في هذه القضية».

«واليوم يمكننا أن نعمل مع الجناح اليميني بصورة أفضل مما كنا مع الوطنيين».[11]

كان دوكليرك يأمل أن يخرج باثيليزي وحزبه الإنكاثا من الحكومة مثله، «متى ستغادر؟» سأل باثيليزي في مكتبه بعد ذلك بوقت قصير. لكن باثيليزي أجاب بفظاظة إنه لن يغادر ما لم يطلب منه حزبه ذلك، وبقي كوزير للداخلية.[12] تحسنت علاقته مع مانديلا تحسناً ملحوظاً، وازدهرت عندما اضطر مانديلا لأن يكون خارج البلاد لفترة قصيرة في نفس الوقت الذي غاب فيه مبيكي أيضاً، وعين باثيليزي رئيساً بالوكالة. . «آمل أن يكون في مقدور الرئيس العودة»، هذا ما مزح به سياسي من الحزب الوطني. لكن بدا أن

باثيليزي قد هدأ بدوره المؤقت هذا، والذي تكرر عدة مرات فيما بعد، وكان مانديلا يناديه أحياناً «السيد الرئيس بالوكالة».

في عمر الثامنة والسبعين بدا مانديلا منفصلاً أكثر وبوضوح. قال أحد المستشارين «لقد تنازل فعلاً بعد تفكك حكومة الوحدة الوطنية». لقد استمتع بالإقلال من دوره، مشيراً إلى نفسه بوصفه مجرد زخرف، أو رئيس دولة رمزي. قال في سنغافورة في آذار (مارس) 1997: «لو أردت أن أرى تقدماً حقيقياً في بلادنا، لكان يجب أن أتنازل قبل ثلاثة أعوام. لدينا رجال ونساء ذوو مقدرة عالية».[13] من المؤكد أنه تصرف في كثير من الأحيان وكأنه ملك دستوري أكثر من أن يكون رئيساً تنفيذياً، في الوقت الذي كان يحيل فيه الكثير من المشكلات والزوار إلى نائبه ـ حتى رئيس البنك الدولي ـ وترك مبيكي ليشرف على اجتماعات مجلس الوزراء. لكنه بقي متمسكاً بالكثير من مفاصل السلطة، بما في ذلك الاستخدام والصرف من الخدمة، وكان بإمكانه السيطرة على زملائه إذا رغب بذلك. قال مراقب قريب: «ذكرني ذلك بقطاط المنزل في مزرعة حيث أمضيت طفولتي. كان أحد القطاط الكبار ينفق معظم يومه وهو جالس مع الباقين ـ من غير أن ينظر إليهم ـ لكن عندما يتحرك، فإنهم ينكمشون جميعاً».

كان مانديلا في ابتعاده مصمماً أكثر فأكثر على توحيد شعبه، والنظر إلى المدى البعيد. في تموز (يوليو) 1996، بعد وقت قصير من مغادرة دوكليرك الحكومة، أقام مانديلا حفل عيد ميلاده الثامن والسبعين في حدائق قصر الدولة في بريتوريا، من أجل «رفاق النضال». وألقى كلمة ارتجالية بلا نظارات، وبلا وسائل إعلام تنقلها. شرح قائلاً إنه خلال المفاوضات كان يقول على الدوام إنه يجب أن لا يكون هناك رابحون ولا خاسرون، الشعب الجنوب إفريقي كله يجب أن يكون الرابح «يجب أن لا تتنازلوا عن مبادئكم، لكن يجب أ لا تذلوا المعارضة. لا أحد أخطر مثل الذي تم إذلاله». لم يأسف لمغادرة دوكليرك، لكنه أراد أن يُدخل منافسيه السود الكبار، الإنكاثا والـ PAC (كان قد دعا أرملة

زعيم الـ PAC الراحل زيف موثوبينغ إلى مأدبة الغداء هذه).[14]

كان مانديلا ما يزال مدركاً بدقة كيف أن البلاد تجنبت الحرب الأهلية بصعوبة بالغة قبل عامين ماضيين، وبالمدى الذي كان يتمتع به صانعاً للسلام. كان حذراً من عبادة الشخصية، وارتاب بأن منتقدي المؤتمر الوطني الإفريقي كانوا يمتدحونه من أجل شجب الآخرين: «من غير المقبول وبخاصة أن يترافق هذا الأسلوب من (عبادة البطل) بجملة منهجية لتشويه سمعة الزعماء الآخرين في المؤتمر الوطني الإفريقي أمثال نائب الرئيس ثابو مبيكي». قال هذا قبل ذلك بخمسة أشهر. «إنها حملة تتجاوز أية مقاييس متحضرة في الخطابة ناهيك عن الموضوعية».[15]

تم حث مانديلا من قبل زملائه ووسائل الإعلام على تخفيف عبء عمله، والتخلي عن رئاسة المؤتمر الوطني الإفريقي، ولما حانَ موعد حفلة عيد الميلاد، كان قد قرر الانسحاب في الوقت المناسب من أجل المؤتمر التالي للمؤتمر الوطني الإفريقي في كانون الأول (ديسمبر) 1997، في حين يبقى رئيس جنوب إفريقية إلى نهاية فترة الخمس سنوات عام 1999. سألته: ألا يضعف ذلك من نفوذه، رئيساً للدولة؟ أجاب بحزم «أنت لا تقود بمنصبك، بل بقوة أفكارك».[16]

عندما أعلن قراره صراحة في آب (أغسطس) 1997، ترك ذلك حتماً فراغاً سياسياً. كان من الواضح أن ثابو مبيكي سيخلفه رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي، لكن ذلك سيترك منصب نائب الرئيس فارغاً، وهذه خطوة حاسمة على طريق الوصول إلى القمة. لم يستطع مانديلا منع قيام صراع علني مربك على الزعامة.

بدا مركز مبيكي الآن وهو أكثر أماناً بكثير؛ فمنذ منتصف العام 1996 كان مانديلا يعامله كوريثه السياسي أكثر فأكثر. وكان منافسو مبيكي الرئيسون، بما فيهم أولئك الذين ظهروا محسوبين على مانديلا، صاروا الآن خارج السباق.

سيزمع رامافوزا بعد دفعه قدماً الدستور الجديد ترك المجلس النيابي ليصبح نائب رئيس أكبر مجموعة أعمال إفريقية وهي شركة إفريقية الجديدة المحدودة للاستثمارات. لقد أنكر حدوث صدام خطير مع مبيكي؛ «إننا نتفق اتفاقاً تاماً حول العديد من الأمور. وإذا اختلفنا، فإنه في مجال التشديد فقط». [17] لكنه أبلغ أصدقاء له أنه سيعود إلى مجال السياسة خلال عشر سنوات. [18] كان توكيو سيكسويل رئيس وزراء غويتنغ، منطقة جوهانسبورغ، قد رفع نفسه سابقاً إلى مجال المنافسة؛ فقد وضع في منزله صورة ساخرة تظهر مبيكي ورامافوزا وهما يتلاكمان في حين كان قادم جديد سمي «توكيو» يدخل إلى الحلبة. ما زال بمقدوره إبهار الجماهير بابتسامته العريضة البيضاء وفن الخطابة المليء بالحيوية، لكنه أخفق في تحقيق غايته بهجماته على مبيكي الذي دمره بهدوء. وبحلول أيار (مايو) 1997 كان قد قرر هو أيضاً ترك السياسة لصالح الأعمال.

بقي مانديلا يطالب بالولاء الكامل للمؤتمر الوطني الإفريقي، كما فعل منذ عقد الخمسين، واعتقد بعض الزملاء أنه بالغ في ذلك. وبدا لبعض الوقت أنه يفضل بانتو هولوميزا، صديقه الرئيسي في الترانسكي حيث أمضى معه عطلة عيد الميلاد، وحيث عينه نائب وزير البيئة. وكان هولوميزا بأسلوبه الصبياني المباشر، يتمتع بشعبية كبيرة عند الجماهير ـ وكان مقرباً من ويني ـ لكن في تموز (يوليو) 1996 أبلغ هولوميزا لجنة الحقائق أن زميلته في الوزارة ومنافسته ستيلاسيغكو قبلت رشوة من مالك الكازينو صول كيرزنر. طلب مانديلا من هولوميزا أن يعتذر، وعندما رفض طرده فوراً من الحكومة. رد هولوميزا قائلاً إن المؤتمر الوطني الإفريقي هو في جيب كيرزنر، وأن كيرزنر دفع مليوني رند من أجل صندوق الانتخابات. ورد المؤتمر الوطني الإفريقي بتسميته «الكذاب الوقح»؛ اعترف مانديلا بأن كيرزنر قد أعطاه سراً المال من أجل الصندوق، كان في الحقيقة واحداً من بين المانحين الكريمين العديدين. [19] وتوجب على مانديلا الاعتراف بأن المؤتمر الوطني الإفريقي قد أساء التعامل مع هذه القضية

بخطورة، لكنه لا يستطيع ـ رغم ذلك ـ الصفح عن خيانة هولوميزا. لم يجرؤ هولوميزا على مواجهة مانديلا وجهاً لوجه، وشكل في النهاية حزباً جديداً ـ الحركة الديموقراطية الموحدة ـ بالاشتراك مع رويلوف ميير الوزير السابق من الحزب الوطني. فشل الحزب في أن يكون له تأثير وطني، لكنه سبب الكثير من المشكلات للمؤتمر الوطني الإفريقي.

لم يكن هناك مرشح واضح لمنصب نائب الرئيس، جويل نيتشيتنزه، مدير مكتب مانديلا للاتصالات، تم التحدث عنه، لكنه لم يكن منافساً أبداً. أيدت الهيئة التنفيذية جاكوب زوما، رئيس الحزب، وسجين سابق في روبن آيلاند ساعد في صنع السلام في كوازولو. أما رئيس وزراء مبومولانغا، ماثيو فوزا، وهو محام وشاعر، فقد تقدم عن طريق مقاطعته، قبل أن يتم إقناعه بالانسحاب لصالح زوما.

لكن كان هناك مرشح مثل الجاثوم (الكابوس) قد بدأ بالظهور؛ زوجة مانديلا السابقة التي تدعى الآن ويني ماديكيزيلا ـ مانديلا، عادت مجدداً إلى الواجهة السياسية. وخلال جميع أعمالها الشائنة بقيت بطلة بالنسبة إلى العديد من الأشخاص الفقراء العاديين، الذين أحبوا آراءها الجريئة وشجاعتها الفائقة بل حتى تهورها: ومثلها مثل إيفيتا بيرون في الأرجنتين وإيميلدا ماركوس في الفيليبين، فإنها قدمت مخرجاً من كآبة وقذارة المناطق. كانت تدافع عن الثورة وتنتقد الرضا الذاتي للزعامة، بلا حل وسط. «لم نعلم أن الانتقال سيكون قاسياً لهذه الدرجة، إن الديموقراطية ذات كلفة أبهظ بكثير مما كنا نعتقد». [20] هذا ما قالته عام 1997. بحلول نيسان (أبريل) 1997 كانت قد انتُخبت رئيسة عصبة النساء، التي عينتها فيما بعد نائب رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي. خلال اجتماعات الهيئة التنفيذية الوطنية كانت صامتة جداً، لكن في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) أعطت مقابلة طويلة واستفزازية لصديقها نيوتون كانهيما في الجوهانسبورغ ستار، حيث هاجمت زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي. اشتكت من أن «المجرمين هم المسيطرون» وانتقدت

لجنة الحقائق ـ «مع ديزموند توتو الذي يعانق بيك بوثا» ـ وحثت على العودة إلى عقوبة الموت، التي كانت الزعامة رافضة إياها كلياً.[21]

ثار غضب المؤتمر الوطني الإفريقي. قال ستيف تشويت وزير الرياضة «لا يمكنني تذكر أي تحدٍ للحركة من قبل شخصية كبيرة كهذه» فيما عدا الناس الذين أصبحوا غير ملائمين. كتب تشويت جواباً مدمراً على مقابلة ويني في الستار بعد ثلاثة أيام، مهاجماً التفكير المشوش والانتقاد غير العملي من قِبَل الشعبيين الذين «ربما يظهرون بمظهر الراديكاليين لكنهم يمينيون في الواقع». دعا ويني باسم «الفرد الذي لا يحترم القوانين والأنظمة»، وتشكى من أنها كانت قد حاولت «تشويه سمعة الرئيس، بعد الألم الرهيب الذي سببته له». وكرر إعلان الحقائق الصعبة للحكومة: «لقد حققنا نصراً ذا قيود وتوترات كثيرة».[22]

عادت إلى الظهور اندفاعات ويني الماضية، وكان ذلك عن طريق لجنة الحقائق في هذه المرة، التي كانت تنظر في إساءات المؤتمر الوطني الإفريقي إضافة إلى إساءات الحكومة الماضية. برزت اتهامات جديدة بأن ويني ربما كانت مسؤولة عن مقتل أبي بكر أسفات، الطبيب من سوويتو الذي فحص ستومبي سيبي قبل موته عام 1988.

وفي أيلول (سبتمبر) 1997 ظهرت قصص رعب أخرى في برنامج تلفازي مثير، ظهر على الـ بي. بي. سي والـ إس. إيه. بي. سي، استهلته الليدي (إيما) نيكولسون السيدة البريطانية العنيفة، وأنتجه صحفي يميني هو فريد بريدجلاند. وكان يصاحب البرنامج كتاب «رحلة كاتيزا» القائم في معظمه على مقابلات مع كاتيزا سيبيخولو، وهو شاب عمل في الشرطة ثم دخل في نادي مانديلا الموحد لكرة القدم، وقدم شهادة عيان على هجوم ويني على ستومبي بسكين أو مقص قبل موته مباشرة: «رأيتها ترفع يدها وتطعن ستومبي مرتين»[23] ادعى البرنامج أيضاً، بلا دليل وبلا موافقة نيكولسون، أن مانديلا ذاته قد عمل شخصياً على نفي كاتيزا لاحقاً إلى لوساكا، حيث ذبل في السجن.[24] سبب

البرنامج والكتاب غضباً ضمن المؤتمر الوطني الإفريقي؛ لكن حقيقة أنهما قد انطلقا من مصادر يمينية أجنبية بدت أنها تعزز صورة ويني الشعبية بدلاً من أن تدمرها. وصفت ويني كاتيزا بأنه «مجنون»، والليدي نيكولسون بأنها «بقرة مجنونة». (25)

كانت الأعين كلها تتركز الآن على لجنة الحقائق، التي بدأت أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) الاستماع إلى شهادة الشهود بخصوص جريمة قتل ستومبي سيبي وآخرين أمام كاميرات التلفزة والصحافة العالمية. أعيد تمثيل الأحداث الإجرامية في سوويتو قبل عشر سنوات، مع روايات دموية ومتناقضة عن أعمال الخطف والتعذيب والقتل مما ورط ويني وكذلك ابنتها زندزي أكثر فأكثر كشريكتين واضحتين، كان رئيس اللجنة الأسقف توتو يقاطع بين الحين والحين؛ أنصتت ويني بدون أن تتأثر. شعر مانديلا بالألم لهذا الدليل، لكنه لم يحاول التدخل.

في اليوم التاسع قدمت ويني نفسها الدليل، بوقاحة وتحدٍ. عندما سألها المحقق هانيف ڤالي من لجنة الحقائق والمصالحة بوجوب عدم التلاعب بالحقائق أجابت: «أنا لن أتحمل أن تتحدث معي بهذه الطريقة»، وآنذاك هدد توتو بإخلاء القاعة. أصرت ويني على «أن معظم الشهود الذين شهدوا هنا كانوا يكذبون». كان دليلها بالذات غامضاً مراوغاً، واشتكى توتو من أن إحدى الشهود تم تخويفها في مغسلة السيدات من قبل عصبة النساء في المؤتمر الوطني الإفريقي. عبرت ويني عن الأسف لكن ليس الندم بخصوص أعمال القتل.

أخيراً تجنب توتو الاستجواب باعتراض غاضب شارحاً كيف أنه عاش في الشارع ذاته مثل آل مانديلا، وأن ويني كانت عرابة إحدى حفيداته. كانت «نصيرة كفاحنا ورمزاً للتحرير... وقد تم فصل كل شيء سعياً وراء تحطيم تلك الروح». ناشدها أن تعتذر: «أنت شخصية عظيمة، ولا تدرين كم ستتعزز عظمتك إذ كنت ستقولين: آسفة، الأمور سارت سيراً خاطئاً، اصفحوا عني». شكرت ويني توتو كأب، وقالت إنها آسفة جداً لوالدة ستومبي وعائلة الدكتور

أسفات ـ «صحيح أن الأمور كانت جائرة جوراً مخيفاً» ـ لكنها لم تقدم المزيد من الاعتذار.[26] أثار تعاطف توتو بعض الشكوك حول حياده، في حين أن موقف ويني المتحدي لم يلغ تأهيلها الواضح نائباً محتملاً للرئيس.

كانت إزاحة ستار (دراماتيكية) للمؤتمر الخمسين للمؤتمر الوطني الإفريقي، الذي سينتخب موظفين رسميين جدداً، والذي اتخذ مكانه في مافيكينغ نهاية عام 1997، قرب الحدود مع بيتشوانا. أشرف مانديلا على حزبه لآخر مرة. وأكد مجدداً أو سلفاً أن انسحابه من المنصب لن يشهد تمزقاً مفاجئاً في الزعامة: «ثابو مبيكي هو رئيس البلاد بحكم الأمر الواقع، أنا أدفع إليه كل شيء، وإن تنازلي سيكون سهلاً جداً». هذا ما قاله على شاشة التلفاز، لكن ذلك كان حداً فاصلاً.

كان المؤتمر على نطاق أوسع بكثير من الاجتماع قبل ستة وأربعين عاماً، عندما تجمعت الوفود الإفريقية في قاعة جرداء في بلدة مغونتين للموافقة على حملة المقاومة السلبية التي بدأ بها الكفاح. والآن زُينت القاعة الكبيرة في الجامعة بالأزهار الصفراء، والشعارات الضخمة التي تقول: «كل السلطة للشعب» إضافة إلى صورة ملونة لمانديلا وأصابعه مقبوضة كما في الصلاة. اندفع المندوبون البالغ عددهم 3,500 إلى القاعة مرتدين القمصان الصفراء الخاصة بالمؤتمر الوطني الإفريقي والقبعات الخضراء الخاصة بالبيسبول ـ حيث كانوا ينشدون أغنيات المؤتمر الوطني الإفريقي. وعلى المنصة جلست الهيئة التنفيذية الوطنية، التي تضم جميع العروق، والقياسات والأجيال، بما فيها المحاربون القدماء الإفريقيون ـ غوفان مبيكي، ريموند مهلابا، أندرو ملانجيني ـ الذين كانوا في السجن مع مانديلا؛ وويني التي بدت شابة وهي ترتدي ثوباً قرمزياً، وكانت تتماوج مع الموسيقى.

دخل مغن بالثياب القبلية إلى القاعة منشداً مجاملات مبالغاً فيها مع

حروف لينة طويلة خمدت ببطء مثل صفارة الإنذار، وفي الصمت الذي تلا ذلك، ظهر الجسم النحيل لمانديلا بقميصه الأصفر، وهو يسير ببطء إلى المنصة. قام صف من القساوسة من الطوائف الدينية بمباركة المؤتمر، بما فيهم أبطال النضال مثل كارل نيهوس من كنيسة الإصلاح الهولندية والأب الكاثوليكي مخاكشوا الذي قال إن «المسيحيين والماركسيين ـ اللينينيين يتقاسمون القيم ذاتها». ثم قام الرئيس جاكوب زوما بتحميس القاعة ليقدم الرئيس.

فاجأت كلمة مانديلا كل شخص تقريباً. تحدث وهو واقف لمدة أربع ساعات ونصف في القاعة الخانقة، مع استراحة قصيرة لتناول طعام الغداء: «أنا الوحيد الذي يعرق»، قال ذلك بينما كان يمسح وجهه، لكنه بدا غير مرهق، انتقد كل شخص تقريباً، عدا منافسه القديم باثيليزي. وحذر حزبه بالذات ـ أمام تصفيق حاد ـ من مخاطر الفساد والجشع؛ وأشار إلى دول إفريقية أخرى ذات «نُخب نهّابة أثرت عن طريق نهب الثروة الوطنية»، ودعا إلى تجديد أخلاقي لتحقيق نهضة إفريقية. وحذر من استغلال السياسيين لمناصبهم من أجل جمع المال. وأبلغ المؤتمر الوطني الإفريقي بوجوب إنفاق المزيد من الوقت في جذب الناخبين البيض وليس تسليمهم إلى الأحزاب البيضاء. وانتقد رجال الأعمال البيض للبطء في التحويل ومنح السلطة للسود، التي بدأت لتوها. وألقى اللوم على وسائل الإعلام لتخليدها السلطات القديمة وإهمالها آراء السود. وانتقد المنظمات غير الحكومية التي كانت تعمل على «تآكل نفوذ الحركة». وحذر من أن «شبكة ثورية مضادة، يشرف عليها الأفريقانيون إلى حد كبير، كانت تحاول عمداً الإقلال من الثقة، وتخريب الاقتصاد واستخدام الجريمة لجعل جنوب إفريقية في حالة فوضى. وادعى أن الحزب الوطني كان يهدف إلى «الدمار الكامل لمنظمتنا»، في حين أن زعماء الحزب الديموقراطي الموحد الجديد، مبير وهولوميزا، يرجعون في أصولهم السياسية إلى أساس مشترك في التمييز العنصري».

كانت كلمة مذهلة وبعيدة المدى حملت علائم العديد من المساهمين، وعلى رأسهم ثابو مبيكي. كانت أبعد ما تكون عن التقريع السياسي المطول؛ فقد اقتبست من كبار الرأسماليين الأمريكيين جورج شوروز وديڤيد روكفلر وصف مخاطر عالم التجارة العالمي. لكنها قُدمت سريعاً من قبل وسائل الإعلام البيضاء على أنها هجوم على الأعداء البيض، وابتعاد واضح عن تسوية مانديلا السابقة. لقد دمرت الكلمة معظم التعاطف الذي بناه مانديلا منذ تسلمه السلطة، كما قالت «سيتيزن» المحافظة[27] وحذرت بزنس داي: «مانديلا ساذج، إذا اعتقد أن البيض سيتطوعون لتقديم نقطة من مقاييس المعيشة لمساعدة الفقراء».[28] شهدت الكلمة أقل علامة يأخذها مانديلا، كما قال الحزب الوطني.[29] نشرت الصحف البريطانية الهجوم داعية الكلمة بوصفها «تقريعاً مطولاً يدل على جنون ارتياب يائس» (الدايلي تلغراف) «عقيدة غير ذات معنى» و«بربرة عتيقة لكلام غير مفهوم» (الأندبندنت) حتى الأوبزفر التي كانت حليف مانديلا منذ القدم، دعتها «هجوماً يدعو إلى الكآبة العميقة».[30] لم تكن الكلمة بالتأكيد منسجمة مع النظرة العامة السابقة لمانديلا في مجال كونه رجل دولة، لكنها لم تكن بياناً في السياسة. كانت تحليلاً لمشكلات ثلاث سنوات من الحكم، ودعوة عامة للانتخابات خلال ستة عشر شهراً.

في المساء قدم المؤتمر الوطني الإفريقي ثناء ثقافياً لمانديلا، الذي كان يرتاح بين المستمعين. قدم الطبالون العنيفون فرقة من الفتيات الراقصات الحديثات السن، اللواتي كن يؤرجحن قمصانهن الجلدية، وقام فريق من راقصي الحرب من الزولو، بحركات رشيقة وثياب من الفرو بضرب صدورهم بأرجلهم. وقرأ نائب الناطق قصيدة شعرية «دع الحياة تتدفق في بلادنا». وعزف الموسيقي عبد الله إبراهيم بثيابه السوداء الفضفاضة أغانيَ قديمة على البيانو، وقام جوناس غوانغوا الذي يعزف على آلة الترومبون، والذي هو محارب قديم

من عقد الخمسين، قام بعزف موسيقى الجاز الصاخبة. تقدم معظم أعضاء الوزارة إلى الأمام ليرقصوا على موسيقى السونيغ، مما أدهش الديبلوماسيين اليابانيين.

أثنى ثابو مبيكي على مانديلا وزملائه من المحاربين القدماء، بمن فهم والده غوفان، الذي كان متقاعداً الآن «حيث يقوم بزراعة وتأهيل أزهار المروج» اقتبس ما قال دبليو. ب. بيتس عن إيرلندة عام 1916، مضيفاً أن الزعماء الإفريقيين «رفضوا أن تجعل التضحية قلوبهم قاسية كالحجر».[31] قدم مبيكي تمثالاً إلى مانديلا، وأنشدت امرأة مغنية في امتداحه، فجاء من بين المستمعين إلى المسرح ليقول فقط: «كل ما أريد قوله موجود في أغنيتها». بدا وقد دمعت عيناه، وبدا المندوبون وقد أُخضعوا بينما كانوا يرون الرجال الكبار في السن وهم يمهدون الطريق أمام جيل أصغر.

في اليوم التالي، تعزز مبيكي بلا اعتراض بوصفه الرئيس الجديد للمؤتمر الوطني الإفريقي، في عمر الخامسة والخمسين، كان ممثل الجيل الجديد. ألقى كلمة قصيرة محذراً من أن «الثورة لم تكتمل بعد». لكن الإثارة الحقيقية لم تكن نيابة الرئاسة. تم ترشيح ويني من القاعة، لكن بعد حوالي عشرين من المندوبين؛ بالإجمال تلقت 127 صوتاً فقط من الـ 3500 من المندوبين. طلبت من مبيكي السماح لها بالتشاور مع «البنائين» لكنه رفض. ردت ويني بتحدٍ: «أيها الرفيق ثابو، أعتقد أنني أعي ما يحدث هنا. إنني أعتذر لأولئك الرفاق الذين رشحوا اسمي يجب أن أرفض». فرح المندوبون وصفّروا وغنوا ورقصوا. غادرت ويني المنصة بالعناق والقبلات من أعضاء الهيئة التنفيذية، يرافقها صديقها الشاب الناشط بيتر موكابا. قال: «ستبقى، إنها جندي حديدي قديم، لقد تنازلت لتحافظ على الوحدة ضمن المنظمة التي تحبها»[32]، انتخب المندوبون المرشح المفضل جاكوب زوما. وفيما بعد انتخبوا تيرور ليكوتا، أحد المحسوبين الآخرين على مانديلا في السجن، رئيساً للفريق.

المفاجأة الحقيقية كانت الاقتراع على الهيئة التنفيذية الوطنية. كان العديد من المعلقين قد تكهنوا بأن المؤتمر الوطني الإفريقي في ظل مبيكي سيصبح أكثر «أفرقة»، وأقل تسامحاً مع الحلفاء البيض والهنود؛ وكانت الأغلبية الساحقة من المندوبين من الإفريقيين. كانت الهيئة التنفيذية الحالية متعددة العروق تعدداً ملحوظاً وعرضة لهجمات الإفريقيين؛ كان هناك كثيرون من الهنود البارزين، والملونين والبيض البارزين أيضاً، بمن فيهم وزير الدفاع روني كاسريلز. قام هؤلاء جميعاً باتخاذ قرارات غير شعبية، مؤيدين سياسة الحكومة الاقتصادية المحافظة بما فيها من نظام مالي سنوي قاسٍ ومن تخصيص، مما أدى إلى عداء النقابات والماركسيين. مع ذلك، عندما اقترع المندوبون في نهاية المؤتمر أظهروا ثقة بحكومة القوس قزح. وذهب الاقتراع الأكبر إلى سيريل رامافوزا، منافس مبيكي الرئيسي، الذي صار الآن رجل أعمال طموح. والمكان التالي ذهب إلى قادر أسمل، في حين أن مانيوويل وعمر وكاسريلز زادوا من اقتراعهم. كان هناك ثلاثة إفريقيين فقط بين العشرة الأوائل ـ وكانوا بعيدين عن الشعبية. وهبطت ويني من المكان الخامس في الانتخابات السابقة إلى الخامس عشر. والأكثر أهمية أن المندوبين وافقوا مع القليل من التغييرات على سياسة الحكومة الاقتصادية التقليدية التي تمت المصادقة عليها حتى من قبل الشيوعيين وأعضاء نقابات العمال. بدا أن الحركة الثورية ضد الرأسمالية تتحول إلى حزب حاكم قبل مبادىء عالم التجارة العالمي.

في اليوم الأخير من المؤتمر، عندما كانت معظم وسائل الإعلام قد غادرت، قام مانديلا بوداع مؤتمر الحزب الذي (أصر) على أنه قد صنعه:

> «في معظم الأحيان وليس في أقلها هناك فترة زمنية تلد وتربي الأفراد الذين يرتبطون بتحولاتها ومنعطفاتها؛ وهكذا يصبح الاسم رمزاً لعصر ما. وبينما نسلّم عصا القيادة، أجد من المناسب أن أشكر المؤتمر الوطني الإفريقي لجعلي أظهر رمزاً لما يمثله...
>
> نحن نغادر في حين يستطيع الجيل الكفؤ من المحامين وخبراء الحاسوب

والاقتصاديين والماليين والأطباء والصناعيين والمهندسين وفوق كل شيء جميع العمال العاديين والمزارعين، في حين يستطيع هذا الجيل الكفؤ إدخال المؤتمر الوطني الإفريقي إلى الألفية الجديدة. إنني أتطلع قُدماً إلى ذلك الحين الذي أستطيع فيه الاستيقاظ مع طلوع الشمس والسير فوق التلال والوديان في قريتي كونو بسلام وهدوء...».

أعرب عن تقديره لخلفه مبيكي، بتصوير جعل بعض السامعين يشعرون بعدم الارتياح؛ بدأ بطريقة المزاح قائلاً: «أنا قلق بالطبع لحقيقة أنه يجب أن يكون هناك ثوران في زريبة واحدة، على الرغم من أنني أتمتع بميزة أن أحدهما قصير». هنأ مبيكي على انتخابه بلا معارضة، لكنه حذر:

«هناك مسؤولية ثقيلة على عاتق الزعيم الذي انتُخب بلا معارضة. فهو ربما يستخدم هذا الموقع القوي لتسوية خلافات مع من هم أقل منه، ليحيدهم أو يتخلص منهم (تصفيق) ويحيط نفسه برجال ونساء يقولون نعم (تصفيق). إن أولى واجباته هي تهدئة مخاوف زملائه لجعلهم قادرين على النقاش بحرية بلا خوف ضمن البنيان الداخلي».

شرح قائلاً عن الزعيم: «يجب أن يحافظ على بقاء القوى بعضها مع بعض؛ لكن لا يمكنه فعل ذلك ما لم يسمح بالمعارضة... يجب أن يكون الناس قادرين على انتقاد الزعيم بلا خوف أو محاباة». وأسرع في تأكيد أن «رئيسنا يتفهم تلك القضايا. لقد قبل النقد بروح الرفيق. إنه ليس الرجل الذي سيحيِّد أي شخص (تصفيق)». وقد طلب من جمهور مستمعيه أن يلتمسوا عذراً لرجل مسن: إذا تشكى في المستقبل من الأشخاص الأصغر، «تذكروا فقط أنني كنت زميلكم في وقت من الأوقات» (ضحك). لكنه نبههم إلى أنه بوصفه عضواً عادياً في المؤتمر الوطني الإفريقي «فإنني سأتمتع بميزة أن أكون منتقداً قدر ما أستطيع».[33] وبذلك غادر مانديلا ليقضي عطلة عيد الميلاد في كونو مع بعض الكتب المفضلة: «الأخوة كرامازوف، الحرب والسلام، ورواية نادين غارديمير ابنة بيرغر، القائمة على شخصية صديقه برام فيشر.

كان مبيكي بالتأكيد نوعاً مختلفاً تماماً عن مانديلا زعيماً. كان انطوائياً من خلفية ذات ولع بالكتب، وبلا جذور ريفية عميقة؛ قال مانديلا: «لم يلعب أبداً في صغره»[34]، كان يحب الاستشهاد بشيكسبير ويبتس، وكان يكتب الشعر بنفسه، ويتحدث غالباً حديثاً مبهماً؛ تشكى بعض الإفريقيين من أنه أمضى فترة طويلة جداً في إنكلترة. وبقي رافضاً للقيادة من الواجهة ـ على الأقل خلال وجود مانديلا هناك ـ وكان يحمل بعض علائم الزعيم السري الذي يستطيع أن يثق بخلية صغيرة فقط ـ وكان يلعب أوراقه وهي قريبة من صدره. بعد ماضيه العالمي وصداقاته فيما وراء البحار شعر أكثر بالحاجة لأن يظهر نفسه إفريقياً حقيقياً. أبقى مسافة بينه وبين رجال الأعمال والصحفيين البيض، واتخذ الكثير من المستشارين السود الواعين الذين فسروا أحياناً «نهضته الإفريقية» كحملة إفريقية بالذات. شعر الزملاء الهنود والبيض بالقلق من أن يلعب ورقة العروق، ومن أن الرؤية التعددية العرقية لجنوب إفريقية ستضمحل، مثلما حدث في دول إفريقية أخرى.

لكن مبيكي ينتمي في العديد من المجالات انتماءً أوثق من مانديلا إلى تقاليد المؤتمر الوطني الإفريقي. فقد بقي متأثراً بعمق بمعلمه تامبو؛ كان يتحدث ويسير ويعمل مثله، وينصت بصبر ويسعى وراء الإجماع بأسلوب غير قهري. كان حساساً دوماً تجاه التيارات المتضاربة في حزبه، وكان بارعاً في نزع فتيل الأنانية الخطيرة والتوترات، مثلما فعل مع باثيليزي. كان يعلم أنه لن يكون في مقدوره أبداً لعب الدور البطولي الذي قام به مانديلا خلال السنوات التسع الأخيرة. مانديلا، مثل تشرشل، قد استُدعي من قبل حزبه ليواجه التحدي الأشد خطورة، كان مخلصاً لحزبه، لكنه بقي فوقه. كان مبيكي في حقيقته من صنع المؤتمر الوطني الإفريقي، وقد عرف أن عصر الأبطال قد مضى. وعرف أيضاً أنه سيواجه ناخبين غاضبين وخائبين. سأل وهو يقتبس من الشاعر الأمريكي الأسود لانغستون هيوز «ماذا يحدث لحلم مؤجل؟ إنه سينفجر».[35]

38

غراكا

بدا مانديلا ـ رئيساً للدولة ـ معزولاً شخصياً أكثر مما كان قبل الآن. كان عنده صديقات مخلصات وقويات مثل فاطمة مير، أمينة كشاليا، باربارة ماسيكيلا، لكن كان من الصعب عليهن اختراق حواجز الحكومة. لم تر فاطمة أي شخص في منزله في هوتون ممن كانوا جزءاً من حياته السابقة، ووجدته مقاوماً للابتعاد عن السياسة وأخبار التلفاز.[1] لقد أصبح معتاداً على الخطو السريع المحموم للحكومة كما شرح، لكن ذلك «يدمر الحياة العائلية».[2] كان أحفاده يتواجدون معظم الوقت في منزله، لكن اتصالاته مع أبنائه كانت متقطعة. كان ابنه مالغاثو يدرس القانون من جديد، في دوربان، لكنه نادراً ما كان يرى والده. وظلت ابنته الكبرى ماكي تشعر أنه مرتبك غير مستقر، وهي قلقة من أنها ربما تطلق العنان لشكاوى عن الماضي. وكانت ابنتاه من ويني وهما زندزي وزيني ممزقتين بين أبويهما بعد الطلاق، على الرغم من اقترابهما أكثر من والدهما. وقد تمت العناية بمانديلا في هوتون ولبعض الوقت من قبل حفيدته الفاتنة روشيل متيرارا، لكنها بدأت تعاني صعوبة في الدراسة هناك، وغادرت. شرح مانديلا: «الناس كانوا يتصلون بها دوماً ليصلوا إليّ، لم تكن لها حياتها المستقلة».[3]

كان مانديلا قادراً على مغازلة امرأة جذابة. فبعد أسبوع من طلاق ويني كان يرحب بالرئيسة الإيرلندية ماري روبنسون في مطار كيبتاون عندما لاحظ

صحفية إيرلندية جميلة ـ نيكولا بيرن ـ، التي كان قد رآها قبلاً، وسألها إن كانت متزوجة. وعندما قالت لا، ابتسم: «حسناً إذا كنت ستطلبين مني أن أتزوجك فإنني سأدرس الطلب دراسةً إيجابيةً جداً». قالت بيرن لاحقاً: «إنه بطلي، إنني سأتزوجه غداً».[4] لكن «العرض» بدا أقل إطراء عندما بدا فيما بعد أن مانديلا قد أخطأ بمراسلة أخرى هي ألكسندرا زافيس من الأسوشيتد برس بدلاً من بيرن.[5]

في تموز (يوليو) 1990 بالذات، زار موزامبيق بعد ستة أشهر من إطلاق سراحه، حيث قابل مانديلا غراكا ميتشل أرملة الرئيس الراحل سامورا ميتشل. كان ميتشل قد توفي في حادث تحطم طائرة غامض عام 1986، حيث أرسل مانديلا إلى غراكا بعد ذلك رسالة تعزية. وردت غراكا على رسالة مانديلا: «من قلب سجنك الكبير، جلبت بصيصاً من الضوء في ساعة ظلمتي»[6] وكتبت إلى ويني: «أولئك الذين سجنوا زوجك هم مثل أولئك الذين قتلوا زوجي. ظنوا أنهم بقطعهم أطول الأشجار إنما يستطيعون تدمير الغابة».[7] كانت غراكا أصلاً ترى في مانديلا بطلها، وعندما جاء إلى موزامبيق زارته مع عائلتها في قصر ضيافة للحكومة. كان متأثراً، لكنها كانت ما تزال حزينة على زوجها المتوفى، ولم يكن الحاصل حباً من أول نظرة. مضى عامان قبل أن يلتقيا من جديد، بعد وقت قصير من انفصال مانديلا عن ويني، عندما جاءت غراكا إلى كيبتاون لتتسلم دكتوراه شرف. لم يميزها في الصف من بين الآخرين، وعندما تم تذكيره رجع ليتحدث إليها، وقد تأثر بحساسيتها وحنانها. التقيا بعد ذلك بوقت قصير ـ وشعر مانديلا بالانجذاب جسدياً إليها ـ بعد ذلك كان يراها كلما استطاع. كان أوليفر تامبو القيّم على أولاد ميتشل الستة، وبعد موته استلم مانديلا المسؤولية مما أعطاه المزيد من الفرص لرؤية غراكا.

كانت آنذاك في السادسة والأربعين، أي أصغر من مانديلا بسبعة وعشرين عاماً، وذات ابتسامة عريضة وضحكة تنفذ إلى القلب وعينين كبيرتين وراء

النظارة. كانت شخصية قوية، لكن ليست مسيطرة مثل ويني. وكانت تنحدر من عائلة ريفية بسيطة، وهي الأصغر من بين ستة أبناء: كان والدها مزارعاً علمه الميثوديون القراءة والكتابة بعد أن صار راشداً. وقد توفي قبل مولدها مباشرة، إلا أنه كان قد طلب من أولاده الأكبر مساعدتها في المدرسة، وفازت بالنتيجة بمنحة ميثودية إلى جامعة ليشبونة، حيث أصبحت ناشطة سياسياً ضد القوة الاستعمارية البرتغالية. بعد نيلها درجتها، تم تدريبها مقاتلة من أجل الحرية لحركة تحرير فريليمو في تانزانيا، وأصبحت قريبة من زعيمها سامورا ميتشل الذي كانت زوجته قد توفيت. وعندما حصلت موزامبيق على استقلالها عن البرتغال عام 1975 أصبحت فريليمو هي الحكومة، وعينت غراكا وزيرة للتعليم في عمر التاسعة والعشرين، بعد ذلك بوقت قصير تزوجت الرئيس ميتشل وكانت ترعى أولاده الستة. وصارت الآن في قلب بلد فتي فرقه جيش رينامو المتمرد والخروج الجماعي للبيض، وتزعزع استقراره بسبب حكومة جنوب إفريقية، التي ارتابت بأنها متورطة في موت زوجها. ظلت حزينة عليه بالسواد لأربع سنوات، وهي تشعر بالفراغ والوحدة، ومصممة على إكمال عمله. أصبحت تعمل في مشاريع رعاية الأطفال، وكتبت فيما بعد تقريراً إلى الأمم المتحدة حول نتائج الحرب على الأطفال. ظل هذا اهتماماً مركزياً، وربطها بصندوق مانديلا للأطفال.

أواسط عام 1995، بينما كان مانديلا يطلّق ويني، بدأ بإطلاق إلماحات علنية عن حبه الجديد. شوهدت غراكا معه في مأدبة في باريس، ومرة أخرى في حفل زفاف الرئيس موغابي في زيمبابوي - حيث شوهدت هي ومانديلا يتبادلان القبل. قال الأسقف توتو الذي كان قد يئس من المصالحة مع ويني: «ماديبا بحاجة إلى من يناوله خفه، وإلى من يستطيع البكاء على كتفه».

صار من الواضح أن مانديلا كان مفتوناً بغراكا، فقد استمتع بدفئها، ورشاقتها وحبها للأطفال. كان يتصل بها بالهاتف كل يوم. وتقدم رسمياً

لخطبتها لكنها كانت قلقة بخصوص التزاماتها تجاه عائلتها وبلادها: «أنا أنتمي إلى موزامبيق» كما أصرت «سأكون دوماً زوجة سامورا ميتشل». توجب على مانديلا أن يذعن: «لقد أدلت بتصريح واضح بأنها لن تتزوج رئيس جنوب إفريقية ـ لا أستطيع إجبارها». في النهاية، اتفقا على صفقة غير مألوفة: أن تمضي معه أسبوعين كل شهر في جوهانسبورغ.

أصبحت صداقتهما الآن معروفة علنياً، وكانت قصة الحب تنكشف على نحو متكلف. في أيلول (سبتمبر) 1996 التقطت صورة لمانديلا بعد ظهر يوم أحد وهو يسير قرب منزله في هوتون وذراعه حول غراكا، ضاحكاً بسعادة، قالت غراكا لبرنامج إذاعي: «من الرائع أننا وجد أحدنا الآخر في النهاية، وبإمكاننا المشاركة في الحياة معاً»[8] كانت ويني تهزأ بشأن «خليلة» مانديلا، أو «المرأة البرتغالية». قالت إن ذلك نكتة كبيرة، مدعية أنها ما تزال زوجة مانديلا ضمن العادات الإفريقية[9] وحذرت من أن زواجاً آخر سيدمر الأولاد ـ على الرغم من أنهم صاروا الآن جميعاً في سن الرشد الكامل ـ كما أشار مانديلا. وادعت زوجة مانديلا الأولى إيفلين التي كان قد طلقها قبل حوالي أربعين عاماً، ادعت أيضاً أنه ما زال زوجها أمام الله؛ مع أنها كانت ستتزوج من جديد بعد ذلك بعام وعمرها سبعة وسبعون! اشتكى بعض رجال الدين بخصوص نصف وقت، نصف زواج الرئيس، وحثوه على حل المشكلة. اعترف مانديلا أن «أشخاصاً مثل الأسقف توتو يجعلون حياتي صعبة جداً، لأنهم يشعرون أنني لا أقدم مثالاً جيداً للشباب». لكن بدت غراكا راضية: «أعتقد أننا على ما يرام بهذه الحال... نحن شخصان راشدان يحب أحدهما الآخر».[10]

بحلول عام 1997، كانت غراكا قد أصبحت رفيقة الرئيس بوضوح. كانت ترافقه رسمياً في جولته في جنوب شرق آسية: عندما سأل صحفي شاب في الفيليبين مانديلا عما إذا كانا سيتزوجان أجابه بتوبيخ مبطَّن: «إن أَوَّلِيَّتي الثقافية لا تسمح لي بالإجابة على أسئلة كهذه من شخص أصغر من أحفادي».[11]

حاول مانديلا أيضاً التلاؤم مع خطط غراكا للسفر، «لاعباً دوراً ثانوياً». عندما قُدمت لها درجة شرف من جامعة إيسكس قبل بتسرع دعوة من المركز الإسلامي في أوكسفورد لزيارة بريطانية (ليكون في صحبة غراكا)، وكان تسرعه هذا موضع استغراب من المركز واستهجان من جامعة أوكسفورد التي كانت قد حاولت دعوته في وقت سابق.

عكست غراكا خبرتها بالذات وحساسيتها في الجولات الخارجية. ملاحظةً أصدقاء مانديلا ـ ومراقبة صحته ومزاجه، ومتذكرة الأشخاص من رحلاتها السابقة الخاصة. لكنها أبقت لنفسها قاعدة حازمة في موزامبيق، حيث عاشت في منزل واسع جداً ذي أرض رخامية في الحي الديبلوماسي في مابوتو، يطل على المحيط الهندي. كانت ما تزال تتمتع بشعبية كبيرة هناك، حتى إنها كانت توصف أحياناً بالزعيم التالي. وكانت تُعامل بحذر من الرئيس جوكويم تشيزانو. كان الموزامبيقيون الآخرون مترددين بخصوص صداقتها مع مانديلا. اعتقدت قائلة: «ربما هو الشخص الوحيد الذي سيقبلونه في مكان سامورا، لكن الآخرين قلقون فعلاً كأن شيئاً قد سُرق منهم».[12]

في البيت، كان أصدقاء مانديلا يرون رجلاً مرتاحاً ومبتهجاً أكثر. قال أحد الزملاء: «تلك هي المعجزة الحقيقية لجنوب إفريقية». كان مانديلا فخوراً بوضوح بأنه جذب امرأة مرموقة كتلك، وكانت له محادثات طويلة وغرامية معها على الهاتف، حيث لم يهتم بتنصت الأصدقاء. بدأ يتحدث علناً كمحب شاب عن تحوله هو بالذات. قال في مقابلة تلفازية في شباط (فبراير) 1998: «أنا واقع في حب سيدة رائعة، وأنا لست آسفاً للانعكاسات والنكسات، لأنني أتفتح كزهرة وأنا في هذا الوقت المتأخر من حياتي بسبب الحب والدعم اللذين قدمتهما لي... إنها الزعيم. عندما أكون وحدي، أنا ضعيف جداً».[13]

كانا يظهران في المناسبات العامة وهما محبان بلا ارتباك. عندما مُنحت غراكا جائزة دولية في جوهانسبورغ في شباط (فبراير) 1998 كانت قد بدأت

كلمة قبولها بـ«ماديبا» ـ أمام تصفيق طويل. بعد ذلك همس في أذنها ممسكاً يدها. وقبل المغادرة قال رئيس الاحتفال أندرو يونغ: «كلنا كنا إرهابيين، والآن كلنا محبون».[14]

لاقت غراكا بعض الصعوبة في التأقلم مع أسلوب حياة مانديلا، لا سيما استيقاظه باكراً ونومه باكراً: «عندما تحب شخصاً ما، عليك أن تتخلى فعلاً عن أشياء معينة. أنا لا أستيقظ باكراً ـ لكنني بدأت أعتاد ذلك». بذلت جهدها لمنعه من الاتصال بالهاتف مع الناس من المنزل في كل ساعات النهار والليل، قالت في آذار (مارس) 1998: «أنا أحاول عندما أكون هنا التأكد من أنه لن يفعل ذلك. عطل نهاية الأسبوع أصبحت أفضل منذ العام الماضي. الآن هو يحاول فعلاً التخفيف». تطلعت قُدماً لتقاعده، ومددت عطلهما: أمضت عيد الميلاد عام 1997 معه في كونو، وأمضى رأس السنة معها في مابوتو. قالت: «أريد مساعدته ليفعل أشياء يحبها إنساناً، وليس ما يتوقع منه أن يفعله».[15]

كان بإمكانها أن تسهل علاقاته مع أسرته بالذات، من خلال تجربتها كزوجة أب: «أنا من ذلك النوع من النساء الذي لم يعرف أبداً كيف يبدأ أسرة. تزوجت وكنت أماً لستة مباشرة». كان ابناها الاثنان يدرسان في كيبتاون؛ وكان لدى ابنتها جوزينا شقة في قصر الرئيس جينا ديندال، حيث كانت ترافق مانديلا وحيث رافقته أحياناً في زيارات.

كانت غراكا مدركة لمشكلات الآباء الأبطال مثل آل نيريري في تانزانيا أو آل كاوندا في زامبيا، الذين عرفتهم جيداً. عرفت كم تاق أبناء مانديلا ليكون لديهم أب يلمسونه ويتحدثون إليه، وكيف كرهوا مشاركة الشعب لهم فيه: «أعتقد أنهم تأقلموا؛ هم يعلمون ما بإمكانهم توقعه، وهو يحاول الآن أيضاً أن يوفر لهم وقتاً». كانت تستمتع بأحفاده: «هذه أسرة طبيعية ذات أطفال يركضون هنا وهناك ويصنعون ضجة»، هذا ما شرحته في منزلهما في هوتون بينما كان الأطفال يركضون ويصرخون في الخارج. قالت للصبية الستة عندما تركتهم

يدخلون غرفة الاستقبال «الآن يمكنكم الاستلام» «هتفوا ـ في حين ابتسمت ابتسامة عريضة ـ إنا نستلم، إننا نستلم العالم».[16]

شعرت غراكا أنها اخترقت الدفاعات والتحفظات الكبيرة التي عززها مانديلا في السجن، لتدعه يعبر عن مشاعره الحقيقية: «يستطيع أن يحب بعمق كبير، لكنه يحاول كبح ذلك كبحاً ممتازاً في ظهوره العلني. وعندما يكون وحده فإنه يسمح لنفسه بأن يكون إنساناً، وهو يحب أن يعرف الناس أنه سعيد. وعندما يكون تعيساً يتركك تعرف... إنه شخص بسيط جداً، رقيق جداً... متواضع حتى الأرض. حتى على الصعيد السياسي، إذا راقبته أحياناً يمكنك أن تشعر أن هناك بعض السذاجة».

رأته أخيراً وهو قادر على الاسترخاء والابتعاد عن توترات العمل، ولم يشعر بعد ذلك بالسلبية بخصوص ما لا يستطيع تحقيقه: «أنت تصل إلى النقطة التي تعرف فيها من أنت، وتعرف المدى الذي تستطيع أن تتحرك فيه. تمد يدك إلى الآخرين. تشعر أنك في أمان تام. يتعين عليك أن تجعل حياتك العاطفية متوازنة».[17]

بحلول منتصف عام 1998 بدا أن الإثنين قد ترسخا. انتقلا إلى منزل أكبر وأحدث في هوتون، يبعد مسافة شارع واحد عن بيت مانديلا السابق، وله درج متعرج تحت صورة كبيرة لمانديلا، وغرف كبيرة منفصل بعضها عن بعض بأبواب زجاجية منزلقة. تم تجديده حسب رغبتهما ـ من قبل حرفيين إفريقيين حسبما هو ممكن ـ وجُهز بمصعد بحيث يستطيع مانديلا تجنب صعود الدرج، حيث أصبح صعوده مؤلماً لركبته الجريحة.

كان أصدقاء مانديلا ما زالوا يحثونه على الزواج، لكن غراكا استمرت بالمقاومة. وكان مانديلا يخطط للاحتفال بعيد ميلاده الثمانين في 18 تموز (يوليو)، وقبل ذلك ببضعة أيام دارت شائعات بأن قاضياً وقساوسة كانوا يستعدون لتزويجه وغراكا. تم إنكار ذلك بشدة، لكن كان مانديلا في الحقيقة

قد سوى ذلك مع غراكا قبل شهرين. ومع شعوره المعتاد بالتوقيت رتب ذلك لعيد ميلاده.

تزوجا في المنزل الجديد، كان مانديلا يرتدي قميصاً مفتوحاً مزيناً بالذهب، في حين كانت غراكا ترتدي ثوباً أبيض طويلاً بأكمام عريضة منفوخة، على النمط الإليزابيثي. تمت مباركتهما سلفاً من قبل الحبر الرئيسي؛ وكذلك الشيخ المسلم ناظم محمد والسيدة ناناهشين الهندوسية. زوجهما أسقف ميثودي ـ مفوم دندالا ـ إذ إنهما قد تربيا ميثوديين ـ وساعده ديزموند توتو، الذي تقاعد الآن بوصفه أسقف الأنكليكان. كانت أسرة مانديلا وستة عشر صديقاً حاضرين، بمن فيهم أحمد كاثرادا، وآل سيسولو ـ ومصور عزب، سيفيوي سيبيكو من المجلة السوداء أنتربرايز. قال توتو بعد ذلك: «لقد جعلت منه رجلاً لطيفاً». قال مانديلا: «الآن لن تصرخ في وجهي»[18]، كان من بين الضيوف سجّان مانديلا السابق كريستو براند، الذي كان يدير الآن مخزن روبن آيلاند للتذكارات في كيبتاون، والذي تم نقله بالطائرة إلى جوهانسبورغ لأول مرة في حياته. قدم لمانديلا بعض زيت الشعر «بانتين» المفضل لديه. الذي كان براند قد اشتراه له حين كان في سجن بولسيمور. والآن أمكنه الحصول على زجاجة ـ بصعوبة كبيرة ـ من ألمانية ـ وتم تقديمها للرئيس مع نسخة كرتونية ضخمة مطابقة للزجاجة.[19]

في اليوم التالي، تم تحويل مركز غالاهير للاجتماعات، بين جوهانسبورغ وبريتوريا، إلى قاعة مأدبة للاحتفال بعيد الميلاد الثمانين. الذي صار الآن حفلة زفاف أيضاً. تمت دعوة ألفين من الضيوف، النخبة المتعددة العروق لجنوب إفريقية. مع القليل من الغائبين من البارزين، مثل إف. دبليو. دوكليرك، ووبني ماديكيزيلا ـ مانديلا. كان الرئيس قد وجه الدعوة إلى شخصيات أجنبية بمن فيها الرئيس السابق كاوندا رئيس زامبيا، الأمير بندر من العربية السعودية، الجنرال أوباسانجو الذي كان قد أطلق سراحه لتوه من

الاحتجاز في نيجيريا؛ لكن الجو كان مفعماً بالعمل الفني بوجود أكبر نجوم جنوب إفريقية الذين بزهم الزوار الإفريقيون ـ الأمريكيون بمن فيهم مايكل جاكسون، داني غلوفر وستيفي ووندر. بعد القسم الأول من الاحتفال وانفجار الموسيقى، ألقى ـ مانديلا ـ حفيد مانديلا كلمة قصيرة يمتدح فيها جده، تبعه ثابو مبيكي ـ الذي استخدم شكسبير ـ كما هي عادته ـ للتعبير عن عواطفه. تخيل مانديلا وهو يتقاعد مثلما كان يأمل الملك لير.

ولسرد الحكايات القديمة، والضحك

على الفراشات المطلية بالذهب، وسماع المتشردين البؤساء

وهم يتحدثون عن أخبار البلاط؛ ونحن نتحدث إليهم أيضاً ـ عمن هو الرابح ومن هو الخاسر، ومن دخل، ومن خرج.

شعر بعض الضيوف بالحيرة للمقارنة مع ملك عجوز مجنون، لكن مبيكي أكد على تضحيات لير التي ألقى فوقها «الآلهة أنفسهم البخور».

كان مانديلا نفسه قد أعد كلمة عيد ميلاد رسمية، طالباً من الجنوب إفريقيين «إعادة تكريس أنفسهم لأرض أحلامهم». لكنه اكتفى بكلمات قليلة من الشكر، قائلاً: «زوجتي وأنا» ـ حيث انفجر الضحك. ثم بدأ بالرقص مع غراكا في رقصة قصيرة «على نمط رقص ماديبا غير المتقن». وشاركهما باقي الضيوف في حين صدحت الموسيقى. في الصباح التالي طار العروسان لزيارة الأرجنتين والبرازيل، عائديْن إلى جوهانسبورغ بعد خمسة أيام، من أجل حفل موسيقى لعيد ميلاده، قبل أن يعودا إلى كونو في شهر عسل خاص.

كان احتفالاً إفريقياً، مع الخليط المتقطع من المهرجانات والمواكب والموسيقى والتسالي. تشكى بعض المحافظين البيض من أن الاحتفالات كانت غير ملائمة في وقت الأزمة الاقتصادية. وكان آخرون منتقدون جداً لأن مانديلا أمر بإطلاق سراح تسعة آلاف سجين. حيث قالوا إن ذلك سيشجع الجريمة. وتشكى قلائل مما يقارب عبادة الشخص. ويذكر بأجزاء أخرى من إفريقية.

لكن التجمع كان احتفالاً لا علاقة له بالسلطة، أو الخوف؛ كان أقرب ما يكون إلى شعب يعيد تحديد صورة ذاته.

وغراكا، بوصفها وفرت نهاية سعيدة، يمكنها ربط الصورة بالشخص العادي. لقد رأت مانديلا في الدوريْن، مثل زوجها السابق ميتشل؛ وقد عرفت أخطاءه: «أحياناً لا يكون صبوراً جداً في مناقشة أمور هامة جداً ـ فمتى قرر أمراً فإنه يصبح عنيداً جداً. ولا يقبل أنه مخطىء». لكنها أدركت أيضاً أهمية قيمه الأساسية والشعور بالكرامة الإنسانية، ومدى تأثيرهما على الناس العاديين:

> العالم بحاجة إلى رموز، ربما الآن أكثر مما مضى. إنه رمز، وهو جيد في عرض ما يمثله، إنها قيمه. لكن يجب أن تنظر إليه في نفس الوقت إنساناً له نقاط قوته ونقاط ضعفه. أنا أريده إنساناً. إنه رمز، هذا صحيح، لكنه ليس قديساً. مهما يحدث له، فإنها علاقة تحرير الشعب الإفريقي، لا سيما شعب جنوب إفريقية. ولقد أكد على أنه يجب أن يُعامل بإجلال لأنه مدرك إدراكاً مطلقاً لما يمثله.[20]

39

عالم مانديلا

على الرغم من مشكلاته في الوطن، سافر مانديلا إلى الخارج وهو يحمل سمعة طنانة؛ مثل الأبطال العالميين السابقين أمثال تشرشل وأيزنهاور، بدا أن نفوذه في الخارج لم يتأثر بالنكسات الداخلية. وسلطته الأخلاقية صانع سلام بدت فذة في الوقت الذي كانت فيه دول أخرى تدمرها الصراعات العرقية، كان بإمكانه أن يجعل كل شخص يشعر بأنه أحسن، اليسار أو اليمين، الأسود أو الأبيض. وبرزت ابتسامته الساحرة في المجلات الفنية أو الإعلانات عن فنادق هيلتون إضافة إلى النيويورك تايمز، في حين أن قصته المميزة لم تكد تتلطخ بسنوات سجنه. عندما وصل بالطائرة النفاثة الرئاسية، وتفقد حرس الشرف كان باستطاعته الظهور بمظهر الرجل العادي الذي يمكن لأي شخص أن يماثله ـ مثل غاري كوبر، أو جيمس ستيوارت مجسداً قيماً بسيطة في عالم ساخر مؤلف من التقنيين والمتلاعبين؛ دعا ذلك الشاعر النيجيري وول سونيكا: «ثمرة اللاوعي الذاتي لإنسانية متراكمة».[1]

وجد مانديلا متعة خاصة في الديبلوماسية الشخصية، حيث كان يتواصل مباشرة مع رؤساء آخرين ورؤساء وزراء آخرين أيضاً، وكان يتصل بهم وكأن البيروقراطيات والسفارات ليست موجودة: كانت المحادثة في مكتبه عرضة دوماً لأن تقاطعها مكالمة هاتفية دولية: «سيدي الرئيس! كيف حالك؟» وكان مانديلا يذهل السفراء بسؤاله: «كيف حال فيدل؟» أو «كيف حال بيل؟» وكتب إلى

ملكة إنكلترة بـ«عزيزتي إليزابيث». وكان هو ذاته يبدو كملك من عصر سابق، شاعراً بالراحة شعوراً طبيعياً إزاء الملكية الخارجية. في مأدبة في أوكسفورد جلس إلى جانب الأمير تشارلز والأمير بندر من العربية السعودية ـ الذي كان يبيت تلك الليلة في منزله ـ وحيث قدم له مجاملات متقنة؛ لكنه بدا فخماً أكثر من أي منهما. كان أسلوبه صحيحاً، أقرب إلى أسلوب ملك بلمسة عادية منه إلى سياسي. كانت جنوب إفريقية تتمتع بميزة وجود رئيس دولة يستطيع التعبير عن القيم الوطنية والسياسات بإقناع وعظمة! لكن كانت هناك أخطار كامنة في اللانضوج الديبلوماسي.

لم يجد مانديلا صعوبة في تجسيد بلاده التي كان يفتحها أمام العالم بعد استبعادها الطويل دولة منبوذة. كان بإمكانه التبجح بحق أنه: «بعد عام 1994 ـ ما عليك إلا أن تقول «أنا جنوب إفريقي». سواء كنت أسود أم أبيض، وستفتح أمامك أبواب العالم على مصراعيها».[2] كان بعض الأجانب يعرفون اسمه أكثر من أن يعرفوا اسم بلاده: دهش أحد رجال الأعمال الجنوب إفريقيين الذي زار تايلاند، دهش عندما وجد الناس هناك يعرفون عن مانديلا، لكنهم لم يسمعوا بجنوب إفريقية: كانت «بلاد مانديلا» بالنسبة إليهم.

وضع مانديلا طابعه الخاص على ديبلوماسية جنوب إفريقية، اختار العديد من الأصدقاء القدامى، والزملاء السابقين ليصبحوا سفراء. ميندي مسيمانغ الذي كان يعمل كاتباً في شركته القانونية في عقد الخمسين، ذهب إلى لندن، روث موميباتي التي كانت أمينة سره في الشركة، ذهبت إلى سويسرة، باربارة ماسيكيلا التي كانت تدير مكتبه في المؤتمر الوطني الإفريقي، ذهبت إلى باريس، كارل نيهوس الذي كان المدير الخاص الصحفي له خلال الانتخابات، ذهب إلى هولندة، أبلغهم مانديلا بوجوب إيصال سياسته الاسترضائية إلى الخارج، وأن يمدوا يدهم لكسب أصدقاء لبلادهم، وكذلك لإقناع الأعداء بالتحدث بعضهم إلى بعض. كان يكرر مبدأه بأن النزاعات يجب تسويتها

«بالعقل وليس بالدم». رأى في فن صنع السلام والإقناع في العالم الأوسع، الكثير مما رآه مع السجانين والسجناء في السجن؛ ولم ير أي اختلاف حقيقي بين المصالحة في الوطن أو في الخارج؛ قال لي عام 1997: «يدرك الناس أهمية مناقشة القضايا وإيجاد حلول لها، لذلك لم أجد مصالحة الناس في الخارج أكثر صعوبة».[3]

لكنه وقف بسرعة ضد توترات الديبلوماسية والمعاهدات المتعددة الجوانب. في حين استطاع ديبلوماسيوه البيض وضع العقبات. كان قسم الشؤون الخارجية عبارة عن وزارة لم تتم إعادة بنائها، فما زال مليئاً بالأفريقانيين الذين يسيرون العمل بالأفريقانية، وفي ظل مدير عام محافظ، رستي إيفانز. وكانت السفارات مليئة بالأفريقانيين من العهود القديمة الذين اعتادوا محاصرة الديبلوماسية بدلاً من كسب الأصدقاء أو إدارة مفاوضات معقدة، هذا في حين وجد السفراء من المؤتمر الوطني الإفريقي أنفسهم في معظم الأحيان وهم يقدمون تقاريرهم إلى الأفريقانيين في بريتوريا الذين رفضوا سياساتهم. كان هناك القليل من الديبلوماسيين الإفريقيين المحنكين، وقد أتى بعضهم من حكومات البانتوستات السابقة، التي أعطتهم النوع الخاطىء من التجربة. ولم يستطع مانديلا تعيين مدير عام إفريقي، جاكي سيليبي إلا عام 1998. حيث كان بإمكانه وضع ثقة تامة بها، وذلك في قسم الشؤون الخارجية.

كان مانديلا يخلق أحياناً تشويشاته الخاصة. عندما كان يتصل برؤساء آخرين، لم يكن يخبر زملاءه دوماً بما قاله هو أو قالوه. كان وزير الخارجية ألفريد نزو، رفيق مانديلا الناشط في عقد الخمسين كان داهية بما فيه الكفاية، لكن كان لديه أسلوب بطيء ومنوّم، كان يسمى «نززززز». كان المنفّذ الحقيقي للسياسة الخارجية هو ثابو مبيكي في معظم الأحيان، الذي كان ـ بوصفه نائباً للرئيس ـ يُقنع ويُفاوض باستمرار من وراء الستار. كانت العمليات المختلفة غير

منسقة: تشكى أحد السفراء قائلاً: «في الحقيقة لدينا ثلاث سياسات خارجية، وعندما أريد لأمر أن يتحقق فإنني أتصل بماديبا».

كان مانديلا هو الذي وضع اتجاه وأولويات الديبلوماسية الجنوب إفريقية. كانت عنده مُثُل قوية: «علاقات جنوب إفريقية الخارجية في المستقبل»، كما قال للمجلة الأمريكية «فورين أفيرز» قبل وقت قصير من وصوله إلى السلطة. «ستكون قائمة على إيماننا بأن الحقوق الإنسانية يجب أن تكون جوهر العلاقات الدولية، ونحن على استعداد للعب دور في تعزيز السلام والازدهار في العالم».[4] كان مصمماً على أن يكون مخلصاً للقوى الصديقة، إضافة إلى الناس. قال عام 1998: «إن سياستي الخارجية يحددها الماضي، العلاقات التي كانت لي مع البلد، المساعدات التي قدمها لنضالنا».[5] كان الولاء يتعارض أحياناً مع الحقوق الإنسانية ـ مثلاً في أندونيسيا، والعربية السعودية، أو ليبيا ـ لكن مانديلا رأى أن له مهمة أخلاقية في نشر السلام والتسامح حول العالم. وكان مقتنعاً بأن جنوب إفريقية لديها دروس تقدمها لدول أخرى. وقد رفض الحسابات المتشككة بدرجة أكبر للسياسة الواقعية.

لم يكن بمقدوره تجاهل جيرانه الإفريقيين ـ إن لم يكن لسبب فلأن الفقر وعدم الاستقرار فيما وراء حدود جنوب إفريقية كانا يحثان الملايين من المهاجرين على المجيء إليها. أصر مانديلا على أن الإفريقيين يجب أن يكونوا قيّمين على مصيرهم؛ قال أمام برلمان زيمبابوي في أيار (مايو) 1997: «حان الوقت الذي تتحمل فيه إفريقية المسؤولية الكاملة لمشكلاتها. وتستخدم الحكمة الجماعية الهائلة التي تملكها لتحقيق فكرة النهضة الإفريقية».[6] كانت «النهضة» قد بسّطها أصلاً ثابو مبيكي، الذي أصر على أن إفريقية يجب أن تواجه كوارثها الماضية. تطلع مبيكي إلى «العقد الضائع» عقد الثمانين، عندما جرّب السياسيون الإفريقيون دولة الحزب الواحد، والحكومات العسكرية، والسياسات الاقتصادية الباهظة، حيث لم تكن أي منها ذات فائدة؛ وكما قال

في شباط (فبراير) 1997 : «الآن، أؤمن أن هناك جيلاً جديداً على القارة، يقول إننا على استعداد لقلب الأمور رأساً على عقب».[7] تسلَّم مانديلا هذا الموضوع؛ وبشعوره القوي بالكرامة والإيمان بالديموقراطية، وفر رمزاً ملائماً لقارة تسعى وراء التخلص من ماضيها الاستعماري وتراث الحرب الباردة. وتسعى لأن تطور أنظمة مستقرة للحكومة. كانت جنوب إفريقية التي هي أغنى بلاد جنوب الصحارى حتى الآن كانت في مركز جيد لتقديم زعامة للنهضة. بقي رجال الأعمال الغربيون مع ذلك متشككين نظراً لـ«التشاؤم الإفريقي»؛ كانوا يخشون من أن تنجر جنوب إفريقية إلى المستنقع الإفريقي للفساد والفوضى.

كانت أصعب قضية بالنسبة إلى مانديلا هي نيجيرية، أكثر الدول الإفريقية كثافة في السكان، وقد استولى عليها الديكتاتور الفاسد ساني أباشا، الذي سجن أسلافه ومنتقديه الديموقراطيين، بمن فيهم الشاعر ـ المحرض المشهور كن سارو ـ ويوا. كان مانديلا يمارس ضغطاً من وراء الستار، متبعاً (كما شرح لاحقاً) الطرف الذي يقبله القانون الدولي، وذلك لوقف انتهاك حقوق الإنسان.[8] سيطرت قضية نيجيرية على قمة الكومونولث في نيوزيلاندة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995، حيث كان أول اجتماع لماندلا رئيساً، وحيث جدد إعجابه بالملكة. دعا بعض الأعضاء إلى فرض عقوبات على نيجيرية، لكن مانديلا ظل يفضل «الديبلوماسية الهادئة»، مؤمناً أن أباشا سيستسلم للضغوط؛ لكن خلال القمة تم إعدام كن سارو ـ ويوا. ثار غضب مانديلا وشعر أنه تمت خيانته شخصياً، وتعرض سريعاً للهجوم بوصفه ليناً جداً، كتب إليه أحد محامي سارو ـ ويوا «لو أن الديبلوماسية الهادئة اتُبعت في جنوب إفريقية فإنني أشك في أنك ستبقى على قيد الحياة اليوم».[9] في نيوزيلندة استخدم مانديلا سلطته الأخلاقية بكاملها للدعوة إلى فرض عقوبات فورية ضد نيجيرية، لكنه شعر بالخيبة بسبب حذر رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور.[10] في جنوب إفريقية أعلن أنه «جُرح وغضب لما قام به ديكتاتور فَزِع وعديم الإحساس». «إذا امتنعت

إفريقية عن اتخاذ عمل صارم ضد نيجيرية، فإن الحديث عن النهضة في إفريقية سيصبح فارغاً، فارغاً». وحذر من أن أباشا، كان «يجلس فوق بركان وأنا سأفجر هذا البركان تحته».[11] قال الصحفي كاميرون دودو الذي قابله: كانت المرة الأولى «التي يخرق فيها رئيس دولة إفريقية قوانين نقابات العمال ويهين مثيلاً له في حمل البطاقة».[12]

كانت صراحة مانديلا تبعث على الانتعاش، لكن خططه لفرض العقوبات عن طريق مجلس الأمن الدولي كانت غير واقعية. فقد أراد توريط الصين، بوصفها عضواً في المجلس؛ لكن بريتورية لم تكن تعترف ببكين آنذاك. وكان الأعضاء الآخرون بما فيهم بريطانية مهتمون جداً بالنفط النيجيري بحيث لا يمكنهم تأييد العقوبات، وسرعان ما وجدت جنوب إفريقية نفسها منعزلة. تم وقف عضوية نيجيرية فيما بعد في الكومونولث، لكن الاستبداد فيها لم ينته إلا بعد موت أباشا عام 1998 ـ حيث تبع ذلك خطوات واعدة باتجاه الديموقراطية. في تلك الأثناء كان مانديلا قد اختبر حدود السلطة الأخلاقية كسلاح ديبلوماسي.

كانت أوثق تعاملات مانديلا الإفريقية مع إحدى عشرة دولة مجاورة متجمعة تحت لواء: المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء، والتي كانت تعتمد بقوة على التجارة والاستثمار من جنوب إفريقية. عندما أصبح مانديلا رئيس المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء عام 1996 جلب معه إخلاصاً مرحباً به لمحاضر جلساتها؛ انتقد الرضا الذاتي السائد، بل حتى اقترح عقوبات ضد دول مثل زامبيا وسوازيلاند التي كانت تقاوم الضغط باتجاه الديموقراطية، سأل المجموعة الجنوب إفريقية للإنماء في أيلول (سبتمبر) 1997: «هل يمكننا الاستمرار في تقديم الراحة للدول الأعضاء التي تُعَدّ أعمالها مطلقاً ضد القيم والمبادىء التي نحملها بحماسة؟»[13] لكنه واجه استياء متعاظماً، ولا سيما من قبل روبيرت موغابي رئيس زيمبابوي، الذي كان سابقاً مسيطراً على

المجموعة، كما تحطمت آمال مانديلا بنهضة سلمية بسرعة، بسبب الفوضى في زائير، التي قُبلت بتسرع عضواً في المجموعة.

كان ديكتاتور زائير موبوتو قد دعمه الأمريكيون خلال الحرب الباردة، لكن عام 1997 هدده الجيش المتمرد للورينت كابيلا، الذي كانت تدعمه أوغندة ورواندة. حاول مانديلا جمع موبوتو وكابيلا معاً، مجهزاً سفينة حربية جنوب إفريقية متوقفة في أول نهر الكونغو ـ كمكان اجتماع محايد، حيث انتظر فيها بصبر لكن الطرفين كانا متصلبين، ولم يحضر كابيلا في موعد ثانٍ. لم يساعد مانديلا في إقناع موبوتو بمغادرة زائير، مما يجنب البلاد المزيد من إراقة الدماء؛ لكن كابيلا فشل في تعزيز نصره أو ضبط حدوده. تحولت أوغندة ورواندة ضده، وأرسلتا جيوشهما في حين جاءت زيمبابوي وأنغولا لنصرته. هددت مأساة زائير ـ التي تسمى الآن جمهورية الكونغو الديموقراطية ـ هددت بتوريط جميع جيرانها في حرب إفريقية منفردة. حاول مانديلا مجدداً تهدئة الأمور، محرضاً الرؤساء على عدم إرسال القوات، لكن كل دولة كانت لها مصالحها الخاصة المتضاربة في البلد المتفكك. بدت الكونغو مجدداً وكأنها «قلب الظلام» الذي ربما تنتقل عدواه إلى الجيران، مع انعدام سيادة القانون، في حين أن أنغولا ـ التي كانت على الحدود ـ والتي كانت تمزقها منافسات الـ Cold Worriors، قد عادت مجدداً إلى الحرب الأهلية.

انجر مانديلا أيضاً إلى مشكلات ليسوتو، المملكة الجبلية المحاطة بجنوب إفريقية. عام 1998 طلب رئيس وزرائها باكاليثا موسيسيلي مساعدة بريتورية لوقف التهديد بالتمرد، كان باثيليزي آنذاك رئيساً بالوكالة، حيث تشاور مع كل من مانديلا ومبيكي (اللذين كانا مسافرين في الخارج) واللذين وافقا على التدخل؛ لكن الجيش الجنوب إفريقي ـ الذي كانت تنقصه الاستخبارات إلى درجة خطيرة، أرسل قوة غير كافية من ستمئة رجل، ولزمهم عدة أيام لفرض النظام، ودمروا خلال تلك العملية معظم العاصمة، ماسيرو، في حين أفرغ

النهابون المحلات. كانت هناك صرخة عالية من السخط، واعترف الوزراء والعسكريون بصراحة خلال جلسات المجلس النيابي بأخطاء أساسية في التقدير. أصر مانديلا على أن التدخل قد حقق هدفه. إذ قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «لقد عالجنا الموضوع معالجة جيدة جداً، وربما لم يتم تنظيم المظاهر العسكرية الملائمة، لكننا حصلنا على السلام في البلاد».[14] إلا أن العملية غير المتقنة جعلت جنوب إفريقية تظهر بمظهر المتنمر الأخرق، ودمرت صورة مانديلا صانع سلام.

كان التفاؤل بخصوص نهضة إفريقية يتلاشى بينما اندلعت حروب أهلية من جديد عبر القارة، وتم النظر إلى جنوب إفريقية من الخارج على أنها جزء من القارة المتدهورة. حذر مبيكي في تموز (يوليو) 1998 قائلاً: «عندما تضيء الصور عبر شاشات التلفاز عن الجوع والفقر والدمار والاعتماد على الإحسان، فإنهم لا يقولون إن ذلك يحدث في جمهورية كالاهوتا، بل يقولون إن ذلك يحدث في إفريقية».[15]

ظل مانديلا محافظاً على سمعته الفذة، ليس في إفريقية فحسب، بل أيضاً في معظم الدول النامية، وكانت جنوب إفريقية جسراً ضمنياً إلى الدول الأغنى. توفرت لديها الفرصة للعب دورها الجديد عندما عقدت حركة عدم الانحياز ـ التي تضم ما يزيد عن مئة دولة نامية ـ قمتها الثانية عشرة في دوربان في أيلول (سبتمبر) 1998، برئاسة جنوب إفريقية. رحب مانديلا بتجمع غريب جداً، ضم فيدل كاسترو، وياسر عرفات، وألقى كلمة افتتاح فيها تحدٍ. تساءل عن «المشاكلة التقليدية» لسوق التجارة العالمي، بلغة عجز الميزانيات السائدة في السوق، وحركات رأس المال وأسواق العمل المرنة، وحذر من أن الناس ربما ينتهون إلى تحدي الأساليب حتى النهاية»، وينسون أن الهدف الحقيقي للإنماء هو في تحسين «الحياة المادية والروحية لكل مواطن». أكد لهم على استقلاله، وانتقد أيضاً «المصالح الضيقة والشوفينية للإدارة الحالية في إسرائيل» لإعاقتها

الأمل بسلام دائم في الشرق الأوسط. وحث الهند وباكستان على حل نزاعهما المرير حول كشمير عبر مفاوضات سلمية، عارضاً مساعدته.[16] اشتكت الحكومة الإسرائيلية بسرعة بخصوص «ملاحظات مانديلا غير السارة وغير المفيدة»، في حين حذر رئيس الوزراء الهندي فاجبايي الأطراف الثالثة بوجوب البقاء خارج نزاع كشمير. لكن مانديلا تلقى مديحاً من باكستان والفلسطينيين، ولعب فيما بعد دور المضيف لزيارة رسمية لعرفات ـ الذي يعاني الآن من مرض باركنسون في الارتجاف والضعف ـ.

قالت جاكي سيليبي، المدير العام الجديد في وزارة الخارجية: «يتعين على جنوب إفريقية أن تكون قادرة على قول إن شخصاً أو حكومة تفعل شيئاً خاطئاً، بلا إقحام أسواق البورصة».[17]

كان مانديلا يعيد رسم الخريطة الاقتصادية للعالم من وجهة نظر جنوب إفريقية عن طريق تأليف تحالفات جديدة. وفي البداية كان أكثر أصدقائه الماليين الواعدين في الاقتصاديات المزدهرة بسرعة في آسية، الذين قدموا هبات كريمة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي (انظر الفصل 28). لكن كان هناك الكثير من التعقيدات. فتايوان التي كانت قد قدمت للمؤتمر الوطني الإفريقي مبلغ 10 ملايين دولار عام 1993، برهنت على أنها حليف مربك عندما سعت حكومة مانديلا إلى الاعتراف بالبر الرئيسي الصيني. أصر مانديلا على أنه لن يطعن صديقته القديمة تايوان في الظهر، مما سبب شكوى من طوني ليون من الحزب الديموقراطي تقول «سياستنا الخارجية بأكملها تقوم على الديون الانتخابية للمؤتمر الوطني الإفريقي». لكن بريتورية سرعان ما غيرت اتجاهها، وكانت قادرة على الاعتراف بالصين من غير أن تكسب عداء تايوان كلياً.[18]

كان لدى مانديلا ما هو أكثر من الأسباب السياسية الحزبية لتطوير روابطه مع آسية، في وقت كان فيه أصحاب المصارف والمستثمرون الدوليون يكيلون المديح للاقتصاديات العجيبة «لنمور» الشرق. تطلع إلى إعادة اختراع «إطار

المحيط الهندي» حيث لعب ذلك الإطار دوره في التاريخ الماضي لجنوب إفريقية عندما استوطنت مجموعات هندية وماليزية وصينية على شواطئها. أشار مانديلا في سنغافورة عام 1997 إلى أنه «قبل سنوات كثيرة، فإن التجارة والعلاقات كانت موجودة بين آسية وإفريقية الجنوبية، علاقات بدأنا لتونا الآن بتقديرها تقديراً كاملاً».[19] وكانت له روابط مفيدة مع الدول المسلمة. كان هناك ثلاثة هنود مسلمين في وزارته، إضافة إلى اثنين من الهندوس. أبلغ مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام 1998 أن «جنوب إفريقية الديموقراطية، على العكس من سابقاتها، تمنح الإسلام وضعاً دستورياً مماثلاً لباقي الأديان الأخرى».[20] احتفي بمانديلا في أندونيسية حيث امتدح الرئيس سوهارتو بوصفه «زعيماً قادراً وصبوراً ومصقولاً». ورفض علناً التنديد بإساءات سوهارتو للحقوق الإنسانية. لكنه أثار معه في السر قضية تيمور الشرقية، التي ضمتها أندونيسية عام 1975 رغم احتجاجات عالمية كبيرة، وعام 1997 أقنع سوهارتو بالسماح له برؤية جوزيه كزانانا غوسماو، الزعيم المسجون لحركة تحرير تيمور الشرقية، الذي كانت محنته متشابهة إلى حد ما مع محنة مانديلا، ناشد سوهارتو إطلاق سراحه بحديثه المألوف: «أوقف الحبس، أطلق السراح، فاوض».[21] الذي أثبت صحته بعد سقوط سوهارتو.

طورت ماليزية علاقة تجارية أوثق مع جنوب إفريقية، فقد تأثر مانديلا برئيس الوزراء مهاتير محمد عندما زار الأخير جنوب إفريقية عام 1990، ومرة أخرى في مؤتمر الكومونولث عام 1991؛ وانجذب أيضاً إلى الفكرة الماليزية «باميبوتيرا» أو «أبناء التربة»، التي سعت لإعطاء ماليزية حصة أكبر في ملكية الصناعة، وتأسيس طبقة وسطى ماليزية مزدهرة لتتنافس مع الأقلية الصينية، وهذه حالة لها ما يشابهها بالنسبة إلى الجنوب إفريقيين السود. عندما زار مانديلا ماليزيا عام 1996 امتدح البلاد نموذجاً للتدريب، وإعادة البناء ومنح السلطة. وشجع (مهاتير) في مجالات الأعمال الماليزية لتصل عبر المحيط

الهندي، متماشية مع سياسة «الجنوب ـ الجنوب». بعد انتخابات عام 1994 دخلت الشركات الماليزية في صناعة الأخشاب والملكية وصناعات أخرى في جنوب إفريقية، وبلغت الذروة في شراء ثلث شركة إنجن للطاقة، وحصة كبيرة في شركة تلكوم العملاقة للاتصالات. وقيل إن ماليزية كانت تأخذ مكان كوبة في الجغرافية الثقافية للمؤتمر الوطني الإفريقي.[22]

إلا أن نمور جنوب شرق آسية شلتهم الأزمات الاقتصادية أواخر عام 1997. حيث انهارت العملات، وضعفت المصارف، وانهارت الشركات إلى مرحلة الإفلاس. وتمت الإطاحة بالرئيس سوهارتو. وادعى الاقتصاديون الغربيون الذين كانوا قد كالوا المديح للدول الآسيوية المعجزة، ادعوا الآن أن تلك الدول كانت متصدعة دوماً بالفساد و«الرأسمالية الحميمة». بدت جنوب إفريقية لبعض الوقت، وبنظامها المصرفي الأفضل، بدت أقل هشاشة بكثير؛ لكن الانهيارات في أندونيسية وماليزية وتايلاند أفزعت المستثمرين الغربيين وجعلتهم يبتعدون عن كل الأسواق الناشئة وسحبوا الأموال من جنوب إفريقية، متوقعين هبوطاً جديداً للرند، في حين بدت الانفتاحات نحو الشرق الآن وهي تعد بفرص أقل. لم تستطع جنوب إفريقية التخلص من اعتمادها الأساسي على الغرب، سواء في مجال الاستثمار أم الديبلوماسية.

كانت لمانديلا علاقة مترددة مع الولايات المتحدة، فمنذ جولته الأولى الظافرة عام 1990 تشجع باحتياطي النية الحسنة الأمريكية. وأحب زيارات نجوم الأفلام، ومغني البوب والسياسيين الودودين. كان الرئيسان بوش وكلينتون فخورين بروابطهما الشخصية معه. وقد تم غفران الخطيئات الماضية لوكالة الاستخبارات المركزية، وأرادت وزارة الخارجية استخدام بريتورية كقوة بديلة في إفريقية. لكن مانديلا كان مقاوماً للغطرسة الأمريكية، ورد بعنف على المواقف التفضيلية أو الإهانات للكرامة الإفريقية. كان واحداً من بين الزعماء القلائل الذين كان بمقدورهم انتقاد واشنطن علناً بلا عقاب؛ وكما قال أحد

السفراء: «يريد التخلص من فكرة أن أمريكا لا يمكن تحديها». وكان يعرف أن معظم العالم النامي يقف وراءه.[23] تكلم مانديلا جهاراً ضد كلينتون في تشرين الثاني (نوفمبر) 1996، عندما عارض الأخير إعادة تعيين أمين عام الأمم المتحدة بطرس بطرس غالي، الذي كان مدعوماً من قبل معظم الأعضاء في الأمم المتحدة، وحذر من أنه إذا تحدت أمريكا الإجماع «فإننا ربما نغرق في الفوضى لأن ـ بعد هذه السابقة ـ أية دولة لن تحترم قرارات الأغلبية في الهيئة الدولية».[24]

اطمأن مانديلا جزئياً بتعيين أمين عام إفريقي، كوفي عنان من غانة، لكنه استمر في الاعتراض على المعاملة الفوقية لواشنطن تجاه الأمم المتحدة.

امتعض مانديلا أيضاً من محاولات واشنطن وضع قيود على مشتريات الأسلحة لبريتورية ـ حيث كان على أساس أخلاقي أكثر تأرجحاً. كانت حكومات التمييز العنصري قد عززت صناعة أسلحة مفرطة عوضت عنها ببيع الأسلحة للخارج أينما توفر لها ذلك؛ وبعد وصول المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة، استمرت شركة الأسلحة التابعة للدولة وهي آرمزكور في عقد صفقات مع زبائن مشبوهين. ثار غضب وزارة الخارجية الأمريكية مطلع عام 1997، عندما علمت أن بريتورية تخطط لبيع دبابات بقيمة 650 مليون دولار إلى سوريا عدو إسرائيل المرير. وحذر الأمريكيون من أن عملاً كهذا سيكون «خطيراً جداً»، وهدد النواب بقطع المساعدة عن جنوب إفريقية. رد مانديلا بغضب: «إننا سنفقد اتفاقات مع أي بلد سواء كانت له شعبية في الغرب أم لا... إن أعداء دول الغرب ليسوا أعداءنا».[25]

لكن تحدي مانديلا الرئيسي لواشنطن كان تأييد (البعبعين) الأمريكيين، القذافي وكاسترو. لقد أعاد تأكيد صداقته معهما في شباط (فبراير) 1996 عندما كان يزور روبن آيلاند مع غرو برندلاند، رئيس وزراء النرويج. كانت لحظة (دراماتيكية) فبينما كان يتحدث ارتجالياً في مقلع للحجارة الكلسية، أثنى مانديلا على النرويج لدعمها المؤتمر الوطني الإفريقي عندما كان المؤتمر بدون

أصدقاء تقريباً، وبسرور جَلِيّ أعلن أنه سيدعو كلاً من كاسترو والقذافي إلى جنوب إفريقية؛ وتشكى من أن الرئيس بوش قد نصحه بعدم تأييدهما، لكنه قال: «إننا لن نتخلى أبداً عن أصدقائنا».[26]

قام كاسترو بزيارة رسمية مسرحية إلى جنوب إفريقية عام 1998، بعد حضوره قمة عدم الانحياز في دوربان، حيث حذر من «أزمة اقتصادية عميقة ولا يمكن تجنبها» كانت تهدد العالم بأكمله. خاطب جلسة مشتركة في المجلس النيابي ملقياً كلمة عاطفية، «مثل رسالة الحب التي تكتبها حبيبة تشعر بشوق كبير». قاطع الحزب الديموقراطي كاسترو بوصفه «عدواً للديموقراطية»، لكن الجنوب إفريقيين السود صفقوا له وهم ينادون «كوبا! كوبا!» وتحدث فيما بعد لساعتين في سوويتو من غير أن يأخذ حتى رشفة ماء.[27]

لم يزر القذافي جنوب إفريقية أبداً. لكن مانديلا استمر في تأييده كحليف قديم ساعد المؤتمر الوطني الإفريقي في الأيام السوداء من عقد الستين (على الرغم من أنه ساعد أيضاً الـ PAC المنافس). كان الغرب ما يزال يعتبر القذافي شيطاناً بعد تفجير الطائرة الأمريكية فوق لوكربي في سكوتلندة في كانون الأول (ديسمبر) 1988، التي ألقي اللوم في تفجيرها على عملاء ليبيين. لكن مانديلا زار ليبيا عدة مرات بدءاً من عام 1990، ليجمع أموالاً للمؤتمر الوطني الإفريقي جزئياً. وعندما طلب الغرب تسليم المشبوهين ومحاكمتهم تجادل مانديلا مع الرئيس بوش وأصر على وجوب محاكمتهم في بلد محايد.[28] وازداد الغضب الأمريكي في تشرين الأول (أكتوبر) 1997 عندما كان مانديلا يستعد للقيام بزيارة رسمية إلى ليبيا. قالت وزارة الخارجية الأمريكية، «إنهم سيكونون شاعرين بالخيبة» إذا تحققت الزيارة. رد مانديلا بغضب في مأدبة في جوهانسبورغ:

> «كيف يمكن لهم أن يملوا علينا بهذه الغطرسة من يجب أن يكونوا أصدقاءنا؟ . . . هل يمكنكم تخيل ما سيقولونه إذا قلت إن بوريس يلتسين يجب أن لا يزور ألبانيا؟ سيقولون إنني أكبر رجل أسود متغطرس. . .

على الرغم من التغييرات في العالم، فإن احتقار السود ما زال عميقاً».

أنهى كلمته بقصيدته المفضلة حول روبن آيلاند: «أنا سيد مصيري». وسار قدماً بتحديه بزيارته ليبيا. عانقه القذافي وقبّله ورفع يده متضامناً، وأراه القصر الرئاسي الذي تدمر بالقصف الأمريكي. انتقد مانديلا «الدول التي تلعب دور الشرطي المسؤول عن العالم»، وقال: «أولئك الذين اعترضوا على زيارتي لليبيا ليس لديهم أخلاق... السياسي يجب أن لا يفقد أخلاقه، وأن يكون مستعداً للمعاناة، وهذا هو السبب الذي جعلني أبقى سبعة وعشرين عاماً في السجن». [29]

طار مانديلا من ليبيا إلى أدنبورغ لحضور قمة الكومونولث التي استضافها طوني بلير، ووضع موضوع ليبيا في المقدمة، مجادلاً من جديد أن المشبوهين بالتفجير يجب محاكمتهم في بلد محايد؛ قال: من الخطأ لأي بلد أن يكون «المشتكي، والنائب العام، والقاضي في الوقت ذاته». كسب التأييد من الأسر البريطانية لضحايا لوكربي، الذين رفضوا الخط المتصلب الأمريكي. في طريق عودته، توقف مجدداً في ليبيا، حيث قلد القذافي وسام Order of Good Hope، ونصحه «بوجوب تفهم أهمية اللغة المعتدلة». [30]

أزعج دفاع مانديلا عن القذافي العديد من الغربيين: قالت صحيفة الغارديان إن قديس روبن آيلاند، بدا أنه في تحالف غير رسمي مع كلب طرابلس المسعور. [31] وقد سبب هجومه على الأخلاقية الأمريكية سخط الأمريكيين المحافظين؛ قالت النيوريبليك: إنه لمقرف، «وإنه مثال الاستبدادية الأخلاقية في أسوأ صورها». [32] وثار غضب الجنوب إفريقيين البيض أيضاً لتحديه السياسة الأمريكية. لكن مانديلا عَدَّ النقد عرقياً في حقيقته. قال: «لم يضع أي إفريقي أو ملون أو هندي ذهابي إلى ليبيا موضع التساؤل، لكنهم يعتقدون مصالح البيض هي مصالح البلاد: أي إنك لا تستطيع تحدي الولايات

المتحدة لأن مصالح البلاد سيلحق بها الأذى. لم يقل ذلك أي رجل أسود؛ الأحزاب البيضاء فقط». [33]

بقي مانديلا على صلة مع القذافي عن طريق جيكس جيرويل أمين سر وزارته البعيد عن الأضواء، والذي كانت له تجربة تفاوض ما لا يمكن تفاوضه. في حين كان مانديلا يتصل ببلير وكلينتون مباشرة، مما أثار حفيظة ديبلوماسييهما. كان مانديلا قادراً على طمأنة القذافي ـ الذي كان يثق به أكثر من ثقته بالأمم المتحدة. وفي آذار (مارس) 1999 طار إلى طرابلس لحسم الصفقة: القذافي سيقوم بتسليم المشبوهيْن مقابل إلغاء عقوبات الأمم المتحدة. كان ذلك (كما اعترفت وسائل الإعلام المحافظة) إثباتاً لديبلوماسية مانديلا الشخصية، وعلاقاته الودية مع ليبيا. [34]

تأييد مانديلا لليبيا لم يلحق الضرر بصداقته المتنامية مع الرئيس كلينتون التي كانت قائمة على الإعجاب المتبادل. تذكر كلينتون دوماً كيف راقب إطلاق سراح مانديلا على شاشة التلفاز في أركانساس مع زوجته هيلاري وابنته تشيلزي (التي أصبحت مسحورة بقصة مانديلا). [35] وجد مانديلا كلينتون «لامعاً» عندما التقيا أول مرة، ورآه بعد ذلك بوقت قصير كصديق للأقليات. قال لي: «فعل كلينتون شيئاً لم يتم فعله أبداً في الولايات المتحدة، لقد جذب السود، والنساء، والمعوقين وقد حصل على دعم صلب من السود» [36] كان مانديلا يتصل بكلينتون في معظم الأحيان، ولم يتذكر أنه رفض له أي طلب(*).

في آذار (مارس) 1998 قام كلينتون بزيارة رسمية إلى جنوب إفريقية كانت ذروة جولة أمريكية، أكدت الأهمية الخاصة لدور بريتورية. قال السفير

(*) طلب مرة من كلينتون مساعدة الصحفي الجنوب إفريقي فيليب فان نيكيرك الذي كان في وضع خطير خلال الحرب الأهلية في ليبيريا. فاستلم الصحفي على الفور رسالة تطلب إليه الذهاب إلى السفارة الأمريكية، ومن هناك نقل جواً مع موظفين أمريكيين بطائرات الهليكوبتر.

الأمريكي جيمس جوزيف «إن علاقة جنوب إفريقية مع باقي القارة هي مماثلة جداً لعلاقتنا مع باقي العالم. كلانا قوة سائدة»[37] أثناء مخاطبته المجلس النيابي أثنى كلينتون على شجاعة وحنكة جنوب إفريقية الجديدة، وأصر على أن الأمريكيين يجب أن يتوقفوا عن سؤال ماذا يمكنهم فعله من أجل إفريقية، ويسألوا بدلاً من ذلك ماذا يمكنهم فعله مع إفريقية، وهذه نقطة سرّ لها مانديلا.[38] لكن سرعان ما طرح مانديلا التبادل المألوف للمجاملات: ففي مؤتمر صحفي في حديقة التيونهيوز انتقد الضغوط الأمريكية وأكد مجدداً استقلاله بخصوص ليبيا، وإيران، وكوبا. بدا كلينتون غير منزعج، وسرّه مانديلا بإبلاغه منتقديه بالذات في جنوب إفريقية «بالقفز في البركة». وفيما بعد أثار غضب مساعدي كلينتون بشدة بإصراره على الديبلوماسية السرية جداً: تحدث أولاً وعلى انفراد مع الرئيس، ثم دعا صديقه السعودي الأمير بندر، الذي كان ينتظر للحاق بهما.[39]

كان بإمكان مانديلا أن يقدم إلى كلينتون نوع التأييد الأخلاقي الذي هو بأمس الحاجة إليه. كما أظهر في واشنطن بعد ذلك بستة أشهر، عندما كان كلينتون يشعر باللهيب الكامل لمضطهديه، الذين كانوا يهددونه بالعزل. في حفل استقبال في البيت الأبيض للزعماء الدينيين أثنى كلينتون ثناء عاطفياً على ضيفه: «في كل مرة يسير فيها نيلسون مانديلا إلى أية غرفة، نشعر أننا جميعاً أكبر بقليل، نريد كلنا أن نقف وأن نحيي، لأننا نحب أن نكون هو في أفضل أيامنا».

رد مانديلا ـ مشيراً إشارة غير مباشرة إلى الدعوة إلى عزل الرئيس ـ وأصر قائلاً: «إنه ليس من شأننا التدخل في هذه القضية»، واستمر ليمتدح كلينتون «صديقاً لجنوب إفريقية وإفريقية» وليعد بالإخلاص له، مثلما فعل بالنسبة إلى القذافي: «لقد قلنا كثيراً إن أخلاقيتنا لا تسمح لنا بالتخلي عن أصدقائنا. ويجب أن نقول هذه الليلة: إننا نفكر فيك في هذا الوقت العصيب والمتقلب في حياتك».[40]

مانديلا ـ الذي هو الآن في الثمانين ـ لم يفقد المتعة بالسفر إلى الخارج. ففي شهوره الأخيرة رئيساً، غطّى معظم العالم مع زوجته غراكا. ليقول الوداع لأصدقائه. تشكى بعض الجنوب إفريقيين البيض أو استهزؤوا بخصوص غيابه المتكرر. (في هذا الأسبوع، يقوم الرئيس مانديلا بزيارة إلى جنوب إفريقية). لكنه أوضح أنه لا يدير البلاد الآن. إن الهالة الدولية التي يتمتع بها لم تتلطخ في سنواته في العمل. ورؤساء الحكومات غير الآمنين كانوا يشعرون بالثقة والمجد لدى ظهورهم معه. وكان بإمكانه بث الطمأنينة في زعماء من اليسار إلى اليمين في آن واحد. في بريطانية قدّرت الملكة تقديراً واضحاً زياراته في وقت كانت فيه أسرتها بالذات تتعرض للانتقاد، في حين استطاع طوني بلير تحسين صورته اليسارية بالقيام بزيارة سريعة إلى مانديلا في كانون الثاني (يناير) 1999.

إلى أي مدى تُرجمت تلك الترحيبات الحارة إلى مساعدة عملية؟ هل يستطيع مانديلا الاعتماد على جاذبيته؟ حاول السفراء الجنوب إفريقيون جاهدين استخدام زيارات رئيسهم لجذب المستثمرين أو لتحسين شؤون التجارة. لكن صورة مانديلا القديس لم تكن مساعدة بالضرورة في عالم التجارة، لأنها تضمنت أنه فوق الشؤون الدنيوية، مثل الأم تيريزا، أو الدالاي لاما. «القديس نيلسون يريد مالنا»، هذا ما حذرت به صحيفة التايمز اللندنية فوق مقالة عن زيارة مانديلا الرسمية عام 1996، كتبها المحرر المحافظ سيمون جينكنز، الذي خفض من قيمته رئيساً جدّياً لحكومة»؛ الدولة يمكن تمثيلها من قبل قديس، لكن لا يمكن أن يحكمها قديس». [41]

في القارة بالذات، كانت هناك ثغرة أوسع بين المديح الأخلاقي والدعم الاقتصادي. فعندما أصبح مانديلا رئيساً عام 1994 كان الاتحاد الأوربي مفعماً بالنية الحسنة تجاه جنوب إفريقية مزدهرة ومستقرة، ووعد بفتح منطقة تجارة حرة تكون نموذجاً لسياسة التطوير المنورة. لكن المفاوضين في بروكسل سرعان ما وقفوا ضد مزارعي البطاطا الألمان، ومنتجي النبيذ الإيطاليين،

وزارعي الورود الهولنديين؛ وبعد أربع سنوات وأربعين جولة من المحادثات فإنهم لم يحترموا حتى الآن وعدهم الأصلي لمانديلا. البريطانيون وهم الأقل شعوراً بالتهديد اقتصادياً، كانوا أكبر الداعمين لجنوب إفريقية، وعام 1998 دعا طوني بلير مانديلا إلى القمة الأوربية في كارديف، آملاً في أن وجوده ربما يخجل الأوربيين فيجعلهم يفتحون أسواقهم. رحب به رؤساء الحكومات الغربية وعلى رأسهم هيلموت كول وجاك شيراك بتصفيق هادر. وهمس المبعوث البريطاني إلى المجموعة الأوربية نيل كينوك لمانديلا للحث على الوفاء بالالتزام، لكن مانديلا أجاب ساخراً: «لا يوجد حبر في أقلامهم». وعد الأوربيون باتفاقية بحلول الخريف، ثم أجلوها من جديد. أخيراً في 26 آذار (مارس) 1999، وافق رؤساء الحكومات الأوربية على اتفاقية رحبت بها بريتورية «بمثابة تصريح كبير بالثقة» ـ وذلك قبل ساعات قليلة من كلمة مانديلا الأخيرة أمام المجلس النيابي.[42]

كانت الحكومات الغربية سعيدة لاستخدام وجود مانديلا لصقل صورها أو تحسين علاقاتها العرقية؛ لكن المفاوضين المتشددين شعروا بالقليل من الالتزام للقيام بتنازلات مقابل ديموقراطية شابة هشة. لم يكن هناك مكان في حسابات عالم التجارة العالمي للقضايا الإنسانية. وبقي هناك صدع بين عبادة صورة مانديلا ومساعدة الناس الذين يمثلهم.

لكن مانديلا بقي متفائلاً بأن العالم يصبح أقل عنصرية. ولقد شعر دوماً بأن البريطانيين كانوا أكثر إنصافاً من المستعمرين من أصل بريطاني في إفريقية. تذكر قوله بوصفه مناضلاً من أجل الحرية: «أفضل طريقة لتلقي الحماية ضد المستوطنين البريطانيين في أية مستعمرة هي الذهاب إلى لندن». صار الآن واثقاً مجدداً من أن أمريكة في عهد كلينتون كانت تبتعد أيضاً عن العنصرية: «تظهر قضية الولايات المتحدة إظهاراً جيداً جداً ما هو الاتجاه، صانعو القرار في كل بلد يبتعدون عن ذلك». هذا ما قاله في كانون الثاني (يناير) 1991.[43]

كان كلينتون سعيداً بالعودة إلى المجاملة، وذلك بثناء بليغ على نفوذ مانديلا عندما رحب به في واشنطن عام 1998:

«في كل وضع مشوه ومعقد وممزق في العالم، حيث يُمنع الناس من أن يصبحوا أفضل ما يمكن، هناك تمييز عنصري في الصميم. وإذا احترمنا حقاً هذه التضحية المذهلة لسبعة وعشرين عاماً، وإذا ابتهجنا حقاً بالعدالة المطلقة لهذا الرجل الذي تزوج بسعادة في خريف حياته، وإذا كنا نسعى حقاً وراء بعض الحكمة المندفقة إلى الأمام من قوة مثاله، فمعنى ذلك أن نفعل ما بوسعنا، وبأية طريقة ممكنة، وأينما كنا لإخراج التمييز العنصري من داخلنا ومن داخل الآخرين». (44)

40

بلاد مانديلا

إلى أي مدى تحولت جنوب إفريقية سلمياً وبخاصة خلال السنوات الخمس من حكم مانديلا؟ في شباط (فبراير) 1999 ألقى مانديلا كلمته السنوية الأخيرة أمام المجلس النيابي حول وضع الدولة. نظر إلى الماضي قبل عشر سنوات إلى الوقت الذي كتب فيه «سجين متواضع» من السجن إلى الرئيس مقترحاً المفاوضات، ومعالجة قضيتين مركزيتين: مطلب السود بحكم الأغلبية في دولة وحدوية، ومخاوف البيض بخصوص هذا المطلب. وتذكر تحذيره حول احتمال أن تصبح جنوب إفريقية «منقسمة إلى معسكرين متعاديين»، وعكس بشيء من الفخر التغييرات الاستثنائية منذ أن أصبح ذلك السجين المتواضع رئيساً: «أمور مثل المساواة، وحق الاقتراع في انتخابات حرة وعادلة، وحرية الرأي، كل هذه الأمور أصبحت مفروغاً منها الآن».

لكن مانديلا ظل يرى انقسامات مقلقة بين السود والبيض: «إننا يذبح بعضنا بعضاً في عقولنا وفي انعدام الثقة التي تراوح في رؤوسنا، كما أن تعابير الكراهية تتدفق من شفاهنا». وأكد من جديد على أن المصالحة مستحيلة بلا «تفكيك ما تبقى من ممارسات ومواقف التمييز العنصري».[1]

من المؤكد أن معظم الجنوب إفريقيين البيض كانت لهم وجهة نظر سلبية أكثر بكثير من السود بخصوص تحول البلاد. وقد تبع شعورهم بالنشاط بعد الانتخابات عام 1994، شكاوى بشأن الاقتصاد، والفساد والجريمة، والآمال

المتلاشية للبيض؛ وكان معظم الصحفيين والزوار الغربيين الذين كانت لهم روابط اجتماعية قليلة مع الطبقة الوسطى السوداء، كانوا يأخذون ملاحظاتهم من البيض، وتوقع العديد من البيض أن أساليب حياتهم لن تتأثر بالجيشان السياسي عام 1994. لكنهم لم يعودوا ينتمون إلى مجتمع منفصل تماماً له ميزاته وقوانينه، أي ملحقٍ بالعالم الثري في الغرب، صاروا الآن جزءاً من بلاد نامية في حالة تغير مستمر، مثل البرازيل أو مكسيكو، معرضين لجميع مشكلات ومخاطر سكان فقراء ومتزايدين في العدد يندفعون إلى المدن. كانت حكومة مانديلا قد واجهت سلسلة من الأزمات التي بدت وكأنها صور ساخرة لمشكلات العالم النامي، في ميادين العرق، والهجرة، والأموال، والصحة والتعليم.

جعل انشغال البيض بمشكلاتهم بالذات، جعل مانديلا فاقداً للصبر تجاه معظم سياسييهم و«تشاؤمهم غير العملي». قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999: «ما تزال أحزاب المعارضة في هذا البلد مهتمة بتحسين مصالح أقلية بيضاء، تستطيع أخذ الكثير من الأمثلة لتقول: أنتم لستم مخلصين لهذا البلد، أنتم مخلصون لمصلحة أقلية بيضاء».[2] هاجم أحزاب «ميكي ماوس» البيضاء ـ حيث رد طوني ليون من الحزب الديموقراطي بأن مانديلا كان «يدير حكومة غوفي». (بعد ذلك ببضعة أسابيع كان مانديلا يزور مستشفى حيث كان ليون يتعافى من عملية. ونادى من وراء الستار: «ميكي ماوس، أنا غوفي»).

من المؤكد أن المستقبل بدا وردياً بالنسبة إلى الطبقة الوسطى السوداء المزدهرة التي ضمت معظم زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي. فالمناضلون القساة من أجل الحرية، الذين كانوا يقودون سيارات «نضال» معطوبة في المناطق، تحولوا إلى موظفين يرتدون ثياباً لائقة ويقودون سيارات الـ بي. أم. دبليو، ويعيشون في الضواحي البيضاء، في حين تكيف المديرون السود مع أسلوب حياة الأعمال الضخمة.

كان انتقالاً سريعاً من سني الصعوبات والتضحية الذاتية، وهذا ما صدم

بعض المراقبين. «العديد من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي تسابقوا ليلحقوا بالأذواق الأفضل للأسياد السابقين». هذا ما كتبه عالما الاجتماع آدم سلابيرت ومودلي في كتابهما المثير للجدل «رفاق في الأعمال» عام 1997. «أي شيء يقل عن أسلوب حياة بورجوازية بيضاء سيبدو عديم المساواة».[3] أبلغ فوملايز ملامبو ـ نغوكا، نائب وزير التجارة، أبلغ رجال الأعمال السود أن لا يخجلوا من أن يصبحوا «أثرياء قذرين». منع ثابو مبيكي هذه العبارة لكنها ظلت تتردد بين أصحاب الميزات الأقل.[4] وصار السياسيون أنفسهم ينفصلون أكثر عن ناخبيهم. وصلت رواتب أعضاء المجلس النيابي ـ كما يعتقد ـ إلى ثلاثين ضعفاً من الدخل الوسطي، في حين أن أعضاء الوزارة وكبار الموظفين المدنيين (كما قال عالم السياسة توم لودج) كان «يدفع لهم بإفراط بالنسبة إلى بلد فقير نسبياً».[5]

بدت الطبقة الوسطى وهي تعتنق الرأسمالية بحماسة لم يكن يتخيلها أحد قبل عشرين عاماً. من الصحيح أن الآمال «بسلطة سوداء» سريعة في مجالات الأعمال كانت مخيبة، سواء بسبب مقاومة البيض أو النقصان الشديد في المدراء والمحاسبين السود المتدربين، أو بسبب النتائج المعطِلة لتعليم البانتو. أصر الليبراليون البيض على أن الانتقال، مثلما حدث مع الأفريقانيين ـ سيستغرق وقتاً، قال ماريوس سكون، الأفريقاني المؤيد للمؤتمر الوطني الإفريقي في بنك (الإنمائي): «إن منح السلطة والعمل الإيجابي للأفريقانيين بدأ في عقد العشرين. ولم يتوصل الأفريقانيون إلى القبض الفعلي على زمام الاقتصاد الجنوب الإفريقي إلا في أواسط عقد الستين. من الجنون توقع نتائج سريعة».[6] لكن قلائل من المقاولين السود حققوا سلطة اقتصادية مثل الرأسمالي المحنك الدكتور نثاتو موتلانا، الذي أصبح رئيساً لكتلة نيل NAIL (عندما أريد الوصول الآن إلى طبيبي القديم، يتعين عليّ أن أصل إلى سوق البورصة) كما مزح مانديلا.[7] كان يشاركه لبعض الوقت سيربل رامافوزا عندما

كان نائب رئيس. وذلك قبل أن يستقيل في شباط (فبراير) 1999 ليلحق بشؤون عمله الخاص.

كانت لمانديلا مخاوفه الخاصة بشأن تجاوزات الحماسة التجارية؛ فعندما كان في السجن ـ حين اجتاحت الاستهلاكية العالم بأكمله ـ كان يحزن في معظم الأحيان بسبب الاستهلاك الجلي للجيل الشاب. لكنه كان قد اقتنع أن مشاريع العمل والاستثمارات الخارجية كانت ضرورية من أجل فرص العمل والازدهار. رأى المال والصناعة ـ مثل المؤسسات الأخرى ـ ضمن مجالات الأفراد الذين يستطيع التواصل معهم شخصياً. كان يتصل باستمرار بزعماء الأعمال طلباً لدعمهم، لا سيما من أجل صندوق الأطفال الذي هو مشروعه الخيري المفضل، والذي جمع أموالاً ضخمة خلال رئاسته، لكن لأجل مخططات أخرى كذلك؛ لتوفير المدارس والمستشفيات والمنح للأطفال. وقد ثمّن استجابتهم، كما قال لي في كانون الثاني (يناير) 1999:

> «منذ عام 1990 عندما خرجت من السجن ذهبت إلى مجالات العمل الضخم، ليس بصفتي عضواً في المؤتمر الوطني الإفريقي، أو رئيساً للبلاد، لكن بصفتي رجلاً مسناً: «أريد منك أن تقدم خدمات لشعبنا مستخدماً مصادرك الخاصة بالذات». . تطلب منهم القيام بأشياء معينة، وتحكم عليهم من خلال استجابتهم، ما إذا كانوا يشاركون في عملية الانتقال. . . إن كل شيء طلبته تقريباً من رجال الأعمال استجابوا له بإيجابية كبيرة». [8]

اعتقد الناقدون من الجناح اليساري أن مانديلا كان مرتاحاً جداً مع رجال الأعمال في الوقت الذي رحب فيه بهباتهم لمشاريعه المفضلة، في حين كان غير منتقد أبداً لسياساتهم؛ لكنه كان مقتنعاً أن على المؤتمر الوطني الإفريقي البقاء على علاقات ودية مع كبار رجال الأعمال إذا كان سَيَبْني اقتصاداً مزدهراً.

كان أكبر قلق للبيض بخصوص النشاط التجاري المفاجىء في جنوب إفريقية السوداء هو احتمال انتشار الفساد، الذي دمر العديد من الدول الإفريقية.

في الحقيقة لقد بدأ رجال الأعمال البيض بذلك إضافة إلى المتلقين السود، عندما سعى المقاولون الذين لا يرحمون وراء كسب العقود وتجاوز البيروقراطية عن طريق تقديم الرشاوى للوزراء والرسميين؛ لكن سلسلة من الفضائح كشفت سريعاً ضعف العديد من زعماء المؤتمر الوطني الإفريقي. صُدم مانديلا بسبب قابليتهم للرشوة. قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «جئنا إلى الحكومة مع حماسة مجموعة من الناس الذين كان يتوقع منهم إزالة الفساد في الحكومة، من المخيب جداً ملاحظة أن أشخاصنا بالذات الذين هم هناك لإزالة الفساد أصبحوا هم أنفسهم فاسدين». لكنه أصر على أنه ومبيكي كانا يفعلان كل شيء ممكن لاقتلاع المشكلة من جذورها. بما في ذلك تعيين قاض قوي جداً ـ ويليم هيث ـ للتحقيق في جميع ادعاءات الفساد في الحكومة: «لا نستطيع التصرف بموجب اتهامات لم يتم التحقيق بها». أصر على أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان مختلفاً تماماً عن الحكومات السابقة، التي كان يظهر فسادها سريعاً للعلن ـ والتي «حاولت تلميع كل شيء تحت السجادة».[9]

من الصحيح أن الحكومات الأفريقانية كانت أكثر قابلية للرشوة مما ظهر علنياً؛ وسياسة المؤتمر الوطني الإفريقي في التحويل مترافقة مع الحرية المتوفرة حديثاً للصحافة، كل ذلك أعطى انطباعاً غير عادل عن تدهور سريع في المقاييس. لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان متساهلاً جداً تجاه الوزراء الفاسدين، وبطيئاً جداً في شجب واقتلاع جذور الرشوة وانتهاكات السلطة. لا سيما في الحكومات المحلية، التي اعترف مانديلا بأنها كانت «كعب آخيل في الحكم الديموقراطي». كان مانديلا يتكلم بصراحة أكثر فأكثر، كما قال في شباط (فبراير) 1999:

> «من بين الكوادر الجديدة في المستويات المتنوعة للحكومة تجد أفراداً فاسدين ـ إن لم يكونوا أكثر من ذلك ـ مثل أولئك الذين وجدوهم في الحكومة. عندما يقوم زعيم في هيئة تشريعية محلية باستنزاف المصادر

المخصصة لتمويل خدمة يقوم بها المشرعون من أجل الناس؛ وعندما يقوم موظفو مؤسسة حكومية ـ وُجدوا لتعزيز أولئك الذين تم استبعادهم من قبل التمييز العنصري ـ بسلبها أموالها بالاحتيال ليغتنوا، آنذاك يجب أن نعترف أننا مجتمع مريض».[10]

خيب اعتناق المؤتمر الوطني الإفريقي لمجالات الأعمال الكبيرة العديد من اليساريين والمحاربين القدماء المسيحيين في الكفاح، الذين تطلعوا قدماً إلى بلد مثالي بلا حواجز طبقية أو جشع شخصي. بقي المثاليون والثوريون في الخارج ـ الذين تخيلوا جنوب إفريقية بأنها دنيا مثالية خاصة ـ بقوا أكثر تحرراً من الوهم؛ عبر الصحفي الأوسترالي المتشدد جون بيلجر عن غضبهم جميعاً في فيلم تلفازي عُرض في بريطانية وجنوب إفريقية في نيسان (أبريل) 1998. كتب بعد ذلك: «نخبة صغيرة ذات صلة بالمؤتمر الوطني الإفريقي انتهزت فرصة «السوق» في حين غرقت الأغلبية أكثر في البطالة والفقر».[11]

كسبت هجمات اليسار على عالم التجارة العالمي ذخيرة من الأزمات في «نمور» جنوب شرق آسية عام 1997. عندما انهارت اقتصادياتهم وعملاتهم بدت جنوب إفريقية غير متأثرة تأثراً ملفتاً، لكن الاحتياطات كانت منخفضة انخفاضاً خطيراً وبحلول أيار (مايو) 1998، وجد المتكهنون فرصة في المقامرة ضد العملة؛ خلال شهرين خسر الرند ربع قيمته مقابل الدولار الأمريكي، فارضاً تخفيضات جديدة على الحكومة ومشكلات خطيرة على الشركات التي أفرطت في القروض من الخارج. لا يمكن إلقاء اللوم في الانهيار على سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي بالدرجة الرئيسية: «إن خنق الرند هو عمل كلاسيكي في التنمر»، هذا ما علقت به الفايننشال تايمز. «والخطيئة الرئيسية للضحية هي ضعفها»[12] لكن ضعف الثقة بخصوص العملة ازداد عندما أعلن ثابو مبيكي في تموز (يوليو) 1998 أن حاكم مصرف الاحتياط، كريس ستالز، سيخلفه خلال عام تيتو مبوويني، وزير العمل، الذي كان في السابق في نقابات العمال، الذي

هو صديق قديم لمبيكي. شعر رجال الأعمال البيض بالقلق من أن مصرف الاحتياط سيتم تسييسه وسيصبح عرضة للفساد ـ على الرغم من أن المصرف قد تم التحقيق فيه لدعمه المصارف التي يملكها الأفريقانيون والتي هي قريبة من الـ Broeder bond، وكان مبوويني معروفاً باستقلاله الشديد. في الحقيقة تبع الإعلان بعض التجميع للدعم الدولي.[13]

دفع الاقتصاد الجنوب إفريقي ثمناً غالياً بسبب انعدام الثقة المتزايد في جميع الأسواق المنبثقة، لكنه نجا من الكوارث الأسوأ التي سيطرت على الدول الآسيوية. كان باستطاعة مانديلا الادعاء في شباط (فبراير) 1999: «أن جنوب إفريقية لم تمر بتجربة ما مر به الآخرون، لأن لدينا سياسات نقدية ومالية سنوية موثوقة ومعززة».[14]

مع ذلك كان لدى الجنوب إفريقيين السود بعض الأسباب ليتحرروا من الوهم بخصوص الرأسمالية العالمية بعد أن فشلت خمس سنوات في توفير المزيد من الاستثمار أو فرص العمل الجديدة، في حين ازدادت البطالة أكثر فأكثر. ربما كانت النكسات متوقعة بأن تعطي تشجيعاً جديداً لحلفاء المؤتمر الوطني الإفريقي من الشيوعيين. كما حدث، في حزيران (يونيو) 1998، بينما كان الرند ينخفض، كان الحزب الشيوعي يعقد مؤتمره العاشر، حيث دعي مانديلا إلى مخاطبته. وقبل أن يتحدث، كان الناشطون في مزاج استفزازي، مهاجمين سياسة الحكومة الاقتصادية، GEAR، وكان المندوبون يغنون «نحن لا نريد GEAR». «تلك الأغنية تجعل ضيفنا غاضباً» بهذا حذر نائب أمين سر الحزب ثينجيوي متينتسو. ألقى مانديلا بالطبع كلمة غاضبة، ملوحاً بأصبعه في وجه المستمعين. قال: «أنا سأضمن أن الحكومة ستستمر بتطبيق ما نعتقد أنه جيد لبلدنا». وأنذر الشيوعيين بأنهم إذا تركوا هياكل المؤتمر الوطني الإفريقي ـ فيجب أن يكونوا مدركين لمضامين ذلك. أصيب المندوبون بالذهول؛ اشتكى متينتسو من أن كلمة مانديلا كانت «غير مفوض بها»، وكان يأمل بأن مانديلا

«لن يمزق مؤتمره مثلما مزقتم اجتماعات الحزب الشيوعي في عقد الأربعين». لكن هجوم مانديلا كان مؤيداً كلياً في اليوم التالي من قبل ثابو مبيكي، الذي حذر المندوبين بعدم الاستهانة به بوصفه «تبجح رجل مسن». لم يستمر الشيوعيون في هجومهم: إذ كانوا مترددين في الانفصام عن المؤتمر الوطني الإفريقي، ولا سيما أن عدة أعضاء في الحزب كانوا في الحكومة.[15] بعد كل التخويفات بشأن الحزب الشيوعي منذ عودة ولادته عام 1990، أدرك أعضاؤه أنهم يعتمدون على المؤتمر الوطني الإفريقي في اقتسام السلطة.

بقي هناك خطر واضح من أن السود المعدمين، الذين لم يجنوا أية فوائد موعودة للتحرير أو الاستثمار أو إيجاد فرص العمل، ربما يتحدّون في النهاية زعامة المؤتمر الوطني الإفريقي المعتدلة ببرنامج متطرف محاط بالدعاية ضد البيض، لكن الشبح القديم للشيوعية الثورية، الذي لاح فوق مانديلا خلال الحرب الباردة، بدا وهو يفقد سحره.

ليس السياسيون هم الذين ظهروا الآن بل المجرمون؛ وهم يشكلون أكبر تهديد لسلام جنوب إفريقية مانديلا، فالعناوين الرئيسية المخيفة أعلنت عن الجرائم، والاغتصاب، وسرقات البنوك، وخطف السيارات، ووُصفت جوهانسبورغ بأنها عاصمة الجريمة في العالم، مشكلة رادعاً متعاظماً للاستثمارات الخارجية. دمرت موجات الجريمة دولاً أخرى منبثقة من الحكم الاستبدادي مثل روسيا والبرازيل، حيث استغل المجرمون الحريات الجديدة، وانساق الجنود غير المعبئين والذين يحملون البنادق وليس أمامهم فرص عمل، انساقوا جميعاً إلى الجريمة. لكن جنوب إفريقية كانت ضعيفة ضعفاً فذاً. عندما أطلق سراح مانديلا عام 1990 أدرك الخطر سريعاً. حذر في شباط (فبراير) 1991: «إننا نشهد اليوم موجة جريمة ذات أبعاد مخيفة، ومن شأنها إذا استمرت وتصاعدت أن ترجع جنوب إفريقية إلى كومة من الدمار»[16] بعد عام 1994،

تحركت النقابات الدولية وشبكات المخدرات تحركاً منهجياً عبر حدود البلاد النافذة، مستغلة حكومة لطيفة، ومستخدمة النظام المالي المعقد لغسل أموالها.[17] لم يكن هناك شيء جديد عن الجريمة في جوهانسبورغ السوداء. وكانت المناطق التي عرفها مانديلا في عقدي الأربعين والخمسين مليئة بالعصابات المسلحة، والمغتصبين واللصوص. كانت سوويتو في عقد الخمسين تحمل أعلى معدل جريمة في العالم؛ فواحد من كل ثلاثين من السكان السود في أقليم جوهانسبورغ كان يتوقع أن يتم قتله(*)؛ لكن الشرطة كانت منشغلة باعتقال السود لانتهاكات ضد قوانين المرور أكثر من ضمان الإدانات الكثيرة للجرائم الخطيرة، ولم تكد وسائل الإعلام البيضاء تلاحظ الجرائم أو السرقات السوداء. لم تصبح الجريمة معلناً عنها بتوسع إلا بعد أن بدأت تؤثر بفعالية على السكان البيض. فعندما تجرأ المجرمون على دخول الضواحي، هوجم أو قتل العديد من المواطنين البيض البارزين ورجال الأعمال الأجانب. خطف السيارات، وسرقة المنازل نبهت سريعاً الجميع إلى الخطر، وكان لدى السياح ورجال الأعمال الزائرين قصص عن السرقات والسيارات المسروقة. وفي بعض المناطق الريفية كان هناك فيض من جرائم القتل المخيفة للمزارعين البيض: فقد قتل أربعمئة منهم خلال أربع سنوات.[18]

تم إبلاغ مانديلا ـ بصفته رئيس البلاد ـ سريعاً بمخاوف البيض بشأن الجريمة من قبل جيرانه في هوتون، لكن المؤتمر الوطني الإفريقي كان بطيئاً في معالجة المشكلة. شرح وزير العدل دولا عمر قائلاً: «كنا نفكر دوماً بالحقوق الإنسانية ـ فكرنا بالقانون والنظام بوصفهما كانا جزءاً من نظام التمييز

(*) لقد كتبت هذا في مقال عن الجريمة في مجلة درَمْ Drum في تشرين الأول (أكتوبر) 1951. وناقشت المشكلة في كتابي درَمْ سنة 1956. ولقد أظهر تقرير العلاقات العرقية في جنوب إفريقية سنة 1957 ـ 1958 أن عدد الإدانات بين الإفريقيين سنة 1956 بلغت خمس مجموع السكان الأفارقة، وأن 4,7٪ من هذه الإدانات هي إدانات بجرائم خطيرة.

العنصري»[19] كان مانديلا متردداً بشأن التدخل مع وزيره لشؤون الأمن سيدني موفامادي، لكنه عين عام 1997 صناعياً بارزاً هو ميبركان لإعادة تنظيم موارد الشرطة. حذر (كان) من أن العملية ستكون بطيئة، «مثل مغازلة فيل»[20] بحلول أيلول (سبتمبر) 1998 اعتقد أن «الوضع توقف عن التدهور». وكان واثقاً من أن مستويات مقبولة للجريمة سيتم التوصل إليها خلال ثلاثة أو أربعة أعوام.[21] في الحقيقة كان الرقم الإجمالي للجرائم ينخفض انخفاضاً ملحوظاً وباستمرار منذ انتخاب حكومة مانديلا عام 1994، لكن عدد السرقات الخطيرة ازداد فيما بعد[*]. كانت المشكلة الرئيسية هي الشرطة بقدر ما كانت المجرمين: كان رجال الشرطة فاسدين وغير أكفاء، مدربين على ملاحقة الأعداء السياسيين عن طريق المخبرين والتعذيب أكثر من ملاحقة المجرمين بصبر. وكانوا موزعين توزيعاً سيئاً، ولم يكن يرى منهم في الشوارع إلا القليل، وكان يُدفع لهم القليل، وكانت معنوياتهم ضعيفة. خلال أربع سنوات مند عام 1994 تم قتل 874 رجل شرطة، في حين أن ثلاثمئة منهم انتحروا. عندما زار السير بول كوندون، مفوض شرطة العاصمة في لندن جنوب إفريقية في تشرين الأول (أكتوبر) 1998 اعتقد أن: «معدل القتل والعنف المرتكبين ضد الشرطة لم يسبق له مثيل في العالم».[22] ترك ربع الشرطة الخدمة في أربع سنوات.[23]

لم تكن موجة الجريمة تشكل تحدياً للشرطة فحسب، بل أيضاً لسياسة مانديلا التحررية القائمة على حقوق الإنسان؛ وقد نتج عنها سريعاً نداء للعودة إلى عقوبة الموت. من الطرفين البيض والسود (بمن فيهم زوجته السابقة). ومانديلا الذي له ذكرياته الحادة الخاصة عن عقوبة الموت، كان ضدها كلياً، إذ رأى فيها «انعكاساً لغريزة الحيوان الباقية في البشر». وأصر على أن ما يردع المجرم، ليس عقوبة الموت، بل معرفته «أنني إذا ارتكبت عملاً خاطئاً فإنني سأنتهي إلى السجن». واعتقد أن الأقلية البيضاء لديها فكرة في داخل أذهانها «بأن عقوبة الموت سيتم استخدامها ضد السود، وليس ضد البيض في

الواقع». [24] رفض أي ضغط لإعادتها، إذ أكد في شباط (فبراير) 1999 قائلاً: «إن هذه الحكومة ليست على وشك الاشتراك مع الجوقة التي تصرخ مطالبة بعقوبة الموت أو بنقض مكاسبنا في مجال حقوق الإنسان». [25]

بينما استمرت موجة الجريمة، تم النظر إليها بوصفها السبب الرئيسي للهجرة المتزايدة للبيض من جنوب إفريقية، وبيَّن استقصاء للرأي عام 1998 أن 96٪ من المهاجرين قالوا إن الجريمة هي سبب مغادرتهم، في حين أظهر استفتاء لاحق أن 74٪ من البيض المحنكين قالوا إنهم على استعداد لترك جنوب إفريقية بسبب الجريمة. [26] كان من الصعب جداً تحديد عدد المهاجرين لأن الكثيرين غادروا البلاد سياحاً، لكنهم لم يعودوا. وحسب الأرقام الرسمية في مكتب الإحصاء، فإن حوالي عشرة آلاف فقط تركوا جنوب إفريقية عام 1997؛ لكن الرقم الحقيقي كان أكبر بالتأكيد، وقد شمل الأطباء، والمحاسبين، وخبراء الحاسوب، الذين كانت هناك حاجة ماسة لمهاراتهم. [27]

رد مانديلا الذي كان يحث البيض دوماً على البقاء، رد بغضب على شكاوى المهاجرين المحتملين؛ في أيلول (سبتمبر) 1998 ألقى كلمة في موريشيوس موحياً أن أولئك الذين غادروا هم جبناء: «لقد تم فرز الجنوب إفريقيين الحقيقيين»؛ وادعى أن «الخوف بشأن الجريمة إنما هو هاجس البيض بالدرجة الأولى، حيث أثارته الصحافة التي يملكها البيض» [28] وافق بعض الإفريقيين البارزين على أن المهاجرين البيض أظهروا فقداناً للوطنية: «إذا كان خيارهم الأول عندما ووجهوا بوضع صعب هو مغادرة البلاد» قال ميرفي موروبي: «فماذا يعني لنا ذلك بشأن التضحية التي قمنا بها؟» [29] لكن الكثيرين من البيض كانوا ساخطين: اتهم طوني ليون من الحزب الديموقراطي مانديلا بأنه مسبب للخلاف والشقاق عرقياً، وطلب منه أن (يسحب كلامه). وشرحت أرملة الروائي الليبرالي آلان باتون التي كانت تعاني من سرقات مخيفة، شرحت سبب عودتها إلى إنكلترة في مقالة في الصنداي تايمز اللندنية بعنوان «اترك البلد

المحبوب»: «لقد أشار الرئيس مانديلا إلينا نحن الذين نغادر بوصفنا «جبناء»، وقال إن البلد يمكنها العيش بلا وجودنا. فليكن... إننا نغادر لأن الجريمة تهتاج عبر البلاد». لكن ديفيد بن باتون ناقض علناً ما قالته زوجة أبيه حول الصورة القذرة المضللة»، وألقى اللوم على حكومة التمييز العنصري.[30] بقي مانديلا فاقداً للصبر إزاء هاجس الجريمة في الصحف المحلية للجناح اليميني. قال في كانون الثاني (يناير) 1999: «الفكرة هي تخويف المستثمرين حتى لا يأتوا، إن هذا شيء متعمد مطلقاً».[31]

مما لا شك فيه أن احتجاجات البيض حول الجريمة أوصلت جميع الخلافات بين العروق إلى السطح: فهم لا يكادون يلمحون إلى السود الذين كانوا الأغلبية الساحقة للضحايا؛ وبعض الشكاوى بدت وكأنها تكرار لقصص الرعب لسني التمييز العنصري عن الحشود السوداء التي تسحق معاقل الحضارة البيضاء. وبالنسبة إلى مانديلا كما بالنسبة إلى الأغلبية الإفريقية، فإن مشكلة موجة الجريمة كانت متشابكة مع المشكلة الأساسية في عملية تحويل البلاد، وتعزيز الشرطة، والقوة الدفاعية، مع التزام مشترك وشعور بالوطنية، مما يعطي قيمة متساوية لحياة السود والبيض.

كان الأمن الأساسي للبلاد ما زال يعتمد على القوات المسلحة. بقي مانديلا قلقاً حول مدى إخلاص بعض الأفريقانيين في الجيش. أظهرت السرقات الخطيرة للأسلحة والمعدات في المستودعات العسكرية أنها أعمال من الداخل؛ كما أن موجة منظمة تنظيماً جيداً لسرقات البنوك والـ hiests زادت الشكوك بأن الجيش متورط في ذلك، مع بعض الفدائيين السابقين من الـ MK. قال لي مانديلا مطلع عام 1998: «لسنا ناجين من الخطر، لأن بعض الجنرالات الذين قادوا الجيش يقفون وراء النقابات الإجرامية».[32] بعد شهرين حذر ثابو مبيكي بأن هناك «أعداء للتغيير ما زالوا بيننا... بعض التنظيمات التي أقامتها الحكومة السابقة لتدمير الحركة بقيت سليمة دون أذى».[33] لم يستطع مانديلا

إعطاء وسائل الإعلام الدليل على تلك الادعاءات. لكن قصة غريبة كانت تتكشف من وراء الستار.

في 5 شباط (فبراير) 1998 تسلم مانديلا تقريراً استخبارياً من قبل الجنرال ميرينغ، قائد الدفاع، متجاوزاً وزير الدفاع جوي موديس. أوصى التقرير بأن الضباط السود الكبار كانوا غير مؤهلين للقيادة، بمن فيهم سايفو نياندا، المقاتل السابق من الـ MK الذي كان من المتوقع أن يخلف ميرينغ في السنة التالية؛ ووصف كيف أن مجموعة من الزعماء السود بمن فيهم بانتو هولوميزا ووبني مانديلا كانوا يتآمرون مع روبيرت ماكبرايد، المخرب السابق الذي حكم عليه بالموت في عهد حكومة التمييز العنصري، لكن تم توظيفه منذ ذلك الوقت في وزارة الدفاع. ادعى التقرير أن المتآمرين كانوا يخططون لتشجيع الفوضى من أجل الاستيلاء على السلطة بعد الانتخابات التالية عام 1999. كان مانديلا مرتاباً جداً بخصوص التقرير، ولا سيما أنه أشار إلى جنود سود من حركة التحرير، وارتاب بأنه تضليل من الضباط القدماء الذين كانوا يدافعون عن الوضع الراهن.[34] لكنه انتظر فرصة ملائمة.

بعد ذلك بستة أسابيع تم اعتقال روبيرت ماكبرايد في موزامبيق واتهم بتهريب الأسلحة والذخائر: ادعت صفحة الاتهام أنه كان متورطاً بتزويد المتآمرين بمن فيهم ويني ماندیدلا، بالقنابل والمسدسات والبنادق، قبل ذلك بثمانية عشر شهراً.[35] رفضت الحكومة التعليق في البداية، معلنة أنها لن تغذي «أصحاب النوايا السيئة والمسيئين». حقيقة اعتقد مانديلا في البداية أن اعتقال ماكبرايد يعطي مصداقية لتقرير ميرينغ، ثم بدأ يشك بأن ماكبرايد قد لفقت تهمة ضده.[36]

ثم في 27 آذار (مارس)، كشف مانديلا أنه كان قد تلقى التقرير قبل سبعة أسابيع، وأن التقرير يدور حول «نشاطات منظمة بهدف الإطاحة بالحكومة». طلب من ثلاثة قضاة، وعلى رأسهم رئيس المحكمة إسماعيل محمد، التحقيق حول كيفية إعداد التقرير والتثبت من صحته. قرر القضاة بعد استجواب ميرينغ

وآخرين، أن التقرير «كان بلا أساس من الصحة»، وأنه كان قائماً على مصدر وحيد غير موثوق؛ جاسوس تم اعتقاله مع ماكبرايد، وأنه لم يتم اختبار صحته أبداً.[37] طلب الجنرال ميرينغ إحالته مبكراً إلى التقاعد، حيث وافق مانديلا على أن ذلك «مناسب ومشرّف»، وبعد ذلك بوقت قصير، عين مانديلا الجنرال نياندا خليفة له.

اعتقد بعض الزملاء في المؤتمر الوطني الإفريقي، ممن لم يثقوا بتاتاً بميرينغ، اعتقدوا أنه كان على مانديلا التحرك ضده في وقت أبكر بكثير. لكن مانديلا عالج هذه الأزمة بدهاء وعلى نحو مميز. فبتركه القرار للقانون تجنب صداماً سياسياً مباشراً مع الحرس القديم الأفريقاني، وعن طريق تشويه سمعتهم فإنه سهّل مجيء القادة السود بدلاً منهم. كان انتقالاً جديراً بالإعجاب؛ قبل ثماني سنوات، كان نياندا مسؤولاً عن القوة العسكرية السرية، عملية فيولا؛ وهو الآن يرأس جميع القوات الدفاعية لجنوب إفريقية.

بقيت هناك تهديدات عسكرية خطيرة قائمة من دوائر أخرى. القتل السياسي انخفض بشدة ـ من 3794 في قمة عام 1993 إلى 470 عام 1997.[38] لكن كانت هناك تحالفات مشؤومة بين المجرمين، والسياسيين والمجموعات الدينية، وظل مانديلا يشك بأن قوة ثالثة متبقية كانت تعمل في بعض المناطق مزعزعة استقرار البلاد عن طريق تسليح القادة العسكريين المحليين، وبالتعاون مع مجموعات إجرامية تستطيع تمويلها. خلال عام 1998 أصبحت البلدة الريفية لريتشموند في كوازولو ـ ناتال، التي كان لها تاريخ طويل في النزاعات الحزبية، أصبحت ميدان معركة بين القادة العسكريين المتنافسين؛ وانفجر الاضطراب مجدداً في كانون الثاني (يناير) 1999. عندما أطلقت النار على القائد العسكري الرديء السمعة سيفيسو نكابنده في وسط النهار، وتبع ذلك سريعاً قتل أحد عشر شخصاً انتقاماً لمقتله. كان نكابنده أمين سر حزب بانتو هولوميزا ـ الحركة الديموقراطية الموحدة ـ وألقي اللوم في اغتياله على المؤتمر الوطني الإفريقي،

الذي كان ينتمي إليه سابقاً، لكن مانديلا ارتاب بأن «القوة الثالثة» كانت مهندسة القتل لزعزعة استقرار الإقليم. وأثار المزيد من جرائم قتل زعماء الحركة الديموقراطية الموحدة والمؤتمر الوطني الإفريقي الكاب الغربي في آذار (مارس) عام 1999 أثار شكوكاً مماثلة.[39] من المؤكد أن تشجيع عنف «الأسود على الأسود» في ظل الحكومة السابقة أوجد تحالفات مهلكة بين المجرمين والسياسيين كان من الصعب طمسها.

كانت جنوب إفريقية ما تزال بعيدة عن أن تكون في حالة سلام، بالمقارنة مع معظم الدول الأوروبية أو الأمريكية الشمالية. لكن بالمقارنة مع تكهنات حمامات الدم قبل خمس سنوات، كما يتذكر مانديلا في معظم الأحيان، فإن الانتقال من حكم الأقلية إلى حكم الأغلبية كان غير مؤلم نسبياً.

بعد كل مجادلاته الحادة، ما زال بإمكان مانديلا الارتقاء فوق سياسات الحزب، بوصفه أباً لديموقراطية بلاده. في 29 آذار (مارس) 1999، ألقى كلمته الوداعية أمام المجلس النيابي، قبل أن ينفض استعداداً للانتخابات في 2 حزيران (يونيو). صوّر نفسه واحداً من الجيل «الذي كان تحقيق الديموقراطية بالنسبة إليه هو التحدي الواضح»، وتذكر كيف أن الجنوب إفريقيين «اختاروا أخيراً طريقاً شرعياً عميقاً لثورتهم». وانتهى إلى القول: «المسيرة الطويلة مستمرة».[40] امتدحه ثابو مبيكي بوصفه «أقرب وألمع نجم ليهدينا في طريقنا».

لكن مناوئي مانديلا تسابقوا أيضاً للثناء عليه. دعاه مارتينوس فان شولكويك خليفة دوكليرك زعيماً للحزب الوطني، دعاه بأنه «رئيس كل شخص»، ووعد بأن يكون الوطنيون شركاء في بناء الدولة الجديدة. قال كونستاند فيلجيون من جبهة الحرية إن «مانديلا تصرف دوماً بمثابة قائد بالنسبة إليّ». رأى طوني ليون من الحزب الديموقراطي وهو أكبر منتقدي مانديلا فظاظة، رأى فيه زعيماً مثل غاندي أو الدالاي لاما: «مولود بنوع خاص من السمو، حيث بدا أنه فوق سياسات زمنه».

41

الصورة والحقيقة

كم هو مستمر وعميق إنجاز مانديلا، وراء صورته المتألقة؟ لا يمكن لكاتب سيرة معاصر أن يأمل بتقديم حكم تاريخي نهائي: باستطاعته فقط محاولة استغلال معظم المصادر المتوفرة، وتصوير موضوعه مقابل خلفية زمنه بالذات. من السهل المبالغة بتقدير أهمية بطل حي ذي جاذبية عالمية، على مسرح يمكن لأضوائه البراقة أن تتلاشى سريعاً بعد ذلك. شهدت إفريقية العديد من المخلّصين الذين عاشوا فترات قصيرة، والذين تمت الإطاحة بهم فيما بعد من قبل قواعدهم بالذات، في حين أن مكانة مانديلا من الأصعب تقييمها عندما يشعر العالم بحاجة ماسة إلى رجال عظام يعجب بهم.

مانديلا، مثل معظم الزعماء العظام، كان دوماً سيد الصور الذي يعرف كيف يعرض نفسه، سواء عضواً في حملة تحدي، أو «عشبة سوداء» [ذات أزهار قرمزية أو أرجوانية أو بيضاء تنطبق حين تسوء الأحوال الجوية]، أو زعيم فدائيين. ومناسباته العظيمة، مثل كلمته المطولة في محاكمة ريفونية أو تدشينه رئيساً ـ كانت شبيهة بالأوبرا إلى حد كبير. ووراء الستار كان يدين بالكثير لزملاء متواضعين؛ تحرير شعبه، كما أشار هو نفسه، تحقق بينما كان في السجن. إذاً إلى أي مدى ترتبط الصورة بحقيقة زعامة مانديلا؟

من المؤكد أن عليه تأسيس أسطورته بالذات جزءاً من تحديه لنظام حكم

عرقي؛ إذ كان يواجه أساطير قوية ـ عن مركب النقص عند السود، والقدرة التي لا تقهر للبيض. وعدم الانسجام بين العروق ـ كان عليه تقديم الثقة لشعب كتب عليه الاستسلام، وتجسيد الكرامة الإفريقية واحترام الذات. وقد فعل ذلك وهو يرتدي البناش [حزمة زينية من ريش إلخ. . . تكون على خوذة]؛ عندما واجه محكمة بيضاء بكاملها، ودعمه بكل أبهة القانون، لقد ارتدى عمداً اللباس القبلي: «أحمل على ظهري تاريخ وثقافة وتراث شعبي».[1]

بهذا النوع من الاستعراض المسرحي بدا مانديلا في البداية وهو يتبع أسلوب الزعماء الوطنيين الإفريقيين الآخرين لما بعد الحرب مثل كوامي نكروما أو جومو كينياتا، الذين وضعوا في السجن قبل استلامهم السلطة ببريق التألق والفخر، وقدموا أنفسهم بوصفهم المخلّصين أو الآباء لشعبهم. كان عقد الخمسين هو سنوات التفاؤل المتهور والأوهام، قبل أن يتوجب على إفريقية مواجهة الحقائق الصعبة في الحكومة والاقتصاديات؛ وكان العديد من المراقبين الأجانب وكذلك الجنوب إفريقيين السود كانوا قد توقعوا انهيار حكومة التمييز العنصري سريعاً في وجه التنديد الأخلاقي والتراجع السائد للامبراطوريات الأوربية.

لزم مانديلا، مثل زملائه، بعض الوقت لإدراك أنه يواجه نضالاً اختبارياً أكبر بكثير من سابقيه، ومناوئين أشد قسوة من المستعمرين البريطانيين إلى الشمال. لم يكن مضطهدوه الأفريقانيون منفيين مؤقتين، بل مالكي أرض راسخين أنشؤوا بنياناً عسكرياً واقتصادياً قوياً، بدعم من الـ Cold Worriors الغربيين، وكانوا مصممين على اقتلاع المعارضة السوداء. وبإدراك متأخر لم يكن مانديلا قائداً عسكرياً واقعياً جداً؛ فقد قلل من أهمية قوة عدوه تقليلاً خطيراً، كما أوضحت كتاباته السياسية، وارتكب أخطاء غير مدروسة أدت إلى اعتقاله بالذات. لكن قلة براعته كانت جزءاً من التفاؤل الزائف لذلك الزمن.

حكم بعض الناقدين الحديثين على شخصية مانديلا في البداية بقسوة أكبر. فقد اتهمه المعلق التلفازي البريطاني برايان والدن، اتهمه عام 1998 بأنه انخدع في البداية بالشيوعيين الذين أقام تحالفاً شخصياً معهم، ثم شرع بحملة عسكرية «غير بارعة وعقيمة لدرجة لا تصدق»، وقاد «أكثر جيوش الفدائيين انعداماً في الفائدة والكفاءة في العالم». قال والدن إن مانديلا كانت تنقصه قسوة الزعيم العظيم مثل تشرشل، وأن التمييز العنصري تم إسقاطه في النهاية ليس من قبل المؤتمر الوطني الإفريقي، بل من قِبَل ملوك المال الأفريقانيين الذين أدركوا أنه مسيء بالنسبة لمجالات الأعمال.[2]

هذا الانتقاد لا يستند إلى دليل تاريخي. فمانديلا، مثل معظم السياسيين الدهاة، كان دوماً عملياً أكثر من مظهره. احتاج إلى الشيوعيين في وقت ما عندما كانوا الحلفاء الوحيدين المتوفرين، وعندما ابتعد الليبراليون البيض والحكومات الغربية ـ خوفاً ـ عن المؤتمر الوطني الإفريقي. كانت الرسائل السرية للديبلوماسيين البريطانيين تظهر كيف كان أعضاء المؤتمر يتم إفزاعهم وخداعهم من قبل حكومات التمييز العنصري لمشاركتها في حملتها ضد الشيوعيين، في حين أن مانديلا استخدم في النهاية الشيوعيين كما تكهن أكثر مما استخدموه.

لم يستطع مانديلا أن يجنب نفسه الالتزام بالكفاح المسلح من غير أن يفقد دعم السود، عندما كان كل طريق للاحتجاج مغلقاً إغلاقاً تاماً. لكنه لم يؤمن أبداً أنه يمكن للاحتجاج فقط أن يحرر جنوب إفريقية. عرف أن حملة عسكرية لا ترحم حقاً من الإرهاب المديني يمكن لها أن تدمر بلاده كما كادت تدمر الجزائر؛ وعندما رأى ـ من سجنه ـ جنوب إفريقية وهي تواجه الفوضى. فكر بالتفاوض؛ في حين تطلع إلى الضغط الدولي والعقوبات للإطاحة بالتمييز العنصري، وهذا ما حصل. إن الاعتقاد بأن السياسيين ورجال الأعمال البيض

سيضعون حداً للتمييز العنصري بلا تهديد بالعنف لا تثبته الحقائق. فبسبب العنف فقط ـ كما أدرك أوليفر تامبو ـ أصبح رجال الأعمال قلقون جداً: «والدعاية المسلحة» المحدودة جداً التي تدعمها العقوبات، كانت فعالة بلا مواجهة مسلحة كبيرة. وقاوم مانديلا طلب المناضلين الاستيلاء على السلطة. فانعدام القسوة العسكرية لديه كان مفتاح الانتقال إلى الديموقراطية بلا حمام دم.

من المؤكد أن مانديلا كانت له وجهة نظر مبالغة في التفاؤل بخصوص الكفاح قبل أن يذهب إلى السجن عام 1962؛ لكن محنته في السجن حولته إلى نوع الزعيم الأكثر تأملاً وتأثيراً، كما حاول إظهاره هذا الكتاب. كان منقطعاً عن جماهير المستمعين، والصور العامة، والتلفاز وأجهزة التصوير، حيث اقتصر على زعامة رجل ـ إلى رجل، وإلى الأساسيات في العلاقات البشرية، بعيداً عن مكائد السلطة. تعلم عن الحساسيات الإنسانية وكيفية معالجة المخاوف وفقدان الأمان عند الآخرين، بما في ذلك سجانوه الأفريقانيون. كان قد أصبح ذا حساسية نتيجة شعوره الخاص بالذنب، بخصوص أسرته وأصدقائه الذين استخدمهم خلال مسيرته السياسية، لكنه كان يكسب ثقة أعمق، ويشعر أنه «أنا سيد مصيري» مثل بطل كلاسيكي. وعلى العكس من معظم السياسيين، في أواسط مهنتهم، كان لديه الوقت الكافي ليصبح مفكراً ومتسائلاً بدرجة أكبر، حيث كان يقرأ السير الذاتية والتاريخ. وقد عمّق اهتمامه بالقانون، حيث أدرك ـ رغم أن القانون هو الذي وضعه في السجن ـ أنه يوفر الأساس الوحيد لتسوية دائمة؛ القانون وليس الحرب هو أساس آماله بالنسبة إلى مستقبل بلاده.

أظهرت مقالات وكتابات مانديلا غير المنشورة من السجن ـ في حين كان يراقب المسرح الجنوب إفريقي كمتفرج ـ أظهرت عمقاً ثقافياً وأصالة أكثر بكثير من رواسمه (كليشيهاته) السابقة المعادية للاستعمار؛ وكان ملحاً في الحصول

على الحقيقة مهما كان ذلك لا يدعو إلى الراحة. ظل يتفهم أهمية صورته بالذات عندما كتب سيرة حياته في السجن ـ آملاً في أن تلهم الآخرين ـ على الرغم من أنها منعت من قبل زملائه في الخارج. رأى صورته الأيقونية بالذات وهي تتعزز في شتى أنحاء العالم، بعيداً عن نفسه. لكنه لم ينخدع بها، وكان مدركاً جداً لمخاطر عبادة الشخصية التي أضلت دولاً إفريقية أخرى. تحدث بدرجة أقل عن «أنا» وبدرجة أكبر عن «نحن»، «وكان مصمماً على أن يُنظر إليه كإنسان عادي».[3]

إن ثبات ومرونة سجناء روبن آيلاند كانتا إنجازاً عاماً. وربما لم يكن مانديلا ليحصل على قوته بلا زملائه. فقد عزز أصدقاؤه المقربون أمثال وولتر سيسولو وأحمد كاثرادا عززوا شجاعته والتزامه بالمصالحة والصفح. لكن زعامته الشخصية كانت الحاسمة في النهاية. عندما اتخذ أخطر قراراته ـ اقتراح المحادثات مع الحكومة ـ اتخذه لوحده. وربما كان جوي سلوفو محقاً في الحكم عندما قال: «بلا مانديلا فإن تاريخ جنوب إفريقية كان سيتخذ منحى آخر».[4] لقد ظهر ميله للاسترضاء من تطوره الشخصي؛ فقد تعلم كيف يسيطر على عدوانيته، وأن يفكر «بعقله وليس بدمه»، وأن يسوق طاقته نحو هدف نصر عن طريق التفاوض. أصبح سياسياً هائلاً بدرجة أكبر عن طريق إخضاع عواطفه ومشاعره لهدفه المركزي؛ حتى إن زميله المقرب كاثرادا وجد أنه غير ممكن الوصول إلى داخله، لقد أصبح «فولاذياً وقاسياً»، كما لاحظ ماك ماهاراج، وكانت قسوته الضمنية أساسية لنجاح المفاوضات التي تلت.

لكن مانديلا الذي برز خارج السجن فاجأ معظم الناس الذين عرفوه في السابق (وأنا من بينهم)، ليس بدهائه السياسي بقدر ما هو بإنسانيته وبساطته. كان قد فقد غطرسته وموقفه الدفاعي عندما أصبح أكثر ثقة بإمكاناته، وبدا مرتاحاً مع نفسه، مع دفء وروح مرحة أعطياه ألفة فورية مع جميع أنواع الناس

ـ وبخاصة الأطفال ـ حيث كانت إلفته أكثر جاذبية بالتناقض مع الصور الفوق بشرية التي كانت له في العالم الخارجي. كان يُظهر أحياناً ما يقارب براءة الطفولة عندما كان يصر على التحدث بما في ذهنه. لم يظهر أية علائم للعيوب المألوفة للسلطة: الغرور، التباهي، جنون الارتياب، التي أصابت العديد من الزعماء في العالم النامي. جاءت أخطاؤه من الاتجاه المعاكس؛ من كونه يثق جداً بالآخرين، ويرى الأفضل في كل شخص، مهما كان لا يستحق ذلك. لكن كان بمقدوره أيضاً استخراج الأفضل من أشخاص لا يتوقع منهم ذلك، وقدرته على تحويل أعدائه السابقين برهنت على أنها أساسية في سياسته في المصالحة.

كان مانديلا يحب تذكيري بقوله: «أنا لست ملاكاً». ووراء تصرفاته في الصفح والشهامة، بقي سياسياً حتى رؤوس أصابعه. إذ ما زال لديه شعور رائع بالاستعراض والتوقيت، وكان بإمكانه الظهور بمظهر الزعيم ما بعد العصري المطلق، سيد التخيلات والآراء، وكان يظهر بقميص رياضي من نوع Spring bolk في ملعب الروكبي، أو أنه يتفوق على دوكليرك بالإمساك بيده في نهاية نقاش تلفازي. لقد عرف بالغريزة كيف يجد متسعاً، أو يتملق صحفياً؛ كان سيد انتهاز فرصة التصوير، والصوت المؤثر، والمصافحة الحميمة، والابتسامة الجذلة. كان يمزج السياسة بعالم الفن بحماسة كبيرة، مثلما فضل فتيات التوابل أو مايكل جاكسون على رئيس دولة زائر.

لكن كانت له سلطة أخلاقية، واهتمام بالحقيقة، لم ينافسه فيهما إلا القلائل، وهو صخرة استمرارية في عالم غير مستمر. خلال عقوده الثلاثة في السجن، بقي صادقاً مع مبادئه ومعتقداته في وجه كل الضغوط والمغريات. في وقت كان فيه السياسيون في معظم الدول يصبحون أكثر انتهازية وقابلية للتغيير، وكان الأبطال والقضايا العظيمة يتلاشون في التاريخ. كان على حق في قضية

واحدة كبيرة عندما كان الكثيرون على خطأ. كان لثباته أو إصراره جانب سلبي: إذ ربما كان عنيداً جداً في الاعتقاد أنه على حق بخصوص كل شيء، في حين كان مخلصاً أحياناً لحلفاء مشكوك بهم، وهؤلاء سببوا له الكثير من الانتقاد. لكن وفاءه لمبادئه الخاصة وأصدقائه أعطاه ميزة على زعماء العالم الآخرين ممن نسوا ما كانوا يناضلون من أجله.

لم يكن مانديلا عصرياً جداً بقدر ما كان يعيش فيما قبل عصره. فهو ينتمي إلى التقليد القبلي الأكثر قدماً حيث تربى فيه، تقليد الزعيم الذي يمثل شعبه، ويمكنه الوصول إليه. ما زال يتذكر الفتى مانديلا الجالس عند قدمي وصيه الحاكم، حيث كان يراقبه وهو يسمع الانتقادات الحادة لرجال قبيلته، ويسوي نزاعاتهم بكياسة دقيقة، جاعلاً الجميع يشعرون أنهم جزء من المجتمع ذاته. بقيت أصوله الريفية مقوماً حكماً في تكوين شخصيته: كان من الملاحظ أنه كتب أفضل ما كتب عن منطقته الأم. وما زال يرى نفسه بوصفه «الفتى الريفي» الذي لديه شعور بانتمائه بالذات و ubuntu، وبقيمه الريفية الخاصة؛ ليس من المصادفة أن تنتهي حياته كما كانت قد بدأت في قريته كونو القبلية. لكن مانديلا لم يكن فتى ريفياً عادياً: بقي ابن زعيم. وأسلوبه الأميري ربما يتماشى مع الجنوب إفريقيين البيض كما هو مع السود. كما أنه ساعد في تطمين الملكة في بريطانية. كان بإمكانه التذكير بعصر سابق عندما كان الملوك يتطابقون مع شعوبهم ولم يكن هناك تمييز بين شخصيتَيْ الملك الحقيقية والخيالية. كان لغرائز مانديلا الملكية بعض السلبيات في إدارة دولة صناعية معقدة تحدق بها مشكلات اقتصادية، وبحاجة ماسة لإدارة حديثة. كان صريحاً إلى درجة رهيبة بشأن أخطاء حكومته، لكنه بدا في غير عجلة لإصلاحها. وفي ابتعاده عن البيروقراطيات وتعقيدات الديبلوماسية وعن الاقتصاديين والمديرين، بدا مانديلا أحياناً وهو ينتمي إلى القرن التاسع عشر أكثر من انتمائه إلى القرن

الواحد والعشرين. لكن شعوره بالزعامة تجاوز القرون، ومثّل بلداً يتطلع نحو المستقبل.

في الحقيقة، ولمعظم فترة رئاسته كما قال في معظم الأحيان، فإن مانديلا رأى نفسه بمثابة رئيس دولة شعائري أكثر من رئيس تنفيذي. كان أقرب إلى الملك الدستوري، مقدماً نفسه بشعور قوي بالواجب تجاه مبادىء ديموقراطية الحزب عبر الوزارة أو الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الإفريقي. لم يكن مطيعاً دائماً، وكان يتدخل في معظم الأحيان، مثل الملكة ڤيكتوريا أكثر من أن يكون مثل الملكة إليزابيث الثانية؛ وكان ممزقاً في أحوال كثيرة بين كونه الديموقراطي والأوتوقراطي. لكنه كان ملتزماً كلياً بالديموقراطية، وكان مصمماً ـ على العكس من معظم الزعماء الإفريقيين ـ كان مصمماً على تعيين خلف مُنتخب ديموقراطياً؛ وكما شرح، فقد سمح لنائبه ثابو مبيكي بأن يتم اختياره من قبل زعماء الحزب وحلفائهم، من غير أن يكشف عما يفضله هو؛ وكان مبيكي بالنتيجة يدير البلاد خلال معظم رئاسة مانديلا. وبخصوص بعض القضايا الخطيرة، ولا سيما حول الجريمة والفساد، انتُقد مانديلا بشدة لعدم تدخله تدخلاً حاسماً أكثر. لكن كان هناك تناقض مبيت بين الأدوار المتوقعة منه: استخدام سلطته الشخصية إلى الحد الأقصى، ولكن أيضاً تأسيس تقليد ديموقراطي لا يستطيع أي زعيم بمفرده أن يسيطر عليه.

بوصفه رئيس دولة رأى أولوية واضحة: دمج الشعب الجديد، وجعله يتماسك بعضه مع بعض، وتحويله إلى ديموقراطية متعددة العروق يعيش فيها جميع المواطنين في سلام. ولقد عرف أنه بلا ذلك السلام فإن آلية الحكومة والاقتصاد ستكون عديمة الفائدة؛ وقد قدمت الحروب الأهلية الرهيبة التي كانت تندلع مجدداً في دول مجاورة مثل أنغولا والكونغو، قدمت إنذارات مخيفة. كان مناسباً مناسبة فذة لمهمة بناء ـ الشعب بعد رحلته غير العادية عبر بلاده.

كان بإمكانه الوصول شخصياً إلى مجتمعات مختلفة جداً، كان قد تحرك عبرها خلال عقوده الثمانية من العمر: إلى رجال القبائل الريفيين، وعمال المناجم، وسكان المدن المخادعين والوطنيين الإفريقيين ومقاتلي الحرية والرفاق والهنود والبيض، والسجانين الأفريقانيين. ورجال الأعمال الدوليين أو رؤساء الدول.

تعلم مانديلا الطريق الصعب بخصوص مصاعب المصالحات وشهد كيف أن البلاد تجنبت ـ بشق النفس ـ حمام دم. لم يؤمن ـ مثل الكثيرين من المثاليين اليساريين ـ بأن الناس من عروق مختلفة سيتخلون فوراً عن ولاءاتهم الطائفية ليصبحوا أعضاء في مجتمع عديم اللون وغير عرقي. لكنه تقدم من وطنيته الإفريقية البحتة السابقة ليعمل عن كثب مع زملاء بيض وهنود ـ وليثق بهم كلياً؛ وكان قد رأى في السجن كيف يمكن للأفريقانيين أن يتغيروا بنسبة 180 درجة كما شرح، وكيف أن الأشخاص ذاتهم الذين لم يكونوا يتحملون لمس بشرة سوداء، كيف كان يمكن تطمينهم بمصافحة اليد؛ ومع كل هذه التجربة الشخصية كان قادراً مقدرة فذة على إقامة «وزارة قوس قزح» التي كانت واحدة من بين القلائل من الحكومات المتعددة العروق، المتأصلة في العالم؛ في حين لم يعط أي تلميح عن أفضلياته العرقية الخاصة.

أصبحت قصة حياة مانديلا مركزية بالنسبة إلى قصة شعبه. لقد ترعرع مع قصص إذلال قبيلته بالذات، قبل أن تتأسس دولة جنوب إفريقية قبل ثماني سنوات من مولده ـ وهي الاتحاد بين الناطقين بالأفريقانية والإنكليزية ـ حيث تم إيجاد ديموقراطية استبعد منها الإفريقيون. لقد عاش خلال ظهور وسقوط التمييز العنصري، ورأى كيف أن ذلك التمييز سيطر على مواقف الناس وحياتهم. وفي رئاسته، شهد إصرار المواقف التمييزية العنصرية، وعرف كم بقي من معاقل العرقية في الجيش، وفي مجالات الأعمال، وفي وسائل

الإعلام. لكن تجربته أقنعته أن المصالحة يمكن تحقيقها. كان يعيد تأسيس شعب، ويمهره بفكرة التسامح العرقي والتعاون مثلما مهره سابقوه بعدم التسامح والعزل العرقي.

بقي مانديلا سيد الصور الرمزية، لكنها أصبحت جزءاً من شخصيته وتاريخه بالذات، وهي تكسب المزيد من الإعجاب العالمي في الوقت الذي تقاعد فيه عن السياسة ليصبح رجلاً مسناً عادياً. لقد نجا من أخطر تحد لسمعته عندما غادر السجن، ليتلاءم مع صورته الأيقونية العالمية الجارفة؛ وقد فضل ذلك بتقديم نفسه إنساناً لا معصوماً. تقترب سيرة حياته في النهاية من أسطورته؛ وكانت استقامته الأساسية ـ أكثر من أسطورة ما فوق البشر ـ هي التي أعطت قصته الإعجاب عبر العالم بأكمله.